موسى

الصحراء وأرض الموعد

Moïse

Désert et terre promise

تأليف

ديديه روشا

Didier Rochat

نقله عن الفرنسية

م. ناجي تكلا

اسم الكتاب: **موسى**
الصحراء وأرض الموعد

French Title: **Moïse**
Désert et terre promise

Author: **Didier Rochat** المؤلف: **ديديه روشا**

نقله عن الفرنسية: **م. ناجي تكلا**

التصميم الداخلي والجمع التصويري والإعداد الفني: **چيمي منير**

جميع حقوق الطبع محفوظة. لا يمكن إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل بدون إذن مكتوب من الناشر، فيما عدا الدراسة الشخصية والبحث والنقد، أو عرض مادته في جريدة أو مجلة.

الناشر باللغة العربية: Arabic Publisher:
أجابيه للنشر **Agape Publishing House**

موبايل: ٠١٢٢٢٦٦١٢٨٨ Mobile: **01222661288**

المحتويات

الفصل	الصفحة
مقدمة	٧
مقدمة عامة	٩
الجزء الأول: الخروج من مصر، قصة التحرير ...	١٣
القسم الأول: عبور الصحراء، الإطار والأبطال	١٣
(١) الإطار الجغرافي	١٣
أرض الميعاد	١٤
مصر	١٧
سيناء	٢١
(٢) البرية	٢٣
(٣) أبطال القصة	٢٧
يوسف، هل صار العبدُ مُستعبِدًا؟	٢٧
موسى، القائد الروحي رغمًا عنه	٣٢
مريم وهارون، شقيقا القائد	٤٠
يشوع، الخادم الذي أصبح جنرالًا	٤٣
الهاربون	٤٧
استنتاج متوسط	٤٩
القسم الثاني: عبور الصحراء في سبع خطوات ...	٥٣
(١) الحلم	٥٣
(٢) النهوض	٥٨
(٣) العبور	٦٤
(٤) المواجهة	٦٧

(٥) التلقي ٧٥
(٦) المثابرة ٨٥
حلقة العجل الذهبي ٨٧
حلقة المستكشفين ٩١
حلقة تمرد قورح ٩٧
حلقة مياه مريبة ٩٩
حلقة الحيَّات المُحرِقَة ١٠٠
حلقة بلعام ١٠٢
(٧) الاحتفال ١٠٥
خاتمة الجزء الأول ١٠٩

الجزء الثانى: ها أنا أصنع كلَّ شيءٍ جديدًا ١١٥
تمهيد القسم الأول ١١٥
القسم الأول: العوائق التى تعترض مصيري ١١٦
(١) لون الماء ١١٦
(٢) السلوكيات الخاطئة ١٢٠
(٣) المقارنة ١٢٣
المنافسة والكبرياء ١٢٥
الغيرة ١٢٦
قايين وهابيل: قصة غِيرة قاتلة ١٢٩
يعقوب وعيسو: محاولة تغيير المصير ١٣٢
مقارنة غير مُبرَّرة ١٣٥
(٤) الخوف ١٣٧
موت أم وسيلة للتقدم؟ ١٣٨
شبح الخوف ١٤١

أجرة الخطية هي موت ١٤٤
المُضي قُدمًا بثقة ١٤٧
مثال كالب ويشوع ١٥٠
استنتاج متوسط ١٥١
القسم الثاني: نحو خليقة جديدة ١٥٤
تمهيد القسم الثاني ١٥٤
(١) في البدء ١٥٥
الجسد والنفس والروح ١٥٩
(٢) الأرض: الجسد ١٦٣
المكان والزمان ١٦٤
مكان الاختبارات ١٦٧
الجسد ولغته ١٧٠
الجسد المادي والجسد الروحي ١٧١
نظرية الاحتياجات ١٧٥
الضمانات الكاذبة والحرية الحقيقية ١٧٦
(٣) الماء: الروح ١٧٨
فضائل الماء الاستثنائية ١٧٨
الينابيع السماوية ١٨١
خصائص الروح ١٨٢
باركي الرب يا نفسي ١٨٤
(٤) النَّفْس: النفخة ١٨٦
روح الله وروح الإنسان ١٨٦
تجليات الروح القدس ١٨٩
الروح يهبُّ حيث يشاء ١٩١

الولادة من الماء والروح ١٩٣
السلوك تحت سلطان الروح القدس ١٩٥
خاتمة الجزء الثاني ١٩٧

الخاتمة ١٩٩

مقدمة

بقلم: مهندس/ مجدي صابر

(قائد روحي، ومبادر خدمة ديديه روشا بمصر)

ثمة لحظات في حياتنا نجد فيها أنفسنا ونحن نسير في طريقٍ شاق في صحراء شكوك وعدم يقين. إن تجارب كهذه تشكلنا وتكشفنا أمام أنفسنا. عبر هذا الكتاب، يقودنا ديديه في رحلةٍ إنسانية عميقة.

من خلال هذه الرحلة، نكتشف نصوًصا ملهمة، ودروسًا حياتية ثمينة. إنه يشاركنا التحديات التي تعين عليه أن يواجهها، والعواصف العاطفية، ولحظات الوحدة، والشكوك الموجعة التي اجتاز فيها، لكن أيضًا في أيام السعادة التي عاشها. إن هذا لِيُذَكِّرَنا أنه حتى في فترات حياتنا الأكثر ظلمة، فإن هناك دومًا شعاع رجاءٍ.

يأخذنا هذا الكتاب في رحلةٍ مع شعب إسرائيل بعد خروجه من العبودية إلي الحرية، عبر الصحراء. إنه يدفعنا للتأمل في رحلة عبورنا لصحرائنا الخاصة، وفي المسارات التي سلكناها، وتلك التي لم نعبرها بعد. إنه يؤكد كذلك على أهمية المثابرة والإيمان في ذاك الذي يتحكم بكل أحداث حياتنا.

فسواء أكنت تعبر صحراءً شخصية، باحثاً عن إجابات، أو كنت تود أن تتنقل من خلال قصة جميلة، فهذا الكتاب مناسب لك.

استعدوا إذا أن يلمسكم وأن يلهمكم ويُغَيِّرَكُم هذا الكتاب المؤثر. إنه سيقودكم على طريق المثابرة والاحتمال، والتخلي، عن طريق الوثوق بالرب.

مقدمة عامة

ما كدنا نعود من رحلتنا العائلية لمصر، حتى التقيت برئيسي في العمل، في لقائنا للتقييم السنوي، دون أن يخطر ببالي ما كان ينتظرني. إن مصدر دخلي الذي أعيش منه، تؤمنه لي مسئولية ادارة مؤسسة ناشطة في مجال الإدمان، وهو عمل أمارسه منذ سنوات ست. خلال وقت فراغي وإجازاتي، فأنني أتردد بشكلٍ منتظم على مصر، بهدف تشجيع المسيحيين الذين يعيشون فيها. إن ذلك شُغْلُ قلبي، وجزء رئيسي من اهتماماتي.

حتى هذه اللحظة، كنت أذهب منفرداً إلى ذلك البلد الكبير بالشرق الأوسط. لقد قادني الرب أن أشارك في مؤتمر مرسلي أقيم بوادي النطرون، في مركز مسيحي بالصحراء، على أطراف دلتا النيل الكبيرة بين القاهرة والاسكندرية. لقد أعطي لقائي بالمسيحيين المصريين واللاجئين السودانيين انطلاقة جديدة لحياتي. لقد تشجعت بلطفِ هؤلاء الأشخاص، الذين كان دوري كراعٍ بينهم أن أصلي لأجل حاجاتهم الخاصة، وفي الوقت نفسه تباركتُ مِن خلال كلمات التشجيع وكلمات النبوة الواقعية جداً. بالتالي، فإن علاقات جديدة بلا عدد قد أطلقتني في خدمة حقيقية إلى جوار رعاة هذه المناطق.

طِرتُ أكثر من مرة متخوفًا من عدم معرفة ما يمكن توقعه هناك. بمفردي في مقعدي، تساءلت عما كنت أفعله هناك وبأي حق سمحت لنفسي بتعليمهم عن الايمان، في حين أن تجربتي الروحية بصفتي أوروبيًا متميزًا، بالكاد تسمح لي بفهم ما يواجهونه من تحديات كأقلية من المؤمنين في بيئة معادية. ولكن أكثر من مرة، أعطاني الله إشارات تدل على أنه هو نفسه الذي خطط لهذا المسار. لقد فتح لي أبواباً غير متوقعة، وخلق اتصالات غيرت حياتي وإيماني. لقد أثارت الحقيقة البسيطة المتمثلة في ذهابي لمقابلة هؤلاء الأشخاص

في أماكن نائية وقليلة الارتياد، مشاعر قوية، وأدت إلى التشجيع على كلا الجانبين. لقد جعلوني أفهم أهمية مشاركة وحدتهم وأن أكون جزءًا من تحدياتهم.

لكن هذا الصباح في نهاية أكتوبر ٢٠٢٢، بعد العودة من رحلة عائلية إلى مصر، لم يكن لدي أي فكرة أنه بعد عام مبارك جداً، سيطلب مني صاحب العمل أن أحزم حقائبي وأترك العمل. لقد تم تعييني لإصلاح المعوقات في منظمة قد مرت بعدة سنوات من العجز المزمن والتي جعلتها هدفًا للنقد بشكل منتظم. في غضون ست سنوات، وبعد أن مررت بمراحل الاستجواب وإعادة الهيكلة، نجحت مع فريقي في استعادة ميزان الحسابات والبدء في النمو مرة أخرى، وبلغت النتيجة المالية هذا العام رقماً قياسياً بلغ مئات الآلاف من الفرنكات. بالإضافة إلى ذلك، فقد كنا قد فزنا للتو في حملتين سياسيتين كبيرتين ووجدنا مصداقية جديدة مع شركائنا ومع السلطات.

كان هذا هو السياق الذي جعلني أفهم أن مستقبل المنظمة سيكون بدوني. في ظل قيادتي، تُوج التطوير التنظيمي بالنجاح بالتأكيد، ولكن بالنسبة للفترة الاستراتيجية القادمة، أرادت اللجنة أن تجد شخصية جديدة، أكثر تواصلاً وتطلعاً نحو الخارج. بالنسبة لي، كان ذلك دُشًّا باردًا. مرة أخرى، وجدتني في مواجهة أخرى مع صحراء للعبور لم أسعَ إليها بأي حال من الأحوال.

فهمت، بعد أن جربت ذلك بالفعل في الماضي، أنه في مثل هذا الوقت لم تكن المسألة مسألة رثاء ذاتي أو تمرد أو تفاوض، فعرضت على الفور استقالتي. إنه إذا كان الله قد سمح بهذا القرار، فلا بد أنه كانت لديه أسباب وجيهة. ومع ذلك، عندما أعلنت استقالتي، أعقب الصدمة التي أثارها هذا الخبر موجة من عدم الفهم والاستياء من

جانب فريقي. سادت علاقات مضطربة بين الرئيس والموظفين. لكن لا شيء ولا أحد يمكنه التأثير على القرار المتخذ.

بالنسبة لي، وجدت نفسي وحيدًا ومذهولًا جدًا. في سن ٥٨، فإنك لا تتصرف مثل رجل يبلغ من العمر ٢٥ عامًا. لقد واجهت مجهولًا كبيرًا فيما يتعلق بمستقبلي المهني، بينما كنت مضطرًا لإدارة الفوضى وعدم الاستقرار التي تسبب فيها قرار اللجنة لفريق ناجح ومتماسك. تمكنت أكثر من مرة من رؤية الله يتدخل بشكل ملموس في ممارسة مهامي من خلال توجيه قراراتي أو بإنذاري. لقد شهدت علامات معجزة وضخمة، تبرهن أن الله حقًا هو الذي وضعني في الوضع الحالي. لكن أن ينتهي كل شيء بهذه الطريقة كان صدمة ليس فقط بالنسبة لي، ولكن أيضًا لمَن حولي.

بينما أكتب هذه الكلمات، أعتقد أنني قد مررت بالأسوأ. بدأ بصيص أمل في الظهور في الأفق. أدركت إرادة الله الذي يريدني أن أعبر الصحراء مرة أخرى. لكن في أعماقي كان لدي يقين بأنني لست وحدي. هناك عائلتي بجانبي، ولكن الرب أيضًا يقف معي. سيفتح الطريق ويجهزني لغزو مناطق جديدة. من المؤكد أن التوقعات مشجعة، ولكن طالما أننا لا نرى نهاية النفق، فإن الشك يحل داخلنا بسهولة.

لن أذهب إلى حد القول إن حياتي قد صارت صحراء، لكنني واجهت ذلك مرات عديدة. لم تكن حياتي نهرًا هادئًا طويلًا. عندئذٍ لصار الأمر مملًا جدًا، إذا سارت الأمور بسلاسة بشكل دائم. لقد جعلتني المصاعب أقوى. كان على أن أتعلم كيف أروض مخاوفي. ما زالت نصوص الخروج من مصر وعبور الصحراء ترافقني وتؤشر على مراحل وجودي. لقد اتخذت بانتظام معنى شخصيًا للغاية، بدءًا من بدايات الخدمة الرعوية حيث قرأت وتأملت فيها. كانت فرصة لأغوص فيما يمكن أن يكون عليه دخول أرض الميعاد

بالنسبة لي. بعيدًا عن مظالم الحياة، وأيضًا الأخطاء التي ارتُكِبت وأوجه القصور الشخصية، إذا عهدت بحياتي إلى الله، يجب أن أقبل أنه هو الذي يقودها. لأنني مقتنع أن لله أرض ميعادٍ محفوظة لكل من يثق به، وأن الآتي أفضل.

بهذه الروح أكتب هذا الكتاب. أتمنى أن يشجعنا على الثقة في العناية الإلهية. لا أحد يستطيع تجنب عبور الصحراء عندما تأتي إلى أعتاب بيته. يمكن للصحراء أن تتخذ أشكالًا لا حصر لها، وتهزنا بقوة تزيد أو تقل، لكن المسار الذي يعبرها، مهما كان صعبًا، فإنه يكون هادياً ويقود إلى موضع أفضل. إذا ألزمت نفسي وسمحت لروحه أن يرشدني، يكون عندي التأكيد على الوصول لبَر الأمان، وقد ازددت غنًى ونموًا روحيين.

يغمرنا الجزء الأول من الكتاب في واقع الشعب العبراني، حيث يقودهم الله إلى الصحراء تحت مسؤولية موسى الادارية والروحية. إنه يغمرنا في هذه الرحلة الكتابية الرمزية. إنها مسألة فهم أفضل للسياق التاريخي والكتابي والروحي لعبور الصحراء واكتشاف الشخصيات الرئيسية. هذه كلها أوجه تشابه يمكن رسمها مع مسارات حياتنا. دعونا نسير على خُطى الشعب العبراني ونجرؤ على السفر نحو أرض الميعاد.

في الجزء الثاني من الكتاب، سنوسع نظرتنا إلى العوائق التي تمنعنا من دخول الأرض التي أعدَّها الله لجميع أبنائه. أدعوكم إلى تتعمقوا في بعض اهتماماتي وأبحاثي فيما يتعلق بالخليقة الجديدة التي أعدها الله والتي يدعونا إليها. في الواقع، لدى الله الكثير من التشجيع ليمنحنا إياه. ربما سيكون قادرًا على مفاجأتنا برفع جزء جديد من الحجاب عن المشروع الذي يخبئه لحياتنا.

الجزء الأول: الخروج من مصر، قصة التحرير

القسم الأول: عبور الصحراء، الإطار والأبطال

(١) الإطار الجغرافي

قبل الانطلاق في طريق الصحراء، دعونا نأخذ الوقت الكافي للتفكير في الإطار العام. إن الخروج من مصر ورسالة التحرير التي تشكل إطارها تكون بالفعل النواة الصلبة لفهم الشريعة والأنبياء. تدور جميع النصوص الكتابية حول هذه الأحداث وتعطيها أهمية خاصة جدًا لجميع العلاقات بين الله والبشرية. يمثل عبور البحر الأحمر، لكل من الشعب اليهودي وليسوع والرسل من بعده، مَعبرًا وبداية جديدة.

في كل عام، في عيد الفصح، وحول وجبة رمزية للغاية، نتذكر هذه القصص كما لو كانت قد حدثت للتو. لأن نصوص الخروج من مصر تذكرنا بأن الله يسمع نداءات طلب المعونة، فهو ليس أصمًا أمام الضيق الإنساني، إنه يتدخل بشكل ملموس للغاية لتحرير البشرية من التجاوزات الاستبدادية وإعطاء الأمل للناس المحاصرين في براثن الشمولية والاستعباد. يقوم الإيمان بالدرجة الأولى على اختبار التحرر، وحتى الاهتداء.

تستند القصص التي تصف الخروج من العبودية والدخول إلى أرض الميعاد إلى مجموعة من الوعود التي قُطعت للبطاركة نوح أو إبراهيم أو يعقوب، ولكن أيضًا على شعور قوي بالضرورة المُلِحَّة. لدى الله خطة خلاص مبنية على قصص حياة مألوفة ومحددة للغاية. بعيدًا عن الأوهام والمثالية، فإن الإيمان متجذر في سياق تاريخي وقصص حياتية قريبة من حياتنا. إن الله يستخدم بشراً من لحم ودم

لتحقيق غاياته. إن المضي في مغامرة نحو أرض الميعاد تعني تركَ وضعٍ مألوف لمواجهة المجهول، وإتباع الله هو قبول العيش من يوم لآخر وقبول تقلبات عبور صحارينا كهدايا، عالمين أنه يرافقنا، بل يسبقنا إلى هناك.

أرض الميعاد

"فَنَزَلْتُ لِأُنْقِذَهُمْ (أي شعبي) مِنْ أَيْدِي ٱلْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، إِلَى مَكَانِ ٱلْكَنْعَانِيِّينَ وَٱلْحِثِّيِّينَ وَٱلْأَمُورِيِّينَ وَٱلْفِرِزِّيِّينَ وَٱلْحِوِّيِّينَ وَٱلْيَبُوسِيِّينَ." (خروج ٣:٨).[١]

قد يكون الله غير قابل للمس، وكلي العلم وعالمي، لكنه نشط داخل الخليقة ويلتقي بالإنسانية في مواقع جغرافية محددة جيدًا. كل شيء يبدأ بجنة عدن، التي تقع بشكل عامٍ بين أنهار العراق العظيمة. ثم دعا الله إبراهيم أن يسلك الطريق إلى بلد يعيّنه له (تك ١٢:١). إنها بداية علاقة مميزة بين الله والشعب الذي يشكله. كل شيء يبدأ من الوعد الإلهي الذي يجعل من إسرائيل شعبًا مختارًا له حدود مخصصة لذلك، وفيها تكون العلاقة مع الله وثيقة على نحوٍ خاص.

الوعد الذي قطع لإبراهيم (تك ١٥:١٨؛ ١٧،٨) تكرر لإسحاق (تك ٢٦:٢)، وليعقوب (تك ٢٨:١٣؛٣٥:١٢)، ثم أخيرًا لموسى (خر ٣٣:١). بمجرد احتلال العبرانيين لهذه المنطقة، تحمل اسم أرض كنعان أو أرض إسرائيل. كما يلقبها المسيحيون بالأرض المقدسة في إشارة إلى يسوع، المسيح ومخلص البشرية. بالنسبة لي، سأستخدم للحديث عنها هذا المصطلح الأكثر انفتاحًا أي، أرض الميعاد.

---

[١] الاقتباسات الكتابية مأخوذة بشكل أساسي من ترجمة "كتاب الحياة"، وفي بعض الفقرات فإن الترجمة الثانية ٢١ كانت هي المفضلة، أما بالنسبة للاختصارات الكتابية فهي من ال TOB.

"لِأَنَّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ آتٍ بِكَ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ. أَرْضِ أَنْهَارٍ مِنْ عُيُونٍ، وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي ٱلْبِقَاعِ وَٱلْجِبَالِ. أَرْضِ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَكَرْمٍ وَتِينٍ وَرُمَّانٍ. أَرْضِ زَيْتُونِ زَيْتٍ، وَعَسَلٍ. أَرْضٍ لَيْسَ بِٱلْمَسْكَنَةِ تَأْكُلُ فِيهَا خُبْزًا، وَلَا يُعْوِزُكَ فِيهَا شَيْءٌ. أَرْضٍ حِجَارَتُهَا حَدِيدٌ، وَمِنْ جِبَالِهَا تَحْفُرُ نُحَاسًا. فَمَتَى أَكَلْتَ وَشَبِعْتَ تُبَارِكُ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ لِأَجْلِ ٱلْأَرْضِ ٱلْجَيِّدَةِ ٱلَّتِي أَعْطَاكَ." (تث ٨: ٧-١٠).

إن وصف موسى لأرض الموعد يتناقض بشدة مع أرض مصر. فالنيل المبجل هناك كإله يخصب المحاصيل من خلال الري المنتظم. إن بها الكثير من الخضار والأسماك. يتذكر العبرانيون على وجه الخصوص الخيار، والبطيخ، والكراث، والبصل، والثوم (عد١١:٥). لكن الأرض المحيطة بها والتي تشكل الجزء الأكبر من المنطقة هي قاحلة وجافة بسبب قلة الأمطار.

سلط موسى الضوء على المطر من السماء، والجداول، والأشجار وكذلك المعادن، لوصف كنعان. إن ما يبرز ويتأكد في هذا البلد ليس عمل الإنسان بل الخير والغنى الإلهي المتكاثر. في عدة مناسبات، يتم تقديم هذه المنطقة كأرضٍ تفيض لبناء وعسلاً، في إشارة إلى مساحة مواتية لتربية الماشية (الحليب) والزراعة (العسل)، فلا شيء ينقص هذا المكان. إن الطبيعة سخية في حد ذاتها. لذا يتم تقديم كنعان على أنها جنة عدن الجديدة، المليئة بالأشجار، حيث يكفي فقط قطف الثمار.

قال موسى: "فَٱحْفَظُوا كُلَّ ٱلْوَصَايَا ٱلَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا ٱلْيَوْمَ لِكَيْ تَتَشَدَّدُوا وَتَدْخُلُوا وَتَمْتَلِكُوا ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكُوهَا، وَلِكَيْ تُطِيلُوا ٱلْأَيَّامَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَقْسَمَ ٱلرَّبُّ لِآبَائِكُمْ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُمْ وَلِنَسْلِهِمْ، أَرْضٌ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا. لِأَنَّ ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا لَيْسَتْ مِثْلَ أَرْضِ مِصْرَ ٱلَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا، حَيْثُ كُنْتَ تَزْرَعُ زَرْعَكَ وَتَسْقِيهِ بِرِجْلِكَ كَبُسْتَانِ بُقُولٍ. بَلْ ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي

أَنْتُمْ عَابِرُونَ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكُوهَا، هِيَ أَرْضُ جِبَالٍ وَبِقَاعٍ. مِنْ مَطَرِ ٱلسَّمَاءِ تَشْرَبُ مَاءً. أَرْضٌ يَعْتَنِي بِهَا ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ. عَيْنَا ٱلرَّبِّ إِلَهِكَ عَلَيْهَا دَائِمًا مِنْ أَوَّلِ ٱلسَّنَةِ إِلَى آخِرِهَا."(تث ١١: ٨-١٢).

لقد اختار الله أرضًا مميزة وعاصمتها القدس. هذه المدينة، بعيدة كل البعد عن كونها واحدة من أكبر المدن في العالم، لكنها تحمل بُعدًا روحيًا. إن بناء الهيكل، مكان لقاء الله مع شعبه، يمنحها مكانة مميزة وفريدة من نوعها، في مقابل مدينة بابل بالعراق، مدينة القوى المعادية لإله إسرائيل. مع القدس الجديدة، تتسع الرمزية إلى رؤية كونية للفردوس أو للحياة بعد الموت.

حالما استقر اليهود جيدًا في كنعان، أرض الموعد، لم يتخيلوا للحظة واحدة أنه يمكن طردهم منها يومًا ما. لم يتصوروا أن الله يمكن أن يتراجع عن الكلمة التي أعطاها. هذا اليقين جعلهم يُفرطون في الثقة. لقد فاجأهم سقوط الممالك الشمالية، ثم يهوذا، مع حصار وتدمير مدن السامرة من قبل الآشوريين عام ٧٢٢، وأورشليم في عام ٥٨٧ قبل الميلاد. عانى اليهود من هذه الأحداث كصدمة. كأن الله قد ترك شعبه. أخيرًا كان يُنظر إلى نفي الشعب المختار على أنه عقاب إلهي شديد.

ومع ذلك، حذر أنبياء مثل إرميا من أن الثقة المفرطة في قوة المرء الذاتية وعدم الرغبة في التوبة ستكون لهما عواقب وخيمة. لكنهم أعلنوا في نفس الوقت أن هذه الفترة ستكون محدودة المدة. ستكون هناك عودة إلى أرض الموعد وستستعيد القدس مكانتها كمركز روحي. من بين الشخصيات القيادية، كان نحميا أحد الفاعلين الكتابيين الأساسيين. لقد تحققت الوعود: على عكس بابل، التي لا تزال في حالة خراب إلى اليوم، فقد أعيد بالفعل بناء القدس عدة مرات، كانت آخرها، بعد الدمار الشامل الذي تسبب فيه الرومان في عام ٧٠ م.

"حِينَ أُخْرِجُكُمْ مِنْ بَيْنِ ٱلشُّعُوبِ، وَأَجْمَعُكُمْ مِنَ ٱلْأَرَاضِي ٱلَّتِي تَفَرَّقْتُمْ فِيهَا، وَأَتَقَدَّسُ فِيكُمْ أَمَامَ عُيُونِ ٱلْأُمَمِ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ، حِينَ آتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي رَفَعْتُ يَدِي لِأُعْطِي آبَاءَكُمْ إِيَّاهَا." (حز ٢٠: ٤١).

مصر

"أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِٱلْمِصْرِيِّينَ. وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ ٱلنُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ." (خر ١٩: ٤).

لكن ما الذي كانت تمثله مصر في زمن العبرانيين؟ كانت واحدة من أكبر وأطول الحضارات الإنسانية. عندما نزور المواقع الأثرية المصرية، لا يسعنا إلا أن ُنصدم من الضخامة والإفراط فيما شيده هؤلاء الفراعنة البناءين. حتى اليوم، يصعب علينا أن نفهم كيف تم بناء الأهرامات والمعابد ذات الأعمدة الهائلة بوسائل ضعيفة. استغرق بنائهم قرونًا واستنفد الآلاف من العمال. في الأقصر، تشير التقديرات إلى أنه منذ بداية بناء معبد الكرنك وانتهائه، مرت ١٢٠٠ سنة، أي أكثر من ٤٠ جيلًا من الفراعنة.

تمتد الحضارة المصرية لأكثر من ٣٠٠٠ عام. إنها تفوق كل الآخرين: الآشوريون والفرس واليونانيون والرومان وحتى المسيحية. من خلال زيارة المتاحف المصرية، لا يسع المرء إلا أن يندهش من مدي تقدم التكنولوجيا وكذلك تطور الكتابة عندهم. كانت المعدات والعربات الحربية ذات قوة وكفاءة هائلة. كذلك فقد تم تطوير الملاحة بشكل كبير يسمح بتجارة البضائع في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط. على نهر النيل، تم نقل كميات كبيرة من الأحجار ذات الوزن الكبير لبناء الأهرامات.

يجب أيضًا تذكر أهمية الحياة بعد الموت. كان المصريون يضعون خططاً طويلة المدي. كانوا متدينين للغاية وعاشوا من أجل المستقبل. لقد استثمروا كل طاقتهم وإمكاناتهم المالية الكبيرة لبناء مقابر فخمة مخبأة تحت الأرض، والتي لن يراها أحد على الإطلاق بمجرد ختمها وإغلاقها، فقد تم حبس المومياء هناك، ووضعت في توابيت خشبية مكونة من عدة طبقات، وتم إيداع جميع الأشياء الثمينة التي يعتز بها المتوفى هناك معه. كان من أولى القرارات التي اتخذها الفرعون بمجرد تنصيبه هي أن يبدأ في بناء مقبرته.

كل هذا يصعب فهمه بالنسبة لنا نحن الغربيون. لقد اعتاد الأباطرة والملوك وجميع الحكام، منذ الرومان، الكشف عن قوتهم للعالم من خلال عرض ثرواتهم وبناء القصور الفخمة وإقامة الكاتدرائيات المتألقة. كما لا يزال جزء كبير من البشرية اليوم يستثمر كل طاقته في الحصول على سلع مادية عقيمة وقابلة للتلف. يسخر يسوع نفسه من هذا السلوك قائلًا:

"لَا تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا عَلَى ٱلْأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ ٱلسُّوسُ وَٱلصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ ٱلسَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلِ ٱكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا فِي ٱلسَّمَاءِ، حَيْثُ لَا يُفْسِدُ سُوسٌ وَلَا صَدَأٌ، وَحَيْثُ لَا يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلَا يَسْرِقُونَ،

لِأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا." (مت ٦: ١٩-٢١).

إن المصريين متدينون بشكل خاص. يرون الآلهة في كل مكان، في الطبيعة وفي الحيوانات. بالنسبة لقدماء المصريين، تأتي الحياة من الشمس (رع) ونهر النيل (حابي). يدور دينهم حول دورات الطبيعة التي تتخللها الفصول، أو بالأحرى فيضانات النيل. بادئ ذي بدء، هناك إيقاع الأيام. في الأقصر، تحدث الحياة على الجانب الشرقي من النيل، حيث تشرق الشمس. نجد هناك المعابد الرئيسية، وحيث تُغْرِب الشمس في غرب النيل توجد المقابر ووادي الملوك

والملكات. إنه مكان الحياة بعد الموت. إن وجهي الحياة متمايزان بشكل واضح.

يُعتبر النهر نفسه إلهًا. إنه يروي طمي الأرض ويجعلها خصبة. عندما تنظر إلى الخريطة، ستلاحظ مدى جفاف البلاد. المطر شبه معدوم. يتركز الجزء الأخضر المروي، وكذلك كل أشكال الحياة، حول مجرى النيل والدلتا. بفضل النيل، تزرع الحقول على مدار السنة. الخضار والفواكه وفيرة، مما جعل البلد دائمًا غنيًا. حتى في أوقات المجاعة لا يوجد نقص في الغذاء. يضاف إلى ذلك الاستقرار السياسي. هذا هو السبب الذي يجعل اللاجئين الاقتصاديين والهاربين من سوء المناخ يتخذونها دائمًا مكانًا للإقامة فيها، ولم يكن العبرانيون استثناء من ذلك.

ذهب العديد من الشخصيات التوراتية إلى مصر لأنهم فروا من قوات الاحتلال والحروب (راجِع ٢ مل ٢٥، ٢٦). يذهب إبراهيم إلى هناك أثناء المجاعة (تك ١٠:١٢)، ويستقر يعقوب هناك مع عائلته خلال المجاعة الكبرى، التي أُعطت يوسف مسؤولية التعامل مع عواقبها (تك ٤٦). أما النبي إرميا، الذي عارض باستمرار إغراء الاعتماد على مصر في مواجهة الفرس، فقد اقتيد إلى هناك بالقوة وتوفي هناك رغماً عنه (إر ٤٢).

بحسب إنجيل متى (الفصل ٢)، تذهب مريم ويوسف إلى هناك للحفاظ على حياة يسوع، مولودهما الجديد. حتى اليوم، يحتفظ التقليد القبطي بذكرى مذهلة لهذا المرور عبر عدد لا يحصى من الأديرة المبنية على ما يسمى بالأماكن التي زارتها العائلة المقدسة وأقامت بها.

كانت مصر قوية. النيل هو فخرها وثروتها. إنها أيضًا قوة عسكرية تقاوم من حاولوا احتلالها لآلاف السنين حتى وصول

الإغريق بقيادة الإسكندر الأكبر، ثم الرومان. من جانبها، تظهر أيضًا كقوة محتلة، سواء في اتجاه النوبة أو إسرائيل. إنها تسعى مرات عديدة للتأثير، وحتى لاحتلال، أراضي فلسطين من خلال التحالفات (٢ مل ١٧: ٤؛ إر ٣٧: ٧) أو الفتوحات (١ مل ١٤: ٢٥؛ ٢ مل ٢٣: ٢٩، ٣٤؛ إر ٤٦: ٢).

على مر القرون، استقرت مستعمرات يهودية كبيرة على طول البحر الأبيض المتوسط وخاصة في الإسكندرية حيث ساهمت في تطوير وتأثير المدارس المهمة للفكر الهلنستي. هنا تمت الترجمة الأولى للعهد القديم إلى اليونانية، والتي تسمى الترجمة السبعينية.

"فَيَكُونُ إِذَا دَعَاكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَالَ: مَا صِنَاعَتُكُمْ؟ أَنْ تَقُولُوا: عَبِيدُكَ أَهْلُ مَوَاشٍ مُنْذُ صِبَانَا إِلَى ٱلْآنَ، نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا. لِكَيْ تَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. لِأَنَّ كُلَّ رَاعِي غَنَمٍ رِجْسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ." (تك٤٦: ٣٣).

وفقًا لكتابي التكوين والخروج، أقام العبرانيون ٤٣٠ عامًا في أرض مصر (تك ١٥:١٣؛ خر ١٢:٤٠؛ أع ٧:٦)، أي ما بين ١٧٠٠ و١٢٥٠ قبل الميلاد. في البداية، كان عددهم قليلًا: ٧٠ شخصًا بالإضافة إلى قطيع كبير من الماشية. يتم الترحيب بعائلة يوسف بأذرع مفتوحة، حيث يجلبون المهارات والحرف غير المتوافرة وربما المهملة أيضاً. بسبب ثراء الثقافات السائدة، تم إهمال مهنة الرعي ويبدو أنها كانت تشوه سمعة المصريين. ربما كانوا يخشون أيضًا قتل الحيوانات لأسباب روحية. لقد كانوا بالفعل أناسًا متدينين جدًا ومؤمنين بالخرافات. كانت آلهتهم عديدة وغالبا ما كان لها شكل حيواني. لذلك يمكن اعتبار تربية الحيوانات وأكلها على أنها معادية للدين وخطيرة. تم تحنيط بعض الحيوانات مثل البشر بدلًا من أن تؤكل.[٢]

[٢] لقد تم في كوم أمبو، اكتشاف عددًا كبيرًا من الحيوانات المحنطة، مثل القطط والكلاب والثيران والطيور والصقور والثعابين وبالتأكيد التماسيح.

بعد ذلك، وبسبب التكاثر، انتشر العبرانيون جغرافيًا في دلتا النيل. إنهم يندمجون تدريجيًا، بينما يظلون يُنظر إليهم على أنهم أجانب، بسبب أسلوب حياتهم وعاداتهم الخاصة. يبدو أن الزيجات المختلطة وبين الطوائف الأخرى الغريبة عنهم قليلة العدد. وكلما تكاثروا، زادَ اعتبارهم تهديدًا للسكان المحليين وكذلك للسلطات. وفقًا للخروج ١٢:٣٧، غادر البلاد ٦٠٠ ألف رجلًا، ممَّا يجعل إجمالي عدد السكان ما يقرب من ٢ إلى ٣ ملايين شخص. يُضاف إلى هذا قطعان الماشية. لذلك يمكننا أن نفهم إحجام الفرعون عن إطلاق سراحهم.

"ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلَّا يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ ٱلْأَرْضِ". (خر١: ٨-١٠).

سيناء

تشكل سيناء مثلثًا بين البحر الأبيض المتوسط من الشمال والبحر الأحمر (خليج السويس وخليج العقبة) من الجنوب، وتشكل منطقة صحراوية عازلة بين إفريقيا والشرق الأوسط. يبلغ طولها ٢١٠ كم وتبلغ مساحتها ٥٩.٠٠٠ كيلومترًا مربعًا. للوصول إلى أرض الميعاد، كان لدى الشعب العبري إمكانية اتباع ساحل البحر الأبيض المتوسط الرملي غير الآمن نوعاً ما. أما المسار الآخر فيتجه جنوبًا متجاوزًا المناطق الجبلية التي تبلغ ذروتها بقمم تصل إلى ٢٢٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر. بين الاثنين، توجد هضبة من الحجر الجيري تقع على بعد حوالي ٦٠٠ إلى ٧٠٠ متر مع قيعان أنهار غالبًا ما تكون جافة. في اتجاه كنعان، بالقرب من قادش، توجد تلال بها القليل من النباتات والينابيع التي يمكن التقاطها عن طريق حفر

الآبار. في هذه المنطقة يتجول الناس لمدة ٣٨ عامًا بسبب عدم ثقتهم بالله.

الطريق الشمالي، الذي بطول ٢٥٠ كيلومترًا سيرًا على الأقدام، كان من الممكن أن يكون أقصر بكثير وأكثر ملاءمة لكثير من الناس برفقة ماشيتهم. لكن موسى، بإلهام من الله، أجبرهم على الذهاب جنوبًا والقيام برحلة طولها ٨٠٠ كيلومترًا. تظهر عدة أسباب إستراتيجية وروحية لهذا الاختيار:

أولًا، كان الطريق الشمالي محفوفًا بالمخاطر؛ لأنه كان سيترك لفرعون وجيشه كل خط العرض اللازم للحاق الهاربين بسهولة وإجبارهم على العودة. إنهم ضعفاء ويتقدمون ببطء، ويشير النص التوراتي بوضوح إلى التهديد الذي شكله فرسان فرعون على الشعب العبراني. البحر الأحمر عقبة أمام الشعب والجيش المصري. إن انشقاق البحر الأحمر هو علامة معجزة إلهية بالنسبة للعبرانيين، ولكنه أيضًا شوكة في قدم فرعون. إنه يُذكِّر مرة أخرى بقوة التدخل الإلهي. إنه تحقيق لوعد سماوي يؤكد الدعوة التي أطلقها الله على هذه الأمة اليهودية في طور التكوين.

يمثل المَعبر فاصلًا واضحًا ويشكل نقطة اللا عودة. من هناك وبعد هزيمته الساحقة، تخلى فرعون أخيرًا عن كل امتياز على العبرانيين. من جانبهم، فإن الهاربين قد وجدوا أنفسهم ملزمين بالفعل بالتخلي نهائياً عن أي رغبة في العودة إلى مصر. إنهم مجبرون على مواصلة رحلتهم نحو الصحراء.

ثانيًا، يعتبر عبور سيناء مرحلة حاسمة في (تحويل) الشعب. من عائلات معزولة يسيطر عليها نظام شمولي، فإن ذهاب العبرانيون إلى الصحراء كان لاكتساب الخبرات التكوينية اللازمة لتطورهم الجماعي والشخصي. تم اختبار المسيرة القسرية عبر منطقة

صحراوية في البداية كصدمة للأشخاص الذين اعتادوا على الثقافات الغنية والمتنوعة المرتبطة بفيضانات النيل. ومع ذلك، فإن قلة الماء والطعام يجبرهم على الخضوع لإلههم والتوكل عليه. إن أربعين عاما لن تكون مدة طويلة جدا لتكوين شعب موحد وحر. من المجموعات المعزولة وغير المتجانسة، سيفضي عبور الصحراء إلى خروج ١٢ قبيلة تتبع نفس القواعد ومتحدة في نفس الإيمان.

في الواقع، تقدم قصة الخروج مراحل مهمة مختلفة في بناء الأمة، من خلال هيكلة الأمة -تحت قيادة موسى- وتذكر القصة كيف أن الناس، من خلال عدة حلقات متتالية، يختبرون معني الوحي الإلهي ويتعلمون عبادة الرب. إن عبور الصحراء، من وجهة نظر تاريخية وروحية، قد بين كم كان خلاصاً للشعب. لقد كان تأثير أسلوب الحياة والدين عند المصريين محفورًا جدًا في طريقة التفكير والعقل الباطن العبري لدرجة أن قطعًا نظيفًا مثل رحلة الصحراء فقط هو الذي جعل من الممكن التخلص من ذلك التأثير.

(٢) البرية

"وَلِمَاذَا أَصْعَدْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِتَأْتِيَا بِنَا إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ ٱلرَّدِيءِ؟ لَيْسَ هُوَ مَكَانَ زَرْعٍ وَتِينٍ وَكَرْمٍ وَرُمَّانٍ، وَلَا فِيهِ مَاءٌ لِلشُّرْبِ!" (عد٢٠: ٥).

في مقابل الأرض الخصبة لوادي النيل فلا شيء هنا سوى الصحراء. هاهنا يفتقر العبرانيون إلى كل شيء. كانت المقارنة بين الحياة المستريحة في مصر بالمقارنة مع عدم تعودهم علي حياة التنقل والترحال، صارخة. لقد فقد العبرانيون بوصلتهم، أي النيل، مصدر المياه العذبة والأسماك، والحدائق الصالحة للزراعة التي وفرت حصتهم من الفاكهة والخضروات، وكذلك المساحات الخضراء التي جعلت من الممكن إطعام الماشية. لا شيء كما كان

من قبل، ناهيك عن فقدان الأنشطة المهنية المعتادة. لم يعد الناس خاضعين للسيطرة والتأطير من قبل إدارة منتشرة في كل مكان، عندها بدأ الشعب بجدية في التردد والشك.

بالطبع، لا يمكن مقارنة صحراء سيناء بغيرها. إنها ليست رومانسية، لكنها بالتأكيد أقل جفافاً من هذه الكثبان الرملية الممتدة على مدى البصر، كما نجدها أثناء رحلات الجمال أو خلال حلقات رالي باريس داكار. تشبه سيناء إلى حد كبير السهوب والأراضي القاحلة والقاسية، حيث يزدهر فيها عدد معين من الحيوانات التي لا تسهل رؤيتها ونباتات معينة. لقد استقرت بعض القبائل هناك حيث تعيش شكلاً من أشكال البداوة، مثل يثرون، كاهن مديان[٣] وحما موسى. سيقضي الأخير هناك ٤٠ عامًا قبل أن يعود إلى مصر. إن المساحات الخضراء الضعيفة الموجودة هناك بالكاد تكفي لإطعام القطعان العديدة وكذلك الشعب العبري بأكمله كما هو واضح من النصوص.

يولي الكتاب المقدس اهتمامًا كبيرًا للصحراء وما تمثله لتاريخ الخلاص. إنه ليس مكانًا عقيمًا لا يوجد فيه شيء، بل على العكس تمامًا. فوراء التضاريس المعزولة والجافة، تعد الصحراء مكانًا للوحي وفضاءً للحرية وبالتالي مساحة محددة تجلب الأمل. تم العثور على مصطلح الصحراء ما يقرب من ٣٥٠ مرة في النصوص التوراتية. عند وصف منطقة معين، عادة ما يكون للصحراء اسم مناسب. أما اللغة العبرية فتستخدم ٥ مصطلحات مختلفة لوصف الفروق الدقيقة بينها[٤]:

- ميدبار (٢٧١مرة): سهل مفتوح غير مزروع حيث تتجول الوحوش البرية بحرية.

[٣] في شمال الصحراء العربية، بالقرب من خليج العقبة، واقعيًا، في المملكة العربية السعودية.
[٤] عن قاموس الكتاب المقدس الجديد، إصدار عمواس.

- عربة: منطقة عادية أو قاحلة.
- يشيمون: أرض قاحلة مقفرة.
- حرابوت: أراضي قاحلة، أماكن مقفرة.
- توهو وابوهو (تك ١: ٢): فوضى بدائية، حالة مشوشة للعناصر لأنها تسبق خلق العالم؛ ترجمت "كصحراء وباطل" (TOB).

تتميز الصحراء أيضًا بكونها مساحة محايدة. نظرًا لأنها بشكل عام غير مأهولة بالسكان أو قليلة السكان، فإن هذه المنطقة لا تنتمي إلى أي شخص ولم يستحوذ عليها أي إله. في الواقع، في العصور القديمة، كان لكل قبيلة آلهة وطقوس عبادة. أود أن أقول إنه في ذلك العصر، كانوا عندما ينتقلون من منطقة إلى أخرى، يقومون أيضًا باستبدال آلهتهم بآلهة المكان الجديد. لكن هذا ليس هو الحال في الصحراء. نحن أحرار في عبادة من نريد. وبما أن إله إسرائيل ليس مرتبطًا بأرض، فهو مكان متميز لمقابلته.

في هذه الحالة الذهنية، كان آباء الصحراء، الرهبان المسيحيون الأوائل، الذين كانوا يسعون إلى الهدوء والعزلة لتكريس أنفسهم للتأمل، يفضلون أن يقيموا هناك. الحوار القصير التالي يدل على هذه الحساسية:

'يا بني لماذا تهرب إلى الصحراء؟ "هل لطلب الله". "أليس الله في كل مكان؟" إنه في المنزل بقدر ما هو في الصحراء. "الله هو نفسه في كل مكان، لكنني أنا لست نفس الشخص في كل مكان. إن الصحراء تساعدني على طلب الله.'[٥]

[5] https: www.reforme.net/théologie/2018/07/09/le-desert-dans-la-bible-une-experience-spirituelle/

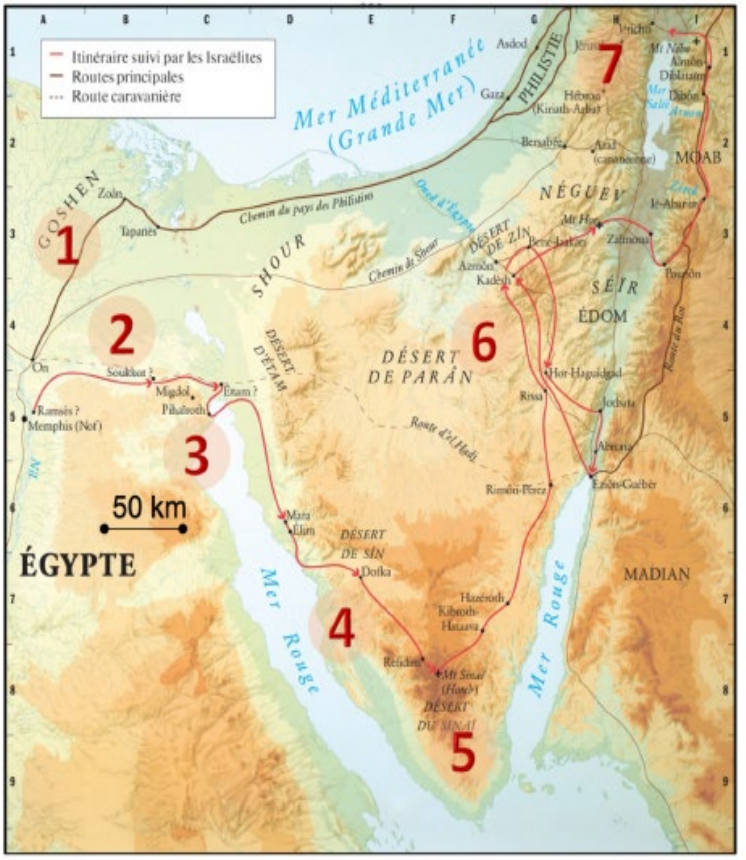

يستمد الأنبياء إيليا وإرميا ويوحنا المعمدان أو يسوع طاقتهم ومصدر إلهامهم من الصحراء. إنهم يلجأون إليها ليتجنبوا الزحام ويجدون فيها مكاناً للصلاة. هناك، قضى يسوع هناك ٤٠ يومًا في بداية خدمته وفيها ونضجت دعوته الروحية. يمكننا أيضًا أن نضيف إلى هؤلاء الرسول بولس الذي يقول إنه قضى ما يقرب من ١٠ سنوات في شبه الجزيرة العربية، في بداية خدمته، بعد أن خاض تجربة اهتداء للإيمان، غاية في القوة (غل ١: ١٧).

في الفرنسية، تعني كلمة صحراء أرضًا نائية تسود فيها العزلة أكثر من كونها مساحة خالية من الحياة. بالنسبة للأشخاص الذين يلتمسون ملجأ، غالبًا ما تكون الصحراء مكانًا مناسبًا يوفر لهم مساحة من الحرية للانسحاب والتعبير عن آرائهم، دون خوف من اكتشافهم وإدانتهم. بعد إلغاء مرسوم نانت، بين ١٧١٥-١٧٨٧، أُجبِرَ البروتستانت الفرنسيون (الهوغونوت) على الاختباء ليعيشوا إيمانهم بعيدًا في الريف. حيث أصبحت أماكن الحياة هذه بمثابة صحرائهم الخاصة.

(٣) أبطال القصة

يوسف، هل صار العبدُ مُستعبِداً؟

تعتبر رواية يوسف واحدة من أطول الروايات وأكثرها تفصيلاً في العهد القديم. تقدم هذه الرواية مجيء أبيه يعقوب وإخوته الأحد عشر وعائلاتهم إلى مصر. إن الغيرة بين الإخوة، الناتجة عن مُحاباة الأب الذي يميز أبناء راحيل، زوجته المفضلة، تدفع الأشقاء إلى كُرهِ يوسف. إن الأحلام الغامضة التي يشاركها هذا الأخير مع إخوته تجعل الإناء يفيض. لقد أثارت تلك الأحلام نوبة من الغضب قادت إلى حادثة مأساوية ستؤدي إلى احتجاز وبيع وترحيل الابن الأصغر.

تصف بقية القصة كيف أن يوسف، الذكي والوسيم والملهم من الله، قد قاده كل ذلك إلى إعلان نبوي لفرعون عن قرب مجيء مجاعة غير مسبوقة. إنه ينال ثقة الملك الذي يضعه في منصب رئيس الوزراء، المسؤول عن تنظيم البنى التحتية للبلاد. بفضل بصيرته وحكمته وقدرته على الحكم، فهو يسمح للمصريين بتجاوز أزمة المناخ الخطيرة ويبرز فرعون كزعيم رائد في مجموعة الأمم. أما يوسف نفسه، فيتعرف على يد الله من خلال رحلته.

"فَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: تَقَدَّمُوا إِلَيَّ. فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ ٱلَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. وَٱلْآنَ لَا تَتَأَسَّفُوا وَلَا تَغْتَاظُوا لِأَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا، لِأَنَّهُ لِٱسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ ٱللهُ قُدَّامَكُمْ."(تك ٤٥ :٤).

بالنسبة للمسيحيين، يعتبر يوسف بمثابة تصور مسبق للمسيح. دعاه الله منذ صغره، فدربه وجّهزه ووضعه عن يمين فرعون لممارسة هذه الوظائف السامية وبالتالي ينقذ عائلته في نفس الوقت مع سكان هذه المنطقة. مثل يسوع، تعرض للاضطهاد والإدانة ظلماً ثم بيعه للتجار وعُومِل كعبد. لكن الله يستخدمه ويرفعه ويوكله لخدمة الخلاص.

ترى بعض الأصوات الناقدة يوسف على أنه مؤمن أمين، لكنه ضل طريقه ما إن وصل إلى السُلْطَة. في الواقع، لا يظهر اسمه على أي نقش على مسلة أو بالكتابة الهيروغليفية، ولولا الرواية الكتابية، لكان اسمه قدُفقدَ مرة واحدة وإلى الأبد. أيضًا، في حين تم تسمية جميع إخوة يوسف على اسم سبط عبراني، لم يظهر يوسف نفسه في أي منهم، وحل محله ابناه أفرايم ومنسَّى. تتركنا هذه الحكايات حَيرى وتثير التساؤلات.

فهل تخلف يوسف عن دعوته إذًا؟ بناءً على بعض المؤشرات الكتابية، قد يمكننا أن نصدق ذلك. قد يكون مجيء يعقوب وأبنائه إلى مصر فرصة للشهادة لإله إسرائيل. كان من الممكن أن يستخدم يوسف نفوذه لتغيير هذه الأمة المتدينة والمؤمنة بالخرافات والتي كانت تعبد عددًا كبيرًا من الآلهة والأصنام. لكن بدلاً من تسليط الضوء على تفوق الإله الواحد، هذا الإله الذي قاده وأعلن له َومكَّنَهُ من تجنب كارثة اقتصادية، يبدو أن يوسف مع ذلك، بمجرد أن بدأ العمل، حتى نسي أصوله. إنه يعطي انطباعًا بالخضوع الأعمى لملكه، وللدين الذي يجسده الفرعون، والخضوع للآلهة المحليين دون أي حس نقدي. على عكس أسلافه، فهو لا يتزوج فتاة عبرية، بل

يتزوج أسنات المصرية، وهي نفسها ابنة كاهن آمون (تك ٤٥: ٤١). إن تأثره بها، يعطي انطباعًا بأنه يبتعد عن إله آبائه، صاحب الفضل في المنصب الرفيع الذي يمارسه.

"فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: قُلْ لإِخْوَتِكَ: ٱفْعَلُوا هَذَا: حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَٱنْطَلِقُوا، ٱذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ ٱلأَرْضِ." (تك٤٥: ١٧-١٨).

يبدو أن لا شيء يشير إلى إحجام فرعون عن عائلة يوسف. بل على العكس من ذلك، فهو يضع سلاح الفرسان تحت تصرفهم لتسهيل وصولهم ونقل بضائعهم. يفتح لهم الباب على مصراعيه، ويعرض عليهم الوصول إلى أفضل أرض في بلده. لذلك لا شيء كان ليمنع يوسف من مشاركة إيمانه بحرية، متوجًا بدعم الملك ومكانته كرئيس للوزراء. علاوة على ذلك، بدلاً من أن يضع يوسف عائلته في منطقة بارزة، بالقرب من أماكن السلطة في صعيد مصر، فقد خصص لهم أرضًا في جاسان، معزولة في دلتا النيل، ربما كانت أكثر ملاءمة لتربية الماشية.

"فَأَسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَعْطَاهُمْ مُلْكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَفْضَلِ ٱلأَرْضِ، فِي أَرْضِ رَعَمْسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. وَعَالَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَكُلَّ بَيْتِ أَبِيهِ بِطَعَامٍ عَلَى حَسَبِ ٱلأَوْلاَدِ." (تك ٤٧: ١١).

فهل كان الله يتخيل أن يكون مجيء يعقوب مناسبة للشهادة؟ هل كان وصول هذه العائلة قد تحدى الدين السائد ودفع المصريين إلى تبني التوحيد بجعلهم يتخلون عن أصنامهم؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد فشل يوسف بالفعل في مهمته.

"فَٱرْتَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ وَأَتَى إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ، وَذَبَحَ ذَبَائِحَ لإِلَهِ أَبِيهِ إِسْحَاقَ. فَكَلَّمَ ٱللهُ إِسْرَائِيلَ فِي رُؤَى ٱللَّيْلِ وَقَالَ: «يَعْقُوبُ، يَعْقُوبُ!». فَقَالَ: «هَأَنَذَا». فَقَالَ: «أَنَا ٱللهُ، إِلَهُ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ مِنَ

ٱلنُّزُولِ إِلَى مِصْرَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. أَنَا أَنْزِلُ مَعَكَ إِلَى مِصْرَ، وَأَنَا أُصْعِدُكَ أَيْضًا. وَيَضَعُ يُوسُفُ يَدَهُ عَلَى عَيْنَيْكَ." (تك ٤٦: ١-٤).

قضية أخرى تحيرني. خلال المجاعة، يتصرف يوسف بطريقة مفاجئة تجاه السكان الأصليين، فبينما هو مخلص بشكل خاص لفرعون، نجده يدافع عن موقف رأسمالي في المقام الأول، ولا يبدي اهتمامًا كبيرًا بالصالح العام ولا يتردد في استنزاف السكان الضعفاء بالفعل. في الواقع، غالبًا ما يمر هذا المقطع من الكتاب المقدس دون أن يتوقف عنده كثيرون: فيوسف يبدو صعب المِراس عندما يتعلق الأمر ببيع القمح الذي خزنه لدرء المجاعة. فعلي الرغم من أنه قد حافظ على عائلته وسمح لها بالاستقرار والازدهار في البلاد، فإنه قد أنشأ داخل البلاد أول شكل من أشكال استعباد السكان من خلال الدولة.

أولًا، إنه يبيع القمح بسعر مرتفع. بمجرد ألا يملك السكان المزيد من المال، فإنه يجبرهم على التخلي عن ماشيتهم. ثم يشتري أرضهم وينتهي به الأمر إلى استعبادهم. يعمل يوسف بدون شفقة. الوحيدين الذين لا يمسهم هم الكهنة، وهم طبقة ذات نفوذ كبير تحميها الحكومة. هكذا، يبدو أن يوسف قد نسي أصوله وإيمانه وأُسُسِ صلاح إلهه. الأسوأ من ذلك، أنه من خلال إفقار السكان، قد جمع ثروة إضافية لحاكم هو بالفعل الأغنى في العالم. علاوة على ذلك، يتجنب بحذر لمس امتيازات الكهنة والنخب ونظام معتقداتهم.

"وَلَمْ يَكُنْ خُبْزٌ فِي كُلِّ ٱلْأَرْضِ، لِأَنَّ ٱلْجُوعَ كَانَ شَدِيدًا جِدًّا. فَخَوَّرَتْ أَرْضُ مِصْرَ وَأَرْضُ كَنْعَانَ مِنْ أَجْلِ ٱلْجُوعِ. فَجَمَعَ يُوسُفُ كُلَّ ٱلْفِضَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَفِي أَرْضِ كَنْعَانَ بِٱلْقَمْحِ ٱلَّذِي ٱشْتَرُوا، وَجَاءَ يُوسُفُ بِٱلْفِضَّةِ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ. فَلَمَّا فَرَغَتِ ٱلْفِضَّةُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَمِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ أَتَى جَمِيعُ ٱلْمِصْرِيِّينَ إِلَى يُوسُفَ

قَائِلِينَ: «أَعْطِنَا خُبْزًا، فَلِمَاذَا نَمُوتُ قُدَّامَكَ؟ لِأَنْ لَيْسَ فِضَّةٌ أَيْضًا». فَقَالَ يُوسُفُ: «هَاتُوا مَوَاشِيَكُمْ فَأُعْطِيَكُمْ بِمَوَاشِيكُمْ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِضَّةٌ أَيْضًا». فَجَاءُوا بِمَوَاشِيهِمْ إِلَى يُوسُفَ، فَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ خُبْزًا بِالْخَيْلِ وَبِمَوَاشِي الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَبِالْحَمِيرِ. فَقَاتَهُمْ بِالْخُبْزِ تِلْكَ السَّنَةَ بَدَلَ جَمِيعِ مَوَاشِيهِمْ. وَلَمَّا تَمَّتْ تِلْكَ السَّنَةُ أَتَوْا إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالُوا لَهُ: «لَا نُخْفِي عَنْ سَيِّدِي أَنَّهُ إِذْ قَدْ فَرَغَتِ الْفِضَّةُ، وَمَوَاشِي الْبَهَائِمِ عِنْدَ سَيِّدِي، لَمْ يَبْقَ قُدَّامَ سَيِّدِي إِلَّا أَجْسَادُنَا وَأَرْضُنَا. لِمَاذَا نَمُوتُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ نَحْنُ وَأَرْضُنَا جَمِيعًا؟ اِشْتَرِنَا وَأَرْضَنَا بِالْخُبْزِ، فَنَصِيرَ نَحْنُ وَأَرْضُنَا عَبِيدًا لِفِرْعَوْنَ، وَأَعْطِ بِذَارًا لِنَحْيَا وَلَا نَمُوتَ وَلَا تَصِيرَ أَرْضُنَا قَفْرًا». فَاشْتَرَى يُوسُفُ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ لِفِرْعَوْنَ، إِذْ بَاعَ الْمِصْرِيُّونَ كُلُّ وَاحِدٍ حَقْلَهُ، لِأَنَّ الْجُوعَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ. فَصَارَتِ الْأَرْضُ لِفِرْعَوْنَ. وَأَمَّا الشَّعْبُ فَنَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى حَدِّ مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهُ. إِلَّا إِنَّ أَرْضَ الْكَهَنَةِ لَمْ يَشْتَرِهَا، إِذْ كَانَتْ لِلْكَهَنَةِ فَرِيضَةٌ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ، فَأَكَلُوا فَرِيضَتَهُمُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ فِرْعَوْنُ، لِذَلِكَ لَمْ يَبِيعُوا أَرْضَهُمْ. فَقَالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ: «إِنِّي قَدِ اشْتَرَيْتُكُمُ الْيَوْمَ وَأَرْضَكُمْ لِفِرْعَوْنَ. هُوَذَا لَكُمْ بِذَارٌ فَتَزْرَعُونَ الْأَرْضَ. وَيَكُونُ عِنْدَ الْغَلَّةِ أَنَّكُمْ تُعْطُونَ خُمْسًا لِفِرْعَوْنَ، وَالْأَرْبَعَةُ الْأَجْزَاءُ تَكُونُ لَكُمْ بِذَارًا لِلْحَقْلِ، وَطَعَامًا لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَطَعَامًا لِأَوْلَادِكُمْ». فَقَالُوا: «أَحْيَيْتَنَا. لِيَتَنَا نَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ سَيِّدِي فَنَكُونَ عَبِيدًا لِفِرْعَوْنَ." (تك ٤٧: ١٣-٢٥).

إن طريقة التصرف تلك قد انقلبَت في النهاية ضد الشعب العبراني، فبعد أربعمائة عام، هربوا من هذه الدولة الشمولية وشكل العبودية الذي أنتجته. مع ذلك كان قد تم الترحيب بهم بأذرع مفتوحة واستفادوا من سخاء فرعون. هل انتهى الأمر بيوسف إلى السماح لنفسه بأن يَفسدَ بالثروة المادية على حساب المبادئ الأساسية التي فرضها إلهه، هذا الإله الذي يعتبر الدفاع عن الفقراء والغريب والأرملة واليتيم ودعمهم شرفًا؟

هل كان من شأنه أن يؤثر سلبًا بفعلته الظالمة تلك على كراهية المصريين للعبرانيين، مما يفسر الطريقة الاستبدادية التي عاملوهم بها لاحقاً؟ لقد خطط الله بالتأكيد لعودة نسل يعقوب إلى أرض الموعد (تك ٤٦: ٤)، ولكن هل كان من الممكن تجنب هذا الرحيل الكارثي؟ بالطبع، لن نعرف شيئاً عن هذا الأمر. ومع ذلك، فإن موقف يوسف يترك في أفواهنا مذاقًا مريرًا ويكسر الصورة المثالية التي نبشر بها عمومًا.

موسى، القائد الروحي رغماً عنه

بعدما مرت أربعة قرون، يصرخ العبرانيون إلى الله ويشتكون من ظروفهم المعيشية. يسمعهم الرب ويقيم لهم قائدًا ليخرجهم من هذه الفوضى ويعودوا إلى أرض الموعد. يعرف موسى، ابن العبري، لكن الذي نشأ في بلاط فرعون، كلتا الثقافتين جيدًا. إنه يتحدث اللغة المصرية ويقرأها، ويعرف كيف يتصرف في البلاط الملكي ولديه سُلطة كبيرة. لكنه أيضًا مُطَّلِع على ديانة العبرانيين. يعرف وضعهم الاقتصادي والاجتماعي. علاوة على ذلك، فهو خبير كبير في الظروف المعيشية في الصحراء بعد أن عاش هناك لعدة عقود، فهو يجمع كل الصفات اللازمة لمخاطبة كل من البلاط الملكي والعبرانيين وقيادة هذه العائلات عبر الصحراء. منذ ذلك الحين، دعاه الله لتنفيذ مشروع التحرير الطموح هذا، والذي تمتد أهميته الرمزية عبر القرون.

"وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى ٱلَّذِي عَرَفَهُ ٱلرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ، فِي جَمِيعِ ٱلْآيَاتِ وَٱلْعَجَائِبِ ٱلَّتِي أَرْسَلَهُ ٱلرَّبُّ لِيَعْمَلَهَا فِي أَرْضِ مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ عَبِيدِهِ وَكُلِّ أَرْضِهِ، وَفِي كُلِّ ٱلْيَدِ ٱلشَّدِيدَةِ وَكُلِّ ٱلْمَخَاوِفِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلَّتِي صَنَعَهَا مُوسَى أَمَامَ أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ." (تث ٣٤: ١٠-١٢).

يمنح التقليد موسى مكانة فريدة بين الشخصيات الكتابية وحتى بين البشر عامة. إليه تُنْسَبُ الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس، والتي تسمى أيضًا أسفار موسى الخمسة أو التوراة. يذكر الكتاب المقدس العبري اسمه ٧٦٥ مرة، وهو رقم قياسي. حتى العهد الجديد يقتبس ذلك الاسم ٨٠ مرة. أما القرآن فقد جعله نبيًا عظيمًا.

"يُقِيمُ لَكَ ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ". (تث ١٨: ١٥).

يُعتبر موسى أول نبي يهودي. ارتبط اسمه بشكل خاص بإعطاء الناموس، إلى حد يكاد معه أن يكون تجسيداً حياً له. في الواقع، أثناء تجلي يسوع، كان ظهور موسى وإيليا إلى جانبه يرمز إلى الناموس والأنبياء (مت ١٧: ٢). يلعب موسى دور الوسيط بين الله والعبرانيين (خر ٣: ١٤؛ ١١: ١٢)، ثم بين الله وفرعون (خر ٤: ٢٢). يُعرف أحيانًا بأنه كاهن (مز ٩٩: ٦؛ قض ١٨: ٣٠)، ومُشرِّع (خر ٢٤: ٣)، وشاعر (خر ١٥؛ تث ٣٢: ٣٣؛ مز ٩٠)، ورجل الله (يش ١٤: ٦؛ مز ٩٠: ١)، وكمَن أجرى العديد من المعجزات. (خر٧: ١٠؛ ١٤: ٦؛ ١٥: ٢٥). من خلال عمله وقيادته، وحد الناس من خلال نقل قواعد الحياة المشتركة إليهم وإقامة عبادة روحية.

يمكن أن يكون لاسمه معانٍ عديدة. يربط نص الكتاب المقدس (خر ٢: ١٠) اسمه مع إنقاذه الإلهي: المنتشل من الماء. مثل غيره من الأطفال حديثي الولادة بين العبرانيين، كان يجب أن يموت تحت رماح فرعون. لكن تم تخبئته لمدة ثلاثة أشهر، ثم وُضِعَ في سلة، وتُرِكَ في مياه النيل، وأخيراً تم انتشاله وتبنيه بواسطة ابنة فرعون التي كانت تستحم هناك. كما نجد في اسمه إشارة إلى كلمة من أصل مصري وتعني الولادة، أو الذرية؛ أسماء الفراعنة المشهورين: بتاحموس، تحتمس، رمسيس.

تدور حياته حول ثلاث فترات رئيسية كل منها حوالي ٤٠ عامًا:

١) طفولته وشبابه في مصر. إنه يدرك أصوله العبرية وحالة الاضطهاد التي يجد العبرانيون أنفسهم فيها. لسوء الحظ، فإن تصرفاته المؤسفة ضد أحد الحراس المصريين أجبرته على الفرار تاركًا وراءه أصوله ومكانته كرجل متميز.

٢) إقامة طويلة هادئة في صحراء سيناء وفي شبه الجزيرة العربية حيث عاش كراعٍ وتزوج من صفورة، ابنة يثرون، كاهن مديان، ومنها أنجب ولدين، جرشوم وأليعازر (خر ١٨: ٣). يبدو أنه حزن على حياته السابقة، ونسي تمامًا الدعوة التي ُوضِعَت على حياته.

٣) في الثمانين من عمره، اجتاز في خبرة مع الله قلبت حياته رأسًا على عقب. بعد أن حدث له تحول داخلي عقب حادثة العليقة المشتعلة، وافق موسى على العودة إلى مصر لإخراج العائلات العبرية. توفي عن عمر يناهز ١٢٠ عامًا على أعتاب أرض الموعد.

على مر السنين، اكتسب موسي شخصية قائدٍ حقيقي. ومع ذلك، لا يبدو أن هذا يرضيه بشكل خاص. على العكس من ذلك، عندما يدعوه الله، يجد كل أنواع الحجج لعدم طاعته. "من أنا لأذهب إلى فرعون؟" (خر ٣: ١١)، وبالتالي فهو يقلل من مهاراته وأصوله النبيلة. ومع ذلك فهو يعرف الثقافتين وعاداتهما ودياناتهما واللغتين، وله معرفة كبيرة بالصحراء. من الواضح أنه مُعَّدٌ إلهياً ومقدر له قيادة هذه المغامرة.

ثم، وعلى الرغم من وضوح الرسالة والوعود التي تلقاها، فإنه يشكك في الكلمات الإلهية: "لن يصدقوني." (خر ٤: ١). يبدو أن موسى نفسه لا يثق فيما يراه ويسمعه. لماذا يترك حياة هادئة لمثل هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر؟ عندما كان لا يزال صغيرًا، اعتقد أنه يستطيع عكس مجرى التاريخ من خلال مهاجمة رئيس عمال

متحمس أكثر مما يجب، والذي كان يمثل الذراع المسلح لنظام قمعي. لكن الوضع الآن مختلف. لم يعد يؤمن بإمكانية عكس مسار الأحداث. لقد تقدم في السن وأصبح أكثر حكمة. لماذا يكلف نفسه عناء مواجهة أقوى رجل في العالم والمخاطرة بحياته من أجل أشخاصٍ قد تركهم منذ وقتٍ طويل؟

"فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «ٱسْتَمِعْ أَيُّهَا ٱلسَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلَامٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلَا أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلَا مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ ٱلْفَمِ وَٱللِّسَانِ."(خر ٤: ١٠)؛ "فَقَالَ مُوسَى أَمَامَ ٱلرَّبِّ: «هَا أَنَا أَغْلَفُ ٱلشَّفَتَيْنِ. فَكَيْفَ يَسْمَعُ لِي فِرْعَوْنُ؟" (خر ٦: ٣٠).

يكشف الله له قوته ويعطيه مختلف العلامات القادرة على إقناع أعضاء بلاط فرعون. عندها يعبر موسى عما يراه مانعًا شخصيًا نهائيًا، وهي الحجة التي طرحها بعد المواجهات الأولى مع فرعون: "لا أعرف كيف أتكلم." ثم يوضح دوافعه الأساسية: "أرسل شخصًا آخر." (خر ٤: ١٣). يحاول التقليد اليهودي تفسير هذا الإعاقة الجسدية[٦]، لكن القارئ يفهم أن الدافع الحقيقي موجود في مكان آخر: لا أحد يحب مغادرة منطقة الراحة الخاصة به، حتى عندما يكون الله نفسه هو أصل الدعوة.

بسبب طول إقامته في الصحراء، أصبح موسى رجلًا منغلقًا ومنعزلًا. لقد اعتزل، ثم فقد كل رؤية وثقة بالنفس. لكن يبدو أنه لم

[٦] بحسب رواية المدراس، كان موسي يومًا بلهو على ركبتي فرعون، فأخذ منه تاجه، الأمر الذي اعتبره سحرة الملك فألًا سيئًا، فاقترحوا علي الملك أن يقتل الطفل حالًا. غير أن يثرون كاهن مديان اقترح عمل اختبار لما اعتبره مجرد لهو أطفال بأن وضعوا أمام موسي طبقين، في أحدهما قطع من الألماس، وفي الآخر قطع من الفحم المشتعل. اندفع موسي نحو طبق الألماس، غير أنه تعثر (بفعل تدخل جبرائيل الملاك) وحول طريقه نحو طبق الفحم المشتعل. عندما لُسِعَت أصابعه، وضعها على فمه، فحرق لسانه وشفتيه، الأمر الذي تسبب في تلعثمه في الكلام. تم وضع ضمادة على شفتيه، وعند نزعها، فقد جزءًا من شفته. منذ ذلك الحين، صار موسي: فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: "ثَقِيلُ ٱلْفَمِ وَٱللِّسَانِ." (خر ٤: ١١)، ممَّا دفع الرب إلى أن يجعل أخاه هارون نائبًا عنه في تبليغ كلام الله. (بحسب ويكيبيديا).

يفقد الاتصال بأسرته البيولوجية تمامًا، وهي وسيلة سيستخدمها الله لإجباره على الامتثال. سوف يدعمه من خلال حضور مألوف بمجيء شقيقه هارون الذي سيرافقه كمتحدث رسمي.

موسى هو القوة الهادئة. يعرف كيف يتدخل في سياق التنافس بين الرعاة (خر ٢: ١٧). كما يعرف كيف يُظِهر الصفات الحقيقية كمفاوض مشاكس أمام فرعون. ومع ذلك، فإن شخصيته تعبر عن شخص حزين، يقع بسهولة فريسة للشك عند مواجهته بشكاوى وولولة وانتقادات العبرانيين في الصحراء. ومع ذلك، فهو قادر على الحفاظ على خط واضح لا هوادة فيه، حتى لو كان ذلك يعني النأي بنفسه عن الأشخاص الذين يدافعون عن مواقف متناقضة. إنه لا يفقد المسار ويفرض نفسه عندما تبتعد القبائل عن الهدف الذي حدده لها.

لماذا تؤذيني؟ أنت لا تظهر لي لطفك بعد الآن. لماذا إذًا؟ هذا الشعب الذي يجب قيادته هو عبء ثقيل للغاية. لماذا جعلتني أحمل مسئوليته؟ من وهب الحياة لهذا الشعب؟ من ولده؟ ليس أنا! ومع ذلك، أعطيتني هذه الوصية: " فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى عَبْدِكَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنَّكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هَذَا ٱلشَّعْبِ عَلَيَّ؟" (عد ١١: ١١).

لكن قوته الحقيقية تكمن في قدرته على سماع كلمة الله، والتحدث مع إلهه، وترجمة الإرادة الإلهية إلى أقوال وأفعال محسوسة ومدركة. لقد أقام علاقة وثيقة مع الله لدرجة أنه هو الوحيد المخول له بالدخول إلى محضره، عندما أراد الرب الاعلان عن نفسه. لقد أعلن الله له اسمه: "أنا هو من أنا" (خر٣: ١٤) ائتمنه على لوحي الشريعة. في الكتاب المقدس، هو الوحيد، مع إيليا (١ مل ١٩) الذي يَفيدُ من وحي مرئي من الله (الظهور الالهي). في بعض الأوقات، يكون حضور الله قويًا لدرجة أنه ينعكس على وجهه مما يضطره إلى وضع برقع عليه حتى لا يخيف من حوله (خر ٣٤: ٢٩-٣٥).

فَقَالَ: "أَرِنِي مَجْدَكَ. فَقَالَ: «أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ. وَأُنَادِي بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ قُدَّامَكَ. وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ، وَأَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ». وَقَالَ: «لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَرَانِي وَيَعِيشُ». وَقَالَ ٱلرَّبُّ: «هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى ٱجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلَا يُرَى." (خر ٣٣: ١٨-٢٣).

"وَأَمَّا ٱلرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ. فَقَالَ: «ٱسْمَعَا كَلَامِي. إِنْ كَانَ مِنْكُمْ نَبِيٌّ لِلرَّبِّ، فَبِالرُّؤْيَا أَسْتَعْلِنُ لَهُ. فِي ٱلْحُلْمِ أُكَلِّمُهُ. وَأَمَّا عَبْدِي مُوسَى فَلَيْسَ هَكَذَا، بَلْ هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ بَيْتِي. فَمًا إِلَى فَمٍ وَعَيَانًا أَتَكَلَّمُ مَعَهُ، لَا بِٱلْأَلْغَازِ. وَشِبْهَ ٱلرَّبِّ يُعَايِنُ. فَلِمَاذَا لَا تَخْشَيَانِ أَنْ تَتَكَلَّمَا عَلَى عَبْدِي مُوسَى؟" (عد ١٢: ٣، ٦، ٨).

لم تتحقق سلطة موسى مرة واحدة وإلى الأبد. لقد احتاج عليه أولًا أن يكسب ثقة كل من القادة العبريين والمصريين، فبعد المقابلة الأولى مع فرعون، زاد هذا الأخير عبء العمل على العبرانيين انتقاماً منهم وضغط عليهم، فبدأ الشك يداخل موسي (خر ٥: ٢٢). قبل أن يصبح قائدًا عظيمًا، نُحِسُّ بموسى ضعيفًا مترددًا، ويستمر الأمر كذلك لبعض الوقت بعد عبور البحر الأحمر. إنه لا يحصل على مكانته بين الناس بشكل نهائي بعد. يجب عليه أن يثبت نفسه على المستوى الشخصي وأن يتعلم الثقة من خلال الاعتماد على النعمة الإلهية في كل خطوة، وهذا على الرغم من الاتهامات المتكررة من الشعب له. لكننا، تدريجياً نرى أن مكانته كرجل دولة آخذة في النمو.

يبذل موسي نفسه في مهمته من الصباح إلى المساء إلى حد الإنهاك. يرى زوج والدته يثرون ذلك ويوبخه. في مواجهة ثقل

المهمة، يوشك على الانهيار. في النهاية، وافق موسى على توصية يثرون بتفويض بعض واجباته وتعيين قادة من بين الشعب.

"وَحَدَثَ فِي ٱلْغَدِ أَنَّ مُوسَى جَلَسَ لِيَقْضِيَ لِلشَّعْبِ. فَوَقَفَ ٱلشَّعْبُ عِنْدَ مُوسَى مِنَ ٱلصَّبَاحِ إِلَى ٱلْمَسَاءِ. فَلَمَّا رَأَى حَمُو مُوسَى كُلَّ مَا هُوَ صَانِعٌ لِلشَّعْبِ، قَالَ: مَا هَذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي أَنْتَ صَانِعٌ لِلشَّعْبِ؟ مَا بَالُكَ جَالِسًا وَحْدَكَ وَجَمِيعُ ٱلشَّعْبِ وَاقِفٌ عِنْدَكَ مِنَ ٱلصَّبَاحِ إِلَى ٱلْمَسَاءِ؟ فَقَالَ مُوسَى لِحَمِيهِ: إِنَّ ٱلشَّعْبَ يَأْتِي إِلَيَّ لِيَسْأَلَ ٱللهَ. إِذَا كَانَ لَهُمْ دَعْوَى يَأْتُونَ إِلَيَّ فَأَقْضِي بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَصَاحِبِهِ، وَأُعَرِّفُهُمْ فَرَائِضَ ٱللهِ وَشَرَائِعَهُ. فَقَالَ حَمُو مُوسَى لَهُ: لَيْسَ جَيِّدًا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي أَنْتَ صَانِعٌ. إِنَّكَ تَكِلُّ أَنْتَ وَهَذَا ٱلشَّعْبُ ٱلَّذِي مَعَكَ جَمِيعًا، لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ أَعْظَمُ مِنْكَ. لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَهُ وَحْدَكَ. ٱلْآنَ ٱسْمَعْ لِصَوْتِي فَأَنْصَحَكَ. فَلْيَكُنِ ٱللهُ مَعَكَ. كُنْ أَنْتَ لِلشَّعْبِ أَمَامَ ٱللهِ، وَقَدِّمْ أَنْتَ ٱلدَّعَاوَى إِلَى ٱللهِ، وَعَلِّمْهُمُ ٱلْفَرَائِضَ وَٱلشَّرَائِعَ، وَعَرِّفْهُمُ ٱلطَّرِيقَ ٱلَّذِي يَسْلُكُونَهُ، وَٱلْعَمَلَ ٱلَّذِي يَعْمَلُونَهُ. وَأَنْتَ تَنْظُرُ مِنْ جَمِيعِ ٱلشَّعْبِ ذَوِي قُدْرَةٍ خَائِفِينَ ٱللهَ، أُمَنَاءَ مُبْغِضِينَ ٱلرَّشْوَةَ، وَتُقِيمُهُمْ عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ أُلُوفٍ، وَرُؤَسَاءَ مِئَاتٍ، وَرُؤَسَاءَ خَمَاسِينَ، وَرُؤَسَاءَ عَشَرَاتٍ، فَيَقْضُونَ لِلشَّعْبِ كُلَّ حِينٍ. وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ ٱلدَّعَاوَى ٱلْكَبِيرَةِ يَجِيئُونَ بِهَا إِلَيْكَ، وَكُلَّ ٱلدَّعَاوَى ٱلصَّغِيرَةِ يَقْضُونَ هُمْ فِيهَا. وَخَفِّفْ عَنْ نَفْسِكَ، فَهُمْ يَحْمِلُونَ مَعَكَ." (خر ١٨: ١٣-٢٢).

من المؤكد أن تفويض السلطة وعمل الشرطة مفيد، لكنه ليس كافيا. لا يزال من الضروري توزيع الرؤية الروحية. وفي مواجهة شكوى أخرى من الشعب ورد فعل الله العنيف تجاهها، يصبح موسى محبطًا، فيطلب من الرب أن ينهي حياته. لم يتأخر رد الفعل: قرر الله أن ينقل جزءًا من روح موسى إلى ٧٠ شيخًا من بني إسرائيل. في مواجهة الانتقادات الموجهة للتأثيرات غير المرغوب فيها التي لوحظت داخل المعسكر نفسه، كان رد فعل موسي أن شعر ببعض

الانزعاج. يمكننا أن نعتبر هذه الحادثة بمثابة العنصرة الأولى قبل وقتها.

"لا أستطيع أن أحمل هذا الشعب وحدي. إنها حمولة ثقيلة جدًا بالنسبة لي. إذا كنت تريد أن تعاملني بهذه الطريقة، فاقتلني بدلًا من ذلك! وهكذا تظهر لي لطفك، ولن أشهد مصيبتي. فيجيب الرب لموسى: "اجمع سبعين رجلًا من شيوخ إسرائيل." يجب أن تعرفهم كشيوخ وكقادة للشعب. أدخلهم إلى خيمة الاجتماع. سوف يقفون هناك معك. سوف آتي للتحدث معك في هذا المكان. سوف آخذ جزءًا من الروح التي فيك وأضعها فيهم. فيحملون معك أثقال الناس، ولا تعود أنت تحملها وحدك. بقي رجلان في المخيم. وكانوا في قائمة السبعين شيخًا، لكنهم لم يخرجوا ليذهبوا إلى الخيمة. حل عليهم الروح، وبدأوا يتكلمون كالأنبياء في وسط المحلة. يجري صبي ليحذر موسى: في المحلة يتكلم ألداد وميداد كأنبياء! قال يشوع: يا سيدي موسى، قل لهم أن يسكتوا! فيجيب موسى: هل تغار من أجلي؟ ليت الرب يستطيع أن يعطي روحه لجميع بني إسرائيل! لو كانوا كلهم أنبياء! (ملاحظة ١١، ١٤-١٧، ٢٦-٢٩).

أمام قائمة كل هذه الأعمال العظيمة وبعد الثناء على موسى كرجل غير عادي، كيف يمكننا أن نفهم أن الله يعاقبه، ويمنعه من دخول أرض الموعد؟ التفسير ليس واضحًا إلى حد كبير كما يود المرء أن يعتقد. تبدو العقوبة الإلهية مبالغًا فيها. يبدو الأمر كما لو كان علينا أن نبرر أنه حتى موسى لم يكن كاملًا. على الرغم من أنه ربما كان المُحرر المرسل من العناية الالهية، إلا أنه يظل رجلاً غير معصوم من الخطأ.

لقد ماتت مريم أخت موسى للتو، ومعها جف مصدر المياه. مرة أخرى، في مريبة، طلب الناس الماء للشرب، ويبدو أن موسي قد انجرف بالغضب وضرب الصخرة مرتين، جاذباً بذلك الحكم الإلهي.

بدلًا من مجرد التحدث إلى الصخرة، يستخدم عصاه. وهكذا يبدو أنه يريد لفت الانتباه إلى نفسه بدلًا من الله. تبين أن بادرة نفاد الصبر هذه قاتلة لأن الله يدينها. وهكذا يموت على جبل نبو في الأردن، بعد أن نظر بإعجاب من بعيد إلى الأرض التي سيدخل إليها الشعب تحت مسؤولية يشوع.

" وَرَفَعَ مُوسَى يَدَهُ وَضَرَبَ ٱلصَّخْرَةَ بِعَصَاهُ مَرَّتَيْنِ، فَخَرَجَ مَاءٌ غَزِيرٌ، فَشَرِبَتِ ٱلْجَمَاعَةُ وَمَوَاشِيهَا. فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِذَلِكَ لَا تُدْخِلَانِ هَذِهِ ٱلْجَمَاعَةَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا.»" (عد٢٠: ١١).

مريم وهارون، شقيقا القائد

إذا كان موسى هو القائد الحقيقي للشعب في الصحراء، فإنه يرافقه في هذه المهمة أخته الكبرى مريم، وهارون الذي يكبره بثلاث سنوات. ولذلك فإن موسى هو الأصغر. الثلاثة من سبط لاوي ويشكلون ثالوثًا يذكرنا ربما بالثالوث الإلهي. يمارس الثلاثة بُعدًا روحيًا ونبويًا مع الحفاظ على دورهم الخاص. موسى هو القائد والزعيم الروحي، وهارون المتحدث ورئيس الكهنة، ومريم النبية الناشطة في تحريك الشعب للتسبيح. وينسب التلمود[٧] لكل واحد منهم موهبة خاصة: ثلاثة قادة عظماء قادوا إسرائيل: موسى وهارون ومريم. ومن أجل استحقاقهم، نالوا ثلاث هدايا عظيمة: البئر [مريم]، وسحاب المجد [هارون]، والمَن [موسى].

[٧] تانييت: كما ترد في ويكيبيديا.

"فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ ٱلنَّبِيَّةُ أُخْتُ هَارُونَ ٱلدُّفَّ بِيَدِهَا، وَخَرَجَتْ جَمِيعُ ٱلنِّسَاءِ وَرَاءَهَا بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ. وَأَجَابَتْهُمْ مَرْيَمُ: «رَنِّمُوا لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ. ٱلْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي ٱلْبَحْرِ." (خر ١٥: ٢٠).

الأخت الكبرى التي تعتني بأخيها الصغير موسى على ضفاف النيل وتسرع لتجد له مرضِعَةً، لا تحمل اسمًا في البداية. لكن بعد فترة طويلة تم ذكر اسم مريم كأخت هارون (خر ١٥: ٢٠). وهي تسبح بصوت الدف، وتقود النساء الأخريات للاحتفال بالخروج من البحر الأحمر. من المحتمل أن يكون اسمها من أصل مصري ويعني الحبيبة. في العبرية، الاسم قريب من كلمة تعني "التمرد"، في إشارة إلى النقد الذي تم توجيهه إلى شقيقها والذي سيتم بسببه عقابها بشدة.

في الواقع، في الأصحاح ١٢ من سفر العدد، تُشكِكُ مريم في سُلطة موسى الدينية وتنتقده بسبب زوجته الكوشيَّة التي تزوجها، أو بالأحرى، بحسب التقليد، الانفصال عنها (راجع ١٨: ٢). إن العقاب الإلهي خطير: لقد أصيبت بالجذام، وهو المرض الذي لم يغادرها إلا بعد صلاة موسى لأجلها. لا مجال للجدال في مكانة موسى في التوراة، ولا لانتقادها.

"وَأَتَى بَنُو إِسْرَائِيلَ، ٱلْجَمَاعَةُ كُلُّهَا، إِلَى بَرِّيَّةِ صِينَ فِي ٱلشَّهْرِ ٱلْأَوَّلِ. وَأَقَامَ ٱلشَّعْبُ فِي قَادَشَ. وَمَاتَتْ هُنَاكَ مَرْيَمُ وَدُفِنَتْ هُنَاكَ. وَلَمْ يَكُنْ مَاءٌ لِلْجَمَاعَةِ فَٱجْتَمَعُوا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ." (عد ٢٠: ١-٢).

يأتي موت مريم بعد رفض الشعب دخول أرض كنعان. مع أنها امرأة في الظل، فهي رغم ذلك تلعب دورًا روحيًا مهمًا من خلال دعم تسبيح الشعب وبالتالي المشاركة في عبادة الرب. وعندما ماتت، يشير النص الكتابي إلى جفاف البئر، وهو الحدث الذي أثار موجة جديدة من الاتهامات ضد موسى. يرى التقليد اليهودي في هذه الحلقة معنًى عميقًا: فعندما ينقطع التسبيح يجف الماء (الحي). وهكذا تكون

مريم قد ضمنت بوجودها، طوال عبور الصحراء، كمية كافية من الماء، وهذا منذ حادثة الصخرة (خر ١٧: ٥ ث). وعندما تختفي، يكون هناك مكون مهم مفقود في علاقة الناس مع إلههم. وبالتالي فإن الأمر يتعلق باستبدال هذه الحلقة المفقودة بإعادة الاتصال بالبعد النبوي الذي كانت تمثله. في هذه اللحظة بالذات يرتكب موسى الخطأ الذي سيدينه الله بسببه بشكل حاسمٍ ويمنعه من دخول كنعان، بسبب رغبته في ضرب الصخرة على عجل ليخرج منها الماء.

لم يبدُ هارون، الأكبر من موسى بثلاث سنوات، ظاهرًا في المشهد. لا يُعرف شيء عن علاقتهما قبل دعوة موسى أثناء حادثة العليقة المشتعلة. يشير النص ببساطة إلى أن الله يطلب من هارون أن ينضم إلى أخيه في البرية، عند سفح جبل الله (خر ٤: ٢٧). ومن هناك، نجده إلى جانب موسى ليتحدث أمام قادة العبرانيين وفرعون.

كان هارون متزوجًا من إليشبع وأب لثلاثة أطفال (خر ٦: ٢٣)، ويتمتع بشعبية خاصة. وعندما توفي في الأردن قبل وقت قصير من أخيه موسى، عن عمر يناهز ١٢٣ عامًا، حزن عليه الجميع. اسمه إما يعني اسم الله عظيم (أصل مصري) أو مشتق من الكلمة العبرية تابوت (العهد) مع إدخال حرف الهاء فيه، كما في اسم أبرام فيتحول إلى إبراهيم.

لقد تم تكريس هارون وأبناءه كهنة على يد موسى نفسه. لقد مُسِحُوا كما أُعْطَوا ثوب خدمةٍ خاصٍ جدًا مزداناً بالرموز (خر ٢٨: ٤١؛ لا ٨: ١٢). وهكذا أصبح هارون الشخصية الرئيسية في عبادة الرب، والتي كانت عبارة عن طقوس موحدة أرساها موسى نفسه بين الشعب. كرئيس كهنة، يلعب هارون دورًا أساسيًا كمتحدث ووسيط بين موسى والله والشعب. كان هارون أقل من أخيه الأصغر فكرًا ولمعانًا، ويلعب دور البديل، فعندما يغيب موسى، يلجأ إليه الشعب عندما يرغب في أن يصنع عجلًا ذهبيًا.

ومع ذلك، فإن دوره ووظيفته الكهنوتية كانا محل خلاف. أثناء ثورة قورح (عد ١٦-١٧)، اعتقد القادة أن بإمكانهم تجاوز سلطة هارون وعبادة الله دون وسيط. لكن العواقب لم تتأخر طويلًا: إنهم يدفعون حياتهم ثمنًا لذلك. إن إله موسى هو حقًا إله قدوس يفرض طقوس تطهيرٍ وواجب الاحترام للسلطات التي يعينها. لإثبات الدور الأساسي والفريد الذي لعبه هارون وسبطه، تم إعطاء علامة أخيرة. فمن بين ال١٢ عودًا الموضوعة في خيمة الاجتماع، فقط عصا هرون هي التي أفرخت (عد ١٧: ٢٣). وتوجب أن تُحْفَظ داخل تابوت العهد وتكون بمثابة علامة للشعب.

يشوع، الخادم الذي أصبح چنرالًا

"فَقَامَ مُوسَى وَيَشُوعُ خَادِمُهُ. وَصَعِدَ مُوسَى إِلَى جَبَلِ ٱللهِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَقَالَ لَهُمُ: «ٱجْلِسُوا لَنَا هَهُنَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكُمْ. وَهُوَذَا هَارُونُ وَحُورُ مَعَكُمْ."(خر٢٤: ١٣).

يُعْرَفُ يشوع بن نون، وهو من سبط أفرايم، بالخادم ثم بالخليفة المعين من موسى على رأس شعب إسرائيل. إن له من معنى اسمه نصيب، فهو يعني أن الله يخلص. لا شيء معروف عن طفولته لكن من المؤكد أنه قد وُلِدَ في مصر، وقد ظهر لأول مرة أثناء هجوم العماليق في رفيديم، في صحراء سيناء (خر ١٧: ٩). ثم عهد إليه موسى بتوجيه القوات المسلحة التي تم تشكيلها لأول مرة. يشير هذا إلى أن يشوع لم يكن صغيرًا جدًا وأنه كانت لديه بالفعل سمعة طيبة بين الناس، وإيمان قوي، ولا كان يفتقر إلى الشجاعة ويبدو كان يتمتع أيضًا بحِس كبير تكتيكيًا واستراتيجيًا.

يشوع هو الوحيد الذي رافق موسى عندما صعد إلي جبل سيناء، رغم أنه قد ظل على مسافة آمنة عندما ظهر الرب على الجبل، وهو الذي يتفاعل مع الأصوات التي يصدرها العبرانيون حول العجل

الذهبي، ويخطئ في تفسير معنى تلك الأصوات فيظن أنه يسمع أصوات حرب، بينما كان الشعب يحتفل (خر٣٢: ١٧)، وبعد قليل نجد يشوع محبوسًا في خيمة الاجتماع (خر ٣٣: ١١).

"فَأَجَابَ يَشُوعُ بْنُ نُونَ خَادِمُ مُوسَى مِنْ حَدَاثَتِهِ وَقَالَ: يَا سَيِّدِي مُوسَى، ٱرْدَعْهُمَا! فَقَالَ لَهُ مُوسَى: هَلْ تَغَارُ أَنْتَ لِي؟ يَا لَيْتَ كُلَّ شَعْبِ ٱلرَّبِّ كَانُوا أَنْبِيَاءَ إِذَا جَعَلَ ٱلرَّبُّ رُوحَهُ عَلَيْهِمْ." (عد ١١: ٢٨-٢٩).

قد يبدو تدخل يشوع، عندما حل روح الله على السبعين قائدًا، ساذجًا بعض الشيء، كان هناك شخصان يتنبآن في المحلة بعيدًا عن الجماعة المجتمعة حول خيمة الاجتماع، لكن يشوع أراد أن يحدث كل شيء ضمن إطار محدد جيدًا، لأنه لا يقدر هذا النوع من الارتجال والعفوية. لهذا، يتم تنبيهه وتعديل موقفه من ِقبل معلمه. لكنه مع ذلك يظل قريبًا جدًا من موسى الذي يدربه وينقل إليه علمه ولا يتردد في وضعه في موضع القيادة عندما يتعلق الامر بقيادة الشعب.

خلال مرحلة استكشاف أرض كنعان، يبلغ يشوع قامة إنسانية وروحية جديدة. لذا، ففي هذه المناسبة بالفعل غيَّر موسى اسمه من هوشع إلى يشوع (عد ١٣، ١٦). بالعودة بعد فترة الاستكشاف، سيكونان مع كالب الزعيمين الوحيدين المسئولين عن دعم الدخول إلى كنعان، على الرغم من مخاوف أغلبية زعماء القبائل الآخرين. هذه هي المرة الوحيدة التي يتم فيها التشكيك في قيادته وتتعرض حياته للتهديد المباشر من ِقبل حشد غاضب.

"فَكَلَّمَ مُوسَى ٱلرَّبَّ قَائِلًا لِيُوَكِّلِ ٱلرَّبُّ إِلَهُ أَرْوَاحِ جَمِيعِ ٱلْبَشَرِ رَجُلًا عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ، يَخْرُجُ أَمَامَهُمْ وَيَدْخُلُ أَمَامَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُدْخِلُهُمْ، لِكَيْلَا تَكُونَ جَمَاعَةُ ٱلرَّبِّ كَٱلْغَنَمِ ٱلَّتِي لَا رَاعِيَ لَهَا. فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: خُذْ يَشُوعَ بْنَ نُونَ، رَجُلًا فِيهِ رُوحٌ، وَضَعْ يَدَكَ عَلَيْهِ، وَأَوْقِفْهُ

قُدَّامَ أَلِعَازَارَ ٱلْكَاهِنِ وَقُدَّامَ كُلِّ ٱلْجَمَاعَةِ، وَأَوْصِهِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ. وَٱجْعَلْ مِنْ هَيْبَتِكَ عَلَيْهِ لِكَيْ يَسْمَعَ لَهُ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيَقِفَ أَمَامَ أَلِعَازَارَ ٱلْكَاهِنِ فَيَسْأَلُ لَهُ بِقَضَاءِ ٱلْأُورِيمِ أَمَامَ ٱلرَّبِّ. حَسَبَ قَوْلِهِ يَخْرُجُونَ، وَحَسَبَ قَوْلِهِ يَدْخُلُونَ، هُوَ وَكُلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، كُلُّ ٱلْجَمَاعَةِ" (عد ٢٧: ١٦-٢٠).

عندما كان موسى على وشك الموت، عين الله يشوع كخليفة طبيعي له. كان على الشعب أن يعرف ذلك ويتحمل مسؤولية هذا القرار، لكن مع الأخذ في الاعتبار أنه وعلى الرغم من كونه موجّهًا ومرشدًا للشعب، فعلى العكس من موسى الذي هو الوسيط الحقيقي بين الله والشعب، سيبقى يشوع خاضعًا لسلطة الكهنة. وقد تم تعزيز الفصل بين السلطات، الذي كان هشًا للغاية مع موسى وهارون. لم يكن يشوع لاويًا ولا كان لديه نفس القرب من الله مثل موسى، لكن هذا لم يمنعه من سماع صوت الله وإدارة الأمور بوضوح وكفاءة. منذ البداية انتصر في معارك عسكرية مهمة، وهو من أعطي إشارة عبور الأردن وقاد العمليات أثناء فتح أرض كنعان.

"وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَبْدِ ٱلرَّبِّ أَنَّ ٱلرَّبَّ كَلَّمَ يَشُوعَ بْنَ نُونٍ خَادِمَ مُوسَى قَائِلًا: «مُوسَى عَبْدِي قَدْ مَاتَ. فَٱلْآنَ قُمْ ٱعْبُرْ هَذَا ٱلْأُرْدُنَّ أَنْتَ وَكُلُّ هَذَا ٱلشَّعْبِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لَهُمْ أَيْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى. مِنَ ٱلْبَرِّيَّةِ وَٱلْبَنَانَ هَذَا إِلَى ٱلنَّهْرِ ٱلْكَبِيرِ نَهْرِ ٱلْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ ٱلْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ ٱلشَّمْسِ يَكُونُ تُخْمُكُمْ. لَا يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لَا أُهْمِلُكَ وَلَا أَتْرُكُكَ. تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ، لِأَنَّكَ أَنْتَ تَقْسِمُ لِهَذَا ٱلشَّعْبِ ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي حَلَفْتُ لِآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ. إِنَّمَا كُنْ مُتَشَدِّدًا، وَتَشَجَّعْ جِدًّا لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ كُلِّ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي أَمَرَكَ بِهَا مُوسَى عَبْدِي. لَا تَمِلْ عَنْهَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا لِكَيْ تُفْلِحَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ. لَا يَبْرَحْ سِفْرُ هَذِهِ ٱلشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهِ نَهَارًا وَلَيْلًا، لِكَيْ تَتَحَفَّظَ لِلْعَمَلِ حَسَبَ

كُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ. لِأَنَّكَ حِينَئِذٍ تُصْلِحُ طَرِيقَكَ وَحِينَئِذٍ تُفْلِحُ. أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لَا تَرْهَبْ وَلَا تَرْتَعِبْ لِأَنَّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ" (يش ١: ١- ٩).

تثبت الرواية عددًا من أوجه التشابه بين يشوع وموسى، فما إن رحل موسى حتى تعهد الشعب رسميًا باتباع القائد الجديد وإطاعة أوامره (يش ١: ١٦-١٨). ثم يتم عبور الأردن على أرض جافة مثلما عبروا في البحر الأحمر. ما إن دخلوا كنعان، حتى واجَه يشوع رجلاً مسلحًا بالسيف، فيكتشف أنه قائد جيش الرب. مثل موسى أمام العليقة المشتعلة، يسجد يشوع ويخلع نعليه (يش ٥: ١٣- ١٥). ثم تتضح المسئولية الملقاة عليه، أن الأمر لم يعد يتعلق بترويض الصحراء، بل بتعلم القتال من أجل احتلال أرض الموعد. يزداد وضوح الفرق بين الحالتين، عندما يتوقف المن عن النزول، ويصير بإمكان الشعب أن يأكل من منتجات الأرض المحلية (يش ٥: ١٢).

توفى يشوع عن عمر يناهز ١١٠ عامًا. وتزامن رحيله مع انتهاء المناورات العسكرية للفتح. لقد بدأ عصر جديد مع نمط حياة أكثر استقرارًا. ولكن قبل أن يموت، مثل موسى، ترك يشوع عهدًا روحيًا يأمر فيه الشعب بتجديد عهدهم مع إلههم. على الرغم من أن الناس قد استحوذوا على أرض الموعد، إلا أن هذا ليس الوقت المناسب للتراخي والتباهي. يجب عليهم أن يستمروا في اتباع القواعد الإلهية، لأن التهديدات الداخلية (التأثيرات الروحية الوثنية) والخارجية (الهجمات) تستمر في الظهور.

"وَقَالَ يَشُوعُ لِجَمِيعِ ٱلشَّعْبِ: «هَكَذَا قَالَ ٱلرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: آبَاؤُكُمْ سَكَنُوا فِي عَبْرِ ٱلنَّهْرِ مُنْذُ ٱلدَّهْرِ. تَارَحُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَأَبُو نَاحُورَ، وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى. فَأَخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاكُمْ مِنْ عَبْرِ ٱلنَّهْرِ وَسِرْتُ بِهِ فِي كُلِّ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَكْثَرْتُ نَسْلَهُ وَأَعْطَيْتُهُ إِسْحَاقَ. وَأَعْطَيْتُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ وَعِيسُوَ، وَأَعْطَيْتُ عِيسُوَ جَبَلَ سَعِيرَ لِيَمْلِكَهُ. وَأَمَّا

يَعْقُوبُ وَبَنُوهُ فَنَزَلُوا إِلَى مِصْرَ. وَأَرْسَلْتُ مُوسَى وَهَارُونَ وَضَرَبْتُ مِصْرَ حَسَبَ مَا فَعَلْتُ فِي وَسَطِهَا، ثُمَّ أَخْرَجْتُكُمْ. فَأَخْرَجْتُ آبَاءَكُمْ مِنْ مِصْرَ، وَدَخَلْتُمُ ٱلْبَحْرَ وَتَبِعَ ٱلْمِصْرِيُّونَ آبَاءَكُمْ بِمَرْكَبَاتٍ وَفُرْسَانٍ إِلَى بَحْرِ سُوفٍ. فَصَرَخُوا إِلَى ٱلرَّبِّ، فَجَعَلَ ظَلاَمًا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلْمِصْرِيِّينَ، وَجَلَبَ عَلَيْهِمِ ٱلْبَحْرَ فَغَطَّاهُمْ. وَرَأَتْ أَعْيُنُكُمْ مَا فَعَلْتُ فِي مِصْرَ، وَأَقَمْتُمْ فِي ٱلْقَفْرِ أَيَّامًا كَثِيرَةً. ثُمَّ أَتَيْتُ بِكُمْ إِلَى أَرْضِ ٱلأَمُورِيِّينَ ٱلسَّاكِنِينَ فِي عَبْرِ ٱلأُرْدُنِّ فَحَارَبُوكُمْ، وَدَفَعْتُهُمْ بِيَدِكُمْ فَمَلَكْتُمْ أَرْضَهُمْ وَأَهْلَكْتُهُمْ مِنْ أَمَامِكُمْ. وَقَامَ بَالاَقُ بْنُ صِفُّورَ مَلِكُ مُوآبَ وَحَارَبَ إِسْرَائِيلَ، وَأَرْسَلَ وَدَعَا بَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ لِكَيْ يَلْعَنَكُمْ. وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَسْمَعَ لِبَلْعَامَ، فَبَارَكَكُمْ بَرَكَةً وَأَنْقَذْتُكُمْ مِنْ يَدِهِ. ثُمَّ عَبَرْتُمُ ٱلأُرْدُنَّ وَأَتَيْتُمْ إِلَى أَرِيحَا. فَحَارَبَكُمْ أَصْحَابُ أَرِيحَا: ٱلأَمُورِيُّونَ وَٱلْفِرِزِّيُّونَ وَٱلْكَنْعَانِيُّونَ وَٱلْحِثِّيُّونَ وَٱلْجِرْجَاشِيُّونَ وَٱلْحِوِّيُّونَ وَٱلْيَبُوسِيُّونَ، فَدَفَعْتُهُمْ بِيَدِكُمْ. أَرْسَلْتُ قُدَّامَكُمُ ٱلزَّنَابِيرَ وَطَرَدْتُهُمْ مِنْ أَمَامِكُمْ، أَيْ مَلِكَيِ ٱلأَمُورِيِّينَ، لاَ بِسَيْفِكَ وَلاَ بِقَوْسِكَ. وَإِنْ سَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا ٱلرَّبَّ، فَٱخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمُ ٱلْيَوْمَ مَنْ تَعْبُدُونَ: إِنْ كَانَ ٱلآلِهَةُ ٱلَّذِينَ عَبَدَهُمْ آبَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ فِي عَبْرِ ٱلنَّهْرِ، وَإِنْ كَانَ آلِهَةُ ٱلأَمُورِيِّينَ ٱلَّذِينَ أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِي أَرْضِهِمْ. وَأَمَّا أَنَا وَبَيْتِي فَنَعْبُدُ ٱلرَّبَّ." (يش ٢٤: ٢، ١٢-١٥).

الهاربون

"وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضًا مَعَ غَنَمٍ وَبَقَرٍ، مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدًّا."(خر ١٢: ٣٨).[٨]

لكن من هم هؤلاء العبرانيين الهاربين من مصر بأعدادٍ كبيرة، وماذا يمثلون؟ إذا رجعنا إلى نص (خروج ١٢: ٣٧)، نجد أن هناك ٦٠٠ ألف رجل قادرين على القتال، أي نحو مليونين أو ثلاثة ملايين شخص. في البداية، استقروا في بلاد جاسان، وقد جاء معظمهم من

[٨] بحسب ترجمة "سومور" (Semeur).

دلتا النيل. ومع ذلك، لا يمكنهم أن يكونوا يعرفون بعضهم البعض أو أن يكونوا قد أتوا جميعاً من نفس القرية. في الواقع، إنها مجموعة غير متجانسة للغاية ويشمل عائلات مختلفة وطبقات اجتماعية شديدة التنوع.

وفقًا للتقاليد الشفهية اليهودية، فإن إسرائيل لا تقتصر فقط على أحفاد أبناء يعقوب الاثني عشر. إسرائيل هي أيضًا "الخليط العظيم"، كتلة الرجال والنساء الذين استغلوا هزيمة فرعون للفرار من مصر الشمولية. كما غادر مصر مع العبيد كبار المسؤولين وقادة الجيش. ولا شك أن الكهنة أيضًا، ومعهم السَحرة، كان السَحرة يتبعون بني إسرائيل، ليكتشفوا أسرار الإله ذو اليد القوية، ويتاجروا بسحره المزعوم.[٩]

يشير وصف "م. دراي" للهاربين إلى أن جميع أنواع اللاجئين السياسيين والمنشقين والانتهازيين اختلطوا بالعبرانيين وانتهزوا الفرصة المتاحة لهم لمغادرة البلاد في ذلك الوقت. وكانوا سيستفيدون من الفوضى التي أحدثها الرجل القوي الجديد، ولكن مع وجود نية ثابتة للعودة إلى مصر واستعادة موقعهم السابق هناك، عندما يتحسن الوضع السياسي. وبالتالي، فإن كل هؤلاء الأشخاص ليس لديهم خلفية مشتركة، وقليل منهم متعلمون وتختلف ممارساتهم الدينية بشكل كبير.

لقد كانت معهم أمتعة شخصية وتمائم وأدوات للعبادة بالإضافة إلى ماشية كبيرة. بعضهم أثرياء، بينما غالبيتهم فقراء. ومع ذلك، فإنهم جميعًا يشعرون بالذهول عندما يجدون أنفسهم بشكل دائم في قبضة الصحراء. وفي الواقع، فإنهم غير مستعدين لمواجهة المحنة التي يجتازونها. كان التحدي الذي يواجهه موسى هو تحويل هذه

[٩] م. دراي، عبور البرية، فيار، ص٢١.

الكتلة من الهاربين والرافضين والمتظاهرين الساخطين إلى شعب موحد. وهذا يتطلب توديع الحياة السابقة، وشطب الماضي، ثم الالتفاف حول نفس المثل الأعلى ونفس الإيمان. إنه عمل يحتاج إلى جيلٍ كامل.

استنتاج متوسط

يُعد الخروج من مصر حدثًا مهمًا للشعب اليهودي، ولكنه أيضًا حدث مهم لأي قارئ للكتاب المقدس، بدونه، تفقد الشريعة رسوخها ومعناها العميق ككلمةُ مَحَرِرَة. أما بالنسبة لإنجيل يسوع المسيح فلن تكون له نفس القوة الرمزية كرسالة غفران وخلاص وتغيير.

مثل أي رحلة إلى المجهول، فإن عبور الصحراء ليس نزهة خلوية لتحسين الحالة الصحية. هناك مفاجآت وحالات طارئة وعقبات يجب التغلب عليها ودروس يجب تعلمها والعديد من الخطوات التي يجب اتخاذها قبل الوصول إلى الهدف المحدد. إن أرض الموعد هي الهدف النهائي، ولكن ثمة العديد من الطرق التي يمكن أن تؤدي إلى هناك. عندما تسافر ضمن مجموعة، فعليك أن تتعرف على بعضكم البعض، وأن تعيشوا معًا، وأن تقدروا بعضكم البعض، وأن تدعموا بعضكم البعض وأن تتحدوا.

يجب على الشعب أن يبدأ بالحلم بحياة أفضل، وإلا فإنه سيستمر في طريقه ويكتفي بالوضع الراهن. يجب عليه أن ينطلق أخيرًا، تاركًا وراءه عاداته وشكوكه. وفي مرحلة ما، يجب عليه أن يتقبل أنه لا مجال للعودة إلى الوراء، وأنه مهما كان الثمن، فإن القادم أفضل. ثم عليه أيضاً أن يوافق على مواجهة المجهول، ليتقدم خطوة بعد خطوة لاكتساب المزيد من الثقة. فإذا اختبر اللحظة الحاضرة كعطية من الله، فإنه سيكتشف علامات كثيرة لحضوره، مثل شذرات كثيرة تغذي تفكيره وتعمق علاقته مع الله. كل هذا يتوقف على القدرة على

المُضي قُدمًا، والثقة، والثبات، وفي نهاية المطاف أن يكون شاكرًا ممتنًا.

إن مثال الشعب العبري يذكرنا بمدى صعوبة تجاوز عتبات معينة، والموافقة على التخلي عن الامتيازات أو العادات، والامتثال لقواعد جديدة للعيش معًا، وأخيراً الثقة. على الرغم من الرحلة الطويلة، فنحن أيضاً، مثلهم، كثيرًا ما نفشل في الاقتراب من الهدف. ثم مع غياب الثقة الكافية، نبحث عمن نلقي عليهم اللوم. نحن عالقون على أبواب أرض الميعاد. إنها العودة إلى المربع الأول والبقاء طويلاً جداً في التجوال، قبل أن نتمكن أخيراً من رؤية نهاية النفق وعبور خط النهاية.

إن سرد حياة موسى، وكذلك رحلة الشعب في الصحراء، يليان مرحلة يوسف ويحتلان جزءًا كبيرًا من التثنية، ولكن بشكل خاص أيضاً كتب الخروج والعدد وجزء من سفر التثنية. تعرض المقاطع الأخرى قواعد الحياة، ونصوص الشريعة، والتعليمات التفصيلية الموجهة بشكل خاص للكهنة، بالإضافة إلى الوصفات المتعلقة بالهيكل أو العبادة. أخيرًا يقدم الفصل ٣٣ من سفر العدد الخطوط العريضة لرحلة الناس في الصحراء.

"هَذِهِ رِحْلَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِجُنُودِهِمْ عَنْ يَدِ مُوسَى وَهَارُونَ. وَكَتَبَ مُوسَى مَخَارِجَهُمْ بِرِحْلَاتِهِمْ حَسَبَ قَوْلِ ٱلرَّبِّ. وَهَذِهِ رِحْلَاتُهُمْ بِمَخَارِجِهِمْ." (عد ٣٣: ١).

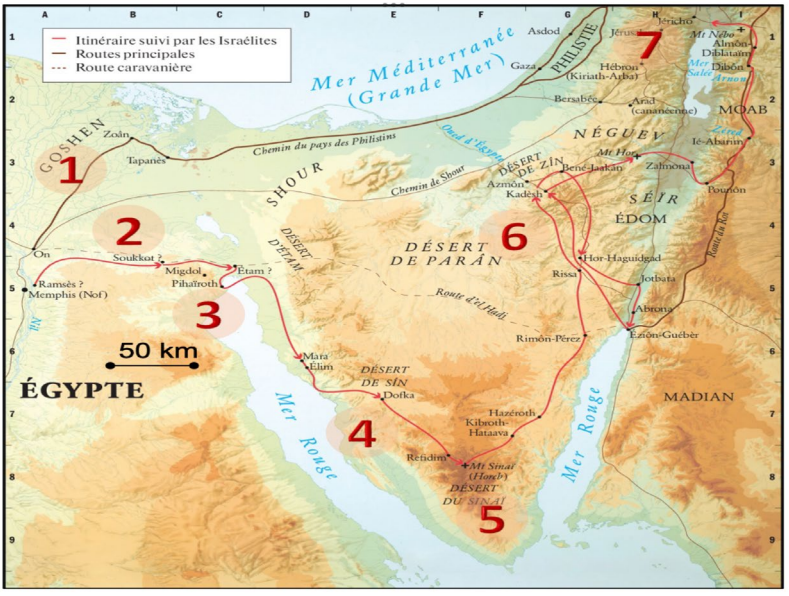

1. الحلم	جوشن	حياة العبد	ملحوظة ٣٣	خروج ١٣:١، ١٦
2. النهوض	رمسيس-بي	الرحيل ليلاً	ملحوظة ٣٣، ٣-٧	خروج ١٣:١٦، ١٤:١٤
3. العبور	البحر الأحمر	ذهاب بلا عودة	ملحوظة ٣٣، ٨	خروج ١٤:١٥
4. المواجهة	مارا-إيليم	تجارب البرية	ملحوظة ٨، ٣٣-١٤	خروج ١٥:٢٢، ١٨:٢٧
5. الأخذ	فريدين-كبروت-هاتافا	سيناء: عطية الشريعة	ملحوظة ٣٣، ١٥	خروج ١٩:٣٤
6. الحفظ	قادش برنيع/أدوم-موآب	الآية في الصحراء مدة ٣٨ سنة	ملحوظة ٣٣، ١٦-٤٩	
7. الاحتفال	أريحا	دخول أرض الميعاد	ملحوظة ٣٢/يشوع	

في الفصل التالي، قررت تقسيم الرحلة عبر الصحراء إلى سبع مراحل حاسمة. كل واحد منها محدد وقادر على تحدي وتغذية مسارات حياتنا. وبذلك تصبح رسومًا توضيحية ومعالمًا قادرة على تعليمنا.

إن أرض الموعد هي هدف يجب على جميع المؤمنين الوصول إليه، ولكن قبل أن نتمكن من وطئها، يخبئ لنا الله عددًا معينًا من التجارب التي كلها دروس في الحياة. ويمكننا مواجهتها بطرق مختلفة وبدرجات متفاوتة من النجاح. ولكن إذا كنا على مستوى التحدي، فهذه الاخيرة تستطيع أن تجعلنا نتقدم في طريق ايماننا وتجعلنا نزداد نضجا وحكمة.

القسم الثاني: عبور الصحراء في سبع خطوات

(١) الحلم

لا أحد مستعد لمغادرة مكان أو موقف يناسبه ويشعر فيه بالارتياح. لكن لتحقيق ذلك، وبشكل إرادي لا إجبار فيه، فيجب أولاً أن يرى فرصة أو يتخيل موقفًا يبدو مفضلاً له. لم أكن لأتخلى عن وظيفتي ومنصبي دون أسباب وجيهة. إن الكثير من العادات ووسائل الراحة والمزايا تربطني وتعوقني. نادرون هم الذين يوافقون على الذهاب في مغامرة دون دافع قوي. إن المجهول مخيف، والخوف يشل. إنه يضيق زاوية رؤيتنا ويبطئ خطواتنا. إن المخاطرة أمر نتعلمه. يتعلق الأمر بترويض مخاوفك والتغلب عليها من خلال اتخاذ خطوة واحدة في كل مرة. وعادة ما يحدث ذلك من خلال التعليم ويتطور من خلال تجارب الحياة الناجحة.

إن بعض الأشخاص، الرياضيين أو المغامرين، على استعداد لبذل جهود خارقة لتحقيق هدف محدد. إنهم يتدربون ويزيدون تدريجيًا الأهداف التي سيتم الوصول إليها. كل خطوة يتم اتخاذها هي نجاح في حد ذاتها، وهذا أمر مبهج. وبالفعل، بعد تجاوز عتبات معينة، تبدو الخطوات التالية للوصول إلى الهدف المحدد أصغر فأصغر. ثم تنمو الشهية، مما يجعل من الممكن مواجهة أهداف أعلى. وهكذا فإن المعاناة التي نكابدها تتحول مؤقتًا إلى مصادر نعمة وتوفر دفعة من الأدرينالين، ومن السعادة الداخلية التي يمكن أن تتحول على المدى الطويل إلى إدمان حقيقي، لكن لازال من الضروري قبول عدم الاكتفاء بالإنجازات والسعي إلى تحقيق أهداف أعلى مما سبق أن حققناه.

على الرغم من أن العبرانيين يعرفون أنهم مختلفون وأنهم مختارون من قبل الله، إلا أن لديهم أسبابًا كثيرة لعدم الانطلاق في الطريق. قد يبدو وضعهم الاجتماعي والمهني غير مرضٍ، لكن التخلي عن ثراء مصر ليس خيارًا. ألم يكونوا في أقوى وأشهر وأوفر دولة في ذلك الوقت؟ لكن تطورهم الديموغرافي يجعل الفرعون يخشى من انتفاضة شعبية، لكنهم هم أنفسهم لا يدركون ذلك. إنهم مشتتون ومتفرقون ويشعرون بالعزلة والعجز في مواجهة قوة ملكهم.

إن هذا الأخير يسعي إلى زيادة الضغط وتهميش هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من ضعف الاندماج. وفقًا للنصوص الكتابية، يحاول الفرعون تقليل المخاطر المتصورة من خلال تنفيذ إجراءات انتقامية. يهاجم المواليد الذكور من خلال القضاء عليهم، لكن القصة تصف القابلات اللاتي يقاومن ذلك المسعى. ثانيًا، يستغل الفرعون هذه العمالة الرخيصة بقسوة ويبقيها في حالة من التبعية، وبالتالي يمنع أي قدرة على التمرد. يشكو العبرانيون وينتقدون مضطهديهم ويصرخون إلى الله، لكن الشكوى وحدها لا تكفي، فهناك حاجة إلى التدخل الخارجي.

"وَلَكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هَكَذَا نَمَوْا وَٱمْتَدُّوا. فَٱخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَٱسْتَعْبَدَ ٱلْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي ٱلطِّينِ وَٱللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي ٱلْحَقْلِ. كُلِّ عَمَلِهِمِ ٱلَّذِي عَمِلُوهُ بِوَاسِطَتِهِمْ عُنْفًا." (خر ١: ١٢-١٤).

إن هذا يشبه مثال الضفدع الذي يقال إنه إذا ألقيته في وعاء به ماء مغلي، فإنه يقفز على الفور لإنقاذ حياته. لكن إذا وضعته في ماء بارد وقمت بزيادة درجة الحرارة تدريجياً حتى يغلي، يموت الضفدع مطبوخاً. يزداد الظلم شيئًا فشيئًا، ولكن بفضل التعود عليه يستسلم

الناس، ولا يعودوا قادرين على رؤية أمور أخري، وهم ينهارون تحت وطأة التجربة.

على الرغم من القرون التي تفصلهم عن يوسف، فقد قاوم العبرانيون إلى حد كبير أن يُسْتَوعَبوا وهكذا عاشوا في عزلة في الأحياء الفقيرة، وهم ينمون عاداتهم ودينهم ولغتهم. ونتيجة لذلك، يتم تهميشهم ومعاملتهم كعمال مهاجرين، على كل لون. لقد انتهت فترة المجاعة وحادثة يوسف الغامضة. إنهم الآن هم الذين يعانون. فرعون لا يشفق عليهم، بل على العكس. فهو يزيد من عبء العمل، ويزيد من الضغط من خلال التدابير غير العادلة ويهاجم ذريتهم. يزداد الوضع سوءا يوماً بعد يوم. فما العمل، وعندما يتدخل موسى مع فرعون، يرد الأخير بإجراءات انتقامية لا يمكن وقفها؟

"لا تَعُودُوا تُعْطُونَ ٱلشَّعْبَ تِبْنًا لِصُنْعِ ٱللِّبْنِ كَأَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ. لِيَذْهَبُوا هُمْ وَيَجْمَعُوا تِبْنًا لِأَنْفُسِهِمْ. وَمِقْدَارَ ٱللِّبْنِ ٱلَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَهُ أَمْسِ، وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ تَجْعَلُونَ عَلَيْهِمْ. لَا تَنْقُصُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ مُتَكَاسِلُونَ، لِذَلِكَ يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَذْبَحُ لِإِلَهِنَا. لِيُثَقَّلِ ٱلْعَمَلُ عَلَى ٱلْقَوْمِ حَتَّى يَشْتَغِلُوا بِهِ وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى كَلَامِ ٱلْكَذِبِ." (خر ٥: ٧-٩).

بقي العبرانيون بعيدًا عن الأنظار. إنهم غير منظمين وغير قادرين على تصور موحد للأمور. ومع عقولهم الغائمة وضيق الوقت المتاح، فإنهم غير قادرين على توحيد قواهم ضد المضطهد. على العكس من ذلك، عندما تدخل موسى وهارون مع فرعون، انقلب الشعب عليهما وحملاهما مسؤولية تدهور أحوالهم المعيشية (خر ٥: ٢١).

إنهم غالبًا ما يفتقرون أيضًا إلى التدريب والرؤية لأن معدل تعليمهم منخفض. إن أرض الميعاد بعيدة ولا أحد يتذكر كيف تبدو أو كيف يصل إليها. إن العبرانيين عاجزون أمام المجهول؛ فهم يفتقرون

إلى المعرفة والدراية اللازمة لتصور حلول تقع خارج الأطر المعتادة.

لهذا السبب يدعو الله موسى ليكون بمثابة الوسيط والمحفز والقائد والمحرر في النهاية. لقد أظهرنا فيما سبق ما هي الطاقة التي يستخدمها الله لإقناعه بقبول قدره (حلقة العليقة المشتعلة). ومع ذلك، فلديه كل أسباب النجاح: الأصل الصالح (اللاوي)، والتدريب على الثقافة المصرية، والمعرفة اللغوية، والخبرة الحياتية، والعلاقات الأسرية، والطاعة المرتبطة بإيمان متواضع وراسخ.

يحجب موسى وجهه لأنه يخاف أن ينظر إلى الله. ويتابع الرب قائلاً: "إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي ٱلَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، فَنَزَلْتُ لِأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي ٱلْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا." (خر ٣: ٦-٨).

قبل أن ينطلق الشعب قُدمًا، كان عليهم أن يدركوا اختلافهم والدعوة الفريدة التي وضعها الله في قلوبهم. إذا قَبِلَ أن يعي شرارة الأبدية هذه، وأن يؤمن بتحقيق الوعود المعطاة، وأن يبني تحركه على قوته الداخلية، وأن يرى في موسى صوت الله ويده المتجسد في اللحظة الحاضرة فإنه يصبح في وضع يكون فيه مؤهلاً لرؤية ضعفه يتحول إلى قوة وإيمانه يتغلب على التجارب التي تنتظره.

إن الكتلة المتفرقة من الرجال والنساء التي تضطهدها الظروف يمكن أن تتحول تدريجياً إلى أمة مقدسة. وتتحول الرؤية المجردة تدريجياً إلى مشروع حياة ومثل أعلى يجب تحقيقه. ولا تعود أرض الميعاد صورة مثالية تخيلية، بل هدفاً يمكن الوصول إليه، ومصدراً للإلهام يستحق أن نعلو من أجله فوق الخوف، وأن نترك وراءنا خيبات الماضي ونثق في التطلعات الموضوعة في قلوبنا.

إن الأحلام والرؤى تطور في دماغنا إمكانات غير متوقعة. إنها تطلق طاقات غير متوقعة وتدفعنا للعمل والحركة. إنها تفتح آفاقًا جديدة وتمنح الشجاعة. إنها الوسيلة التي يستخدمها الله ليتحدث إلينا ويحفز رغبتنا في التغيير. لقد واجهت هذا شخصيًا في مناسبات عديدة. وحتى لا أنسى أي شيء، قررت أن أكتب الوعود التي تلقيتها والأفكار القوية التي ُقدمت لي. إن لدي الله أرض الموعد محفوظة لكل واحد منا. يكفينا أن نضع ذلك نصب أعيننا وأن نتصوره.

مثل العبرانيين، هناك الكثير منا الذين يرون في حياتهم عقبات يبدو التغلب عليها مستحيلاً في المقام الأول. وهذه كلها أسباب وجيهة لعدم اتخاذ خطوة إلى الأمام، كان يكون هناك نقص في المال، أو الاتصالات، أو المهارات، أو الوقت، أو الصحة، وما إلى ذلك. تخيل طفلًا صغيرًا. إذا شك في قدرته على المشي، فلن يحاول حتى النهوض. لو لم يكن كريستوفر كولومبوس يعتقد أن الأرض كروية، لما اكتشف أمريكا. لا يمكن عبور الجبل إلا إذا لم نخطو الخطوة الأولى. وفي الواقع، تبدو جميع العقبات أصغر عندما نتحدث عنها ونسلط الضوء عليها ونواجهها خطوة بخطوة.

المستحيل ليس كلمة فرنسية.[١٠] المستحيل يصبح ممكنًا بمجرد ألا تعرف أنه مستحيل.[١١] أفضل طريقة لتحقيق المستحيل هي أن تؤمن بأنه ممكن.[١٢] المستحيل يتراجع دائمًا عندما تسير نحوه.[١٣]

---

[١٠] اقتباس عن: چورچ أرماند ماسون.
[١١] اقتباس عن: إيفانس جيوم.
[١٢] اقتباس عن: لويس كارول، من: أليس في بلاد العجائب (١٨٦٥).
[١٣] اقتباس عن: أنطوان دو سانت أكزوبريه.

(٢) النهوض

"لِذَلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا ٱلرَّبُّ. وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ ٱلْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ إِلَهُكُمُ ٱلَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ ٱلْمِصْرِيِّينَ. وَأُدْخِلُكُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَأُعْطِيَكُمْ إِيَّاهَا مِيرَاثًا. أَنَا ٱلرَّبُّ. فَكَلَّمَ مُوسَى هَكَذَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى مِنْ صِغَرِ ٱلنَّفْسِ، وَمِنَ ٱلْعُبُودِيَّةِ ٱلْقَاسِيَةِ." (خر ٦: ٦-٩).

لا قيمة للوعود إذا رفضنا تصديقها أو على الأقل منحها فرصة لتتحقق. في هذه الحالة، يستخدم الله وسيطًا لتحقيق خططه. لو لم يقبل موسى وهارون التفويض الذي أعطاهما إياه الله، لما كنا نتحدث عن هذا النص المؤثر. لم يكن العبرانيون ليغادروا أرض مصر أبدًا، ولبقيت أرض الموعد في مرحلة الأحلام والطموحات الكبيرة التي لم تتحقق أبدًا. لكن لحسن الحظ أن القصة لم تنته عند هذا الحد!

يحدث غالبًا أن يستخدم الله وسطاء للتحدث إلينا وتشجيعنا. أستطيع أن أشهد أن الله كثيرًا ما حركني من خلال الحدس أو المقاطع الكتابية أو أحداث العناية الإلهية أو لحظات التسبيح ليتحدث معي ويرشدني.

عندما تركتني زوجتي الأولى، كان قلبي حزينًا. كنت أبكي في داخلي معتقدًا أنني سأظل وحيدًا طوال حياتي. وخلال خدمة ما، رنمنا ترنيمة تردد كلمات أيوب: "الرب أعطى، الرب أخذ، ليكن اسم الرب مباركًا." جذبتني هذه الكلمات. لقد ذكرني الرب أنه إذا أعطى، فيمكنه أيضًا أن يسترد، ولكن الأمر متروك لي أن أثق به. انفجرت في البكاء فحوّل الله حزني إلى حماسة جديدة. كان عليَّ بدوري أن

أسامح، الأمر الذي حررني على الفور. ومنذ ذلك الحين، حول الله حزني إلى فرح. أنا متزوج مرة أخرى ولدي طفلان آخران. لقد تمنيت أن يكون لي أربعة قبل عشرين عامًا خلت. لذلك تطلب الأمر الصبر، لكن هذه الفكرة تحققت.

في مناسبات أخرى، استخدم الرب الأصدقاء أو الشركاء أو القادة الروحيين ليتحدونا ولكي يوقظوننا من سباتنا. لم أكن لأقوم برحلة إلى مصر أبدًا، ولما كنت لأقوم بالخدمة التي تطورت بعد ذلك، لولا أن الله وجه لي الدعوة من خلال صديق في القاهرة. كنت على وشك أن أفقد وظيفتي في عام ٢٠١٦ عندما تم تشجيعي من خلال رسالة إخبارية على القدوم إلى مصر لحضور مؤتمر تبشيري. كنت آنذاك السويسري الوحيد الذي قام بهذه الرحلة. لكن من تواصلت معهم هناك كانوا سبباً في تغيير حياتي مما سمح لي بالتواصل مع دعوة الرب لي عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، ولقد استغرق الأمر أربعين عامًا حتى يتحقق الوعد.

"فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: ٱنْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلَهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ، وَهَارُونُ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ لِيُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ. وَلَكِنِّي أُقَسِّي قَلْبَ فِرْعَوْنَ وَأُكَثِّرُ آيَاتِي وَعَجَائِبِي فِي أَرْضِ مِصْرَ. وَلَا يَسْمَعُ لَكُمَا فِرْعَوْنُ حَتَّى أَجْعَلَ يَدِي عَلَى مِصْرَ، فَأُخْرِجَ أَجْنَادِي، شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ. فَيَعْرِفُ ٱلْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ." (خر٧: ١-٥).

نحن لا نفهم دائمًا ما يحدث لنا ولماذا يحدث. لماذا يكون فرعون عنيدًا جدًا لدرجة أنه يتسبب في حادثة الضربات العشر ويشرك كل السكان في هذه الآلام؟ ومع ذلك أعلن الله أن فرعون لن يستمع. علاوة على ذلك، فقد ورد أن الله نفسه هو الذي قسّى قلب فرعون. يا

له من مشهد غريب. أكل هذا فقط لكي تظهر القدرة الإلهية في عيون العالم؟

يطلب موسى من فرعون حق الشعب في أخذ إجازة لمدة ثلاثة أيام للذهاب ولتقديم الذبائح في الصحراء. يعارض الملك ذلك، ومن خلال القصة نفهم أن الله يخطط لرحلة أكثر جوهرية، لأنه يريد إعادة نسل يعقوب إلى أرض الآباء. هل كذب موسى عن عمد ليكسب رضا فرعون أم أنه استهان بالطموحات الإلهية؟ الأمر المؤكد هو أنه من أجل الحصول على رحيل العبرانيين، رفع الله المخاطر وسمم حياة المصريين حرفيًا، حتى رغب المصريون بإخلاص أن يتركوهم يرحلون. وبالإضافة إلى ذلك، فإنهم يأخذون معهم الثروة التي يمنحها لهم الشعب المصري.

"فَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلًا وَقَالَ: قُومُوا ٱخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا، وَٱذْهَبُوا ٱعْبُدُوا ٱلرَّبَّ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ. خُذُوا غَنَمَكُمْ أَيْضًا وَبَقَرَكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ وَٱذْهَبُوا. وَبَارِكُونِي أَيْضًا. وَأَلَحَّ ٱلْمِصْرِيُّونَ عَلَى ٱلشَّعْبِ لِيُطْلِقُوهُمْ عَاجِلًا مِنَ ٱلْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: جَمِيعُنَا أَمْوَاتٌ. فَحَمَلَ ٱلشَّعْبُ عَجِينَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْتَمِرَ، وَمَعَاجِنُهُمْ مَصْرُورَةٌ فِي ثِيَابِهِمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ. وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. طَلَبُوا مِنَ ٱلْمِصْرِيِّينَ أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا. وَأَعْطَى ٱلرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ ٱلْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ. فَسَلَبُوا ٱلْمِصْرِيِّينَ." (خر ١٢: ٣١-٣٦).

مع اندلاع الضربات العشر، يظهر الله عظمته وقوته. لقد حذر موسي فرعون، ثم نفذ الحكم. وتجدر الإشارة إلى أن سحرة فرعون كانوا قادرون على تكرار الضربتين الأوليين، ثم يتوقف علمهم عند هذا الحد ويعترفون بعجزهم. علاوة على ذلك، لم يتدخل موسى إلا بعد أن توسل إليه فرعون، لأن موسى وحده كان قادرًا على إيقاف الضربات. وهكذا يضطر فرعون إلى الاعتراف بتفوق الرب على

آلهته. وتجدر الإشارة إلى أنه من الضربة الرابعة قد حفظ الرب العبرانيون من اللعنة.

لقد أحس فرعون أن طلب موسى تقديم ذبيحة في الصحراء ما هو إلا ذريعة، وكان محقاً في ذلك. إنه بالفعل الرحيل العظيم الذي يجري الإعداد له. ثم يحاول التفاوض على ترتيبات حتى لا يقطع الشعب علاقاتهم مع مصر تمامًا: أن يقدموا تضحياتهم دون مغادرة البلاد، وهو ما يرفضه موسى. أثناء الضربة السابعة، اعترف فرعون بخطيته، لكنه أعاد النظر في موقفه. وفي الثامنة، فإن المصريون هم الذين يطالبون ويضغطون على الملك أن يستجيب له. لذلك يقبل فرعون أن يغادروا بشرط صريح أن يبقى النساء والأطفال. في الضربة التاسعة يطلب بقاء الماشية. حتى النهاية يسعى للاحتفاظ بالشعب. فقط بعد وفاة ابنه البكر يتنازل عن الرحيل بشكل جيد وصحيح.

"وَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: ٱذْهَبْ عَنِّي. اِحْتَرِزْ. لَا تَرَ وَجْهِي أَيْضًا. إِنَّكَ يَوْمَ تَرَى وَجْهِي تَمُوتُ." (خر ١٠: ٢٨).

إن النمط هو نفسه دائمًا الذي يتكرر: أ) الرب يقول لموسى ما يجب أن يفعله. ب) موسى يحذر فرعون. ج) يتصرف الله إما من خلال عمل بدأه موسى أو هارون، أو بشكل مباشر. د) يطلب فرعون من موسى أن يضع حدًا للوباء ويتنازل عن وعود لم يلتزم بها في النهاية. كما يطلب البركة الإلهية لنفسه. هـ) يتدخل موسى ولكن الله يقسي قلب فرعون.

"وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا أَقَمْتُكَ، لِكَيْ أُرِيَكَ قُوَّتِي، وَلِكَيْ يُخْبَرَ بِٱسْمِي فِي كُلِّ ٱلْأَرْضِ." (خر ٩: ١٦).

الضربات العشر كلها مظاهر توضح أن الرب أقوى من آلهة المصريين، بما فيهم فرعون، الذي يُبجل باعتباره تجسيدًا لها على

الأرض. يعبد المصريون الشمس ونهر النيل وجميع أنواع الحيوانات. من خلال مهاجمة هذه الآلهة ومظاهرها المختلفة، يوضح الرب للأمة بأكملها أن هذه الآلهة غير فعالة وغير قادرة على حماية نفسها. وفي النهاية، فإنهم جميعاً يعتمدون عليه. فهو يحولها إلى حالة العناصر المخلوقة البسيطة، بما أنه هو نفسه الخالق. وأخيرًا، يهاجم الرب بكر الملك ووريث العرش، إله الأرض، الذي يموت مع أبكار المصريين. إنه الاختبار الرهيب، الذي يكسر أخيرًا آخر مقاومة الفرعون وعناده.

الضربات العشر:

١. تتحول مياه النيل إلى دم؛
٢. الضفادع تغزو مصر؛
٣. يهاجم الذباب والبعوض السكان؛
٤. تتكاثر الحشرات مع الحفاظ على الأراضي العبرية؛
٥. وباء الطاعون يهاجم الماشية؛
٦. يصاب السكان المحليون بالدمامل (الجذام)؛
٧. البرد يدمر المحاصيل.
٨. الجنادب تلتهم النباتات.
٩. الظلام يسود لمدة ثلاثة أيام.
١٠. يموت أبكار مصر (الرجال والحيوانات) أثناء الليل.

"وَقَالَ مُوسَى: هَكَذَا يَقُولُ ٱلرَّبُّ: إِنِّي نَحْوَ نِصْفِ ٱللَّيْلِ أَخْرُجُ فِي وَسَطِ مِصْرَ، فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ ٱلْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ ٱلْجَارِيَةِ ٱلَّتِي خَلْفَ ٱلرَّحَى، وَكُلُّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ. وَيَكُونُ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُ أَيْضًا. وَلَكِنْ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُسَنِّنُ كَلْبٌ لِسَانَهُ إِلَيْهِمْ، لَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَلَا إِلَى ٱلْبَهَائِمِ. لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ ٱلرَّبَّ يُمَيِّزُ بَيْنَ ٱلْمِصْرِيِّينَ وَإِسْرَائِيلَ." (خر ١١: ٤-٦).

من أجل تنفيذ خطته، يتدخل الله على مرحلتين. أولًا، يجب على موسى وهارون أن يستجيبا للنداء وأن ينطلقا. يجب عليهما قبول مهمتهما والذهاب للقاء قادة العبرانيين وكذلك الفرعون وحاشيته. يجب أن يكونا على استعداد للثقة وتحمل المخاطر، وبدون تدخلهما لن يحدث شيء. إن الله لا يتصرف بمفرده. إنه يستخدم الأشخاص المخلصين والمكرسين. إن بين دخولهما إلى قلب الإحداث ورحيل الشعب من مصر، احتاج الأمر عدة أسابيع، بل أشهر.

وفي خطوة ثانية، يجب على العبرانيين أن يتصالحوا مع فكرة مغادرة "وطنهم"، وإعداد أمتعتهم والمغادرة في تكتم ليلاً إلى وجهة مجهولة. وعليهم أن يثقوا بصوت قائدهم، مثل الخراف التي تطيع صوت راعيها. إذا لم يفعلوا ذلك، فسيتم تركهم وراءه. يغتنم العديد من الهاربين الفرصة لمتابعة القافلة، لكن لا أحد يعرف عدد العبرانيين الذين يرفضون مغادرة منازلهم ويبقون في أماكنهم وتفوتهم فرصة الرحيل.

لوضع علامة علي الرحيل وحفظ هذا الحدث في الذاكرة، لا بد من القيام بعدة أمور: ١) يبدأ عصر جديد بإدخال تقويم جديد (١٢، ٢). ٢) ينبغي تجهيز حمل أو جدي. ٣) يطلي العبرانيون عتبات الأبواب بدمه. ٤) يتم الاستعداد بسرعة للبداية الكبيرة. ٥) لاكتساب القوة قبل الرحلة وكتذكار، تنظم وليمة أخيرة خاصة جدًا. يُشوي لحم الحيوان ويُقدم مع الفطير والأعشاب المرة. لا ينبغي أن تبقى منه أي بقايا.

"لَا تَأْكُلُوا مِنْهُ نِيئًا أَوْ طَبِيخًا مَطْبُوخًا بِٱلْمَاءِ، بَلْ مَشْوِيًّا بِٱلنَّارِ. رَأْسَهُ مَعَ أَكَارِعِهِ وَجَوْفِهِ. وَلَا تُبْقُوا مِنْهُ إِلَى ٱلصَّبَاحِ. وَٱلْبَاقِي مِنْهُ إِلَى ٱلصَّبَاحِ، تُحْرِقُونَهُ بِٱلنَّارِ. وَهَكَذَا تَأْكُلُونَهُ: أَحْقَاؤُكُمْ مَشْدُودَةٌ، وَأَحْذِيَتُكُمْ فِي أَرْجُلِكُمْ، وَعِصِيُّكُمْ فِي أَيْدِيكُمْ. وَتَأْكُلُونَهُ بِعَجَلَةٍ. هُوَ فِصْحٌ لِلرَّبِّ.

وَيَكُونُ لَكُمْ هَذَا ٱلْيَوْمُ تَذْكَارًا فَتُعَيِّدُونَهُ عِيدًا لِلرَّبِّ. فِي أَجْيَالِكُمْ تُعَيِّدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً." (خر ١٢: ٩-١١، ١٤).

(٣) العبور

"وَكَانَ لَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ ٱلشَّعْبَ أَنَّ ٱللهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ ٱلْفِلِسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لِأَنَّ ٱللهَ قَالَ: «لِئَلَّا يَنْدَمَ ٱلشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ». فَأَدَارَ ٱللهُ ٱلشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةِ بَحْرِ سُوفٍ." (خر ١٣: ١٧).

إن الله يعلم تماماً لماذا يقود الناس عبر طريق البرية وليس الطريق الأسهل على طول البحر الأبيض المتوسط. إن التعب والإحباط يأتيان حتمًا عندما يضطر المرء إلى إجراء تغييرات كبيرة في حياته. عندما تغادر منزلك بشكل نهائي، عندما تترك الأصدقاء والذكريات والعادات الصغيرة خلفك، فإنك تكون معرضاً أن يلاحقك الحنين لكل هذه، وأن يسكنك الشك. وبالتالي، لم يكن مناسباً أن يُجرَب العبرانيون بالحنين للعودة بسرعة كبيرة، قبل أن يروا الله وهو يعمل. علاوة على ذلك، كان من السهل جدًا على جيوش فرعون اللحاق بالهاربين بأمتعتهم ومواشيهم. لكن بالعبور عبر بحر القصب، أصبحت التحديات ذات طبيعة مختلفة تمامًا.

في أحد الأيام، لامست قلبي رسالة سمعتها خلال إحدى الخدمات. كان الواعظ يتحدث عن بطرس الذي رأى في سفينته يسوع يقترب على مياه البحيرة. اندفع مملوءًا بالحماس وخرج من القارب للقاء سيده وبدأ في المشي على الماء. عندها أدرك فداحة ما يحدث. وفجأة يبدأ بالتفكير في عمق البحيرة في هذا المكان ويبدأ بالشك. وكلما فكر أكثر، قلّت رؤيته ليسوع، وغرق أكثر في الماء، حتى أخذه يسوع بيده وأنقذه.

أحيانًا يطلب منا الله أن نخطو خطوة إيمان، وأن نعبر نقطة اللا عودة ونحن واثقون به. إن توقيع عقد (إيجار، زواج، إلخ.) أو خطاب استقالة هو عمل فريد من نوعه. بمجرد الالتزام، عليك أن تتحمل مسؤولية أفعالك. كثيرون يترددون ويحاولون التهرب من اتخاذ القرار. من خلال قصة بطرس، أظهر لي الله أنه سيتعين عليَّ أيضًا ترك منطقة الراحة الخاصة بي، والخروج من القارب والمشي على الماء. لقد كانت بالنسبة لي دعوة واضحة جدًا، حيث كان عليَّ أن أنهض، دون النظر إلى الوراء أو نحو الماء وعمق البحيرة، بل أن أمضي واثقًا ومثبتًا نظري على يسوع الذي يستقبلني. لقد أثر هذا الدرس فيَّ جدًا وسكن ذاكرتي.

يتبع الشعب موسى وكذلك الحضور الإلهي الذي يتجسد في عمود من السحاب نهارًا وعمود من نار ليلًا. تبدو الإشارات الإلهية مترددة إلى حد جعل فرعون يعتقد أن الشعب لا يعرف إلى أين يتجه.

"فَيَقُولُ فِرْعَوْنُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: هُمْ مُرْتَبِكُونَ فِي ٱلْأَرْضِ. قَدِ ٱسْتَغْلَقَ عَلَيْهِمِ ٱلْقَفْرُ. وَأُشَدِّدُ قَلْبَ فِرْعَوْنَ حَتَّى يَسْعَى وَرَاءَهُمْ، فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ جَيْشِهِ، وَيَعْرِفُ ٱلْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ." (خر ١٤: ٣).

يسيطر الخوف على العبرانيين، وكما هو متوقع، يبدأون في الشك والتردد والرغبة في العودة. إنهم يرون أن العمل من أجل المصريين خير من الموت في الصحراء (الآية ١٢). موسى وحده هو الواثق. فهو يعلم أن الله، إذا أعد الطريق، سيمهده أيضاً. إن الرب دائما يسبق بخطوة واحدة إلى الأمام. هو الذي سيقاتل المهاجمين ويعطي النصر.

"فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: «مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا. وَٱرْفَعْ أَنْتَ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى ٱلْبَحْرِ وَشُقَّهُ، فَيَدْخُلَ بَنُو

إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ عَلَى ٱلْيَابِسَةِ. وَهَا أَنَا أُشَدِّدُ قُلُوبَ ٱلْمِصْرِيِّينَ حَتَّى يَدْخُلُوا وَرَاءَهُمْ، فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَكُلِّ جَيْشِهِ، بِمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ. فَيَعْرِفُ ٱلْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ حِينَ أَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ... وَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى ٱلْبَحْرِ، فَأَجْرَى ٱلرَّبُّ ٱلْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ ٱللَّيْلِ، وَجَعَلَ ٱلْبَحْرَ يَابِسَةً وَٱنْشَقَّ ٱلْمَاءُ فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ عَلَى ٱلْيَابِسَةِ، وَٱلْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. وَتَبِعَهُمُ ٱلْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسَطِ ٱلْبَحْرِ. وَكَانَ فِي هَزِيعِ ٱلصُّبْحِ أَنَّ ٱلرَّبَّ أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ ٱلْمِصْرِيِّينَ فِي عَمُودِ ٱلنَّارِ وَٱلسَّحَابِ، وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ ٱلْمِصْرِيِّينَ، وَخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فَقَالَ ٱلْمِصْرِيُّونَ: «نَهْرُبُ مِنْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ يُقَاتِلُ ٱلْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ". (خر ١٤: ١٥-١٨، ٢١-٢٥).

بمجرد وصولك إلى منتصف المخاضة، لا توجد طريقة للرجوع إلى الخلف. إن فعل الإيمان يتمثل في الالتزام بهذا الممر الخطير، والاستمرار فيه رغم الشكوك، والثقة في الكلمة المعطاة. لا بد أن العبور عبر جدران المياه العالية كان أمرًا مخيفًا! يسرع الناس للوصول إلى الجانب الآخر، ويلاحقهم سلاح الفرسان. بعد أن اطمأنوا، يمكنهم أخيرًا أن يستديروا ويتأملوا المذبحة التي سببها عودة البحر إلى عهده الأول. لقد انهزم عدوهم. أما هم فقد عبروا إلي أرض جافة، فيما غرق الجنود. لكن هل يدركون حقاً أنهم قد تركوا بالفعل وضع العبودية، صائرين رجالًا ونساءً أحراراً؟ بالتأكيد ليس بعد.

إذًا، هناك ما قبل العبور وما بعده. على قدر ما كان العبور مضنياً فإن المسألة هي عدم الاكتفاء بذلك، والتوقف على الطريق. تأمل أيضًا قصة لوط الذي تعين عليه أن يغادر مدينته دون انتظار أيًا من سكانها:

"وَلَمَّا طَلَعَ ٱلْفَجْرُ كَانَ ٱلْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ ٱمْرَأَتَكَ وَٱبْنَتَيْكَ ٱلْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلَّا تَهْلِكَ بِإِثْمِ ٱلْمَدِينَةِ. وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ ٱلرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ ٱمْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ٱبْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ ٱلرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ ٱلْمَدِينَةِ. وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «ٱهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ ٱلدَّائِرَةِ. ٱهْرُبْ إِلَى ٱلْجَبَلِ لِئَلَّا تَهْلِكَ... نَظَرَتِ ٱمْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ." (تك ١٩: ١٥-١٧، ٢٦).

لم يعد من الممكن العودة الآن، فالالتفاف لا طائل منه. هناك آمال جديدة تلوح في الأفق، لكن الشك لم يتبخر بعد. لأن صحراء تعج بتحديات جديدة تواجه العبرانيين الآن، ينبغي أن يتجاوزوها وينتصروا عليها. قبل الوصول إلى أرض الموعد، هناك سلسلة كاملة من العقبات التي يجب التغلب عليها، وأعداء يجب قتالهم، ودروس يجب تعلمها، وثمار ناضجة يجب جمعها. إنه أيضًا وقت للتوقف للتأمل وللشعور بالامتنان والشكر.

(٤) المواجهة

هذا ما يقوله الرب (لإسرائيل المرأة الزانية): "وَأُعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ، وَوَادِي عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِيَ تُغَنِّي هُنَاكَ كَأَيَّامِ صِبَاهَا، وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ." (هو ٢: ١٥).

"وَأَنَا ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَإِلَهًا سُوَايَ لَسْتَ تَعْرِفُ، وَلاَ مُخَلِّصَ غَيْرِي. أَنَا عَرَفْتُكَ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ فِي أَرْضِ ٱلْعَطَشِ. لَمَّا رَعَوْا شَبِعُوا. شَبِعُوا وَٱرْتَفَعَتْ قُلُوبُهُمْ، لِذَلِكَ نَسُونِي." (هو ١٣: ٤-٦).

عندما يقودنا الله إلى الصحراء، فلديه أسبابه. نادرًا ما تكون المغامرة هناك عبارة عن نزهة بغرض تحسين الصحة. قليل من الناس يذهبون إلى هناك بقلب لا مبالٍ. لأن الصحراء هي أرض

مجهولة، متسع نفقد فيه اتجاهاتنا. هناك نواجه حدودنا، ونفتقر إلى كل شيء. بالطبع، يمكننا إعداد أنفسنا نفسيًا من خلال نسيان حياتنا الماضية، ولكن بمجرد دخولنا، يحدث كل شيء بشكل مختلف، فلكي نعيش العبور بشكل جيد، من الأفضل أن نتقبل ما هو غير متوقع وان نحيا يومًا بيومٍ.

قال موسي: "وَتَتَذَكَّرُ كُلَّ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتِي فِيهَا سَارَ بِكَ ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ هَذِهِ ٱلأَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ٱلْقَفْرِ، لِكَيْ يُذِلَّكَ وَيُجَرِّبَكَ لِيَعْرِفَ مَا فِي قَلْبِكَ: أَتَحْفَظُ وَصَايَاهُ أَمْ لاَ؟ فَأَذَلَّكَ وَأَجَاعَكَ وَأَطْعَمَكَ ٱلْمَنَّ ٱلَّذِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ وَلاَ عَرَفَهُ آبَاؤُكَ، لِكَيْ يُعَلِّمَكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱلْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا ٱلإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ ٱلرَّبِّ يَحْيَا ٱلإِنْسَانُ. ثِيَابُكَ لَمْ تَبْلَ عَلَيْكَ، وَرِجْلُكَ لَمْ تَتَوَرَّمْ هَذِهِ ٱلأَرْبَعِينَ سَنَةً. فَٱعْلَمْ فِي قَلْبِكَ أَنَّهُ كَمَا يُؤَدِّبُ ٱلإِنْسَانُ ٱبْنَهُ قَدْ أَدَّبَكَ ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ. وَٱحْفَظْ وَصَايَا ٱلرَّبِّ إِلَهِكَ لِتَسْلُكَ فِي طُرُقِهِ وَتَتَّقِيَهُ." (تث ٨: ٢-٦).

بمجرد عبور البحر الأحمر، يدخل شعب إسرائيل إلى الصحراء ويجب عليهم أن يتأقلموا مع بيئتهم الجديدة. من غير المستغرب أن يشكوا من نقص الماء والغذاء. فكريًا، فأنهم لا يزالون يتصرفون مثل مجموعة من العبيد: أفرادٌ معتادون على اتباع الأوامر، وأخذ ما يُقَدَمَ لهم، والشكوى من أي أمر لا يتفق مع هواهم. نحن نواجه هنا ردود أفعال أطفال غير ناضجين، متمردين أحيانًا، وخاضعين للسلطة أحيانًا. لكن هذا ليس مفاجئًا، بعد أن قضوا سنوات عديدة تحت قيادة من سيطروا عليهم واستعبدوهم.

إذا عدنا إلى فئات تحليل المعاملات، نري كيف أن موسى يجد نفسه، على الرغم منه تقريبًا، في موقع الوالد أو الأم. ففي بعض الأحيان يلعب دور الأب الذي يضع القواعد، ويتخذ القرارات، وفي بعض الأحيان يقوم بدور الأم التي ترعى مصلحة الأبناء وتوفر احتياجات الجميع. ولذلك فإن التواصل ليس سهلًا، لأنه لا يتم بين

شركاء ناضجين. أما الله فيبدو بعيدًا جدًا عن إمكانية مخاطبته مباشرة. يجد الناس صعوبة في إدراكه في الحياة اليومية وفهم خططه. بالنسبة للعبرانيين، لا يزال الرب شخصية مجردة للغاية، وهو ما يفسر سبب مخاطبته لموسى فقط.

تبدأ الرحلة في الصحراء بخمس محطات مهمة، قبل الوصول إلى سفح جبل حوريب، مكان الوحي.

- مارا: تجربة الماء المر.
- إيليم: الراحة بالقرب من الواحة التي تضم ١٢ عينًا و٧٠ نخلة.
- برية سين: تجربة الجوع.
- مسة ومريبة: محنة نقص المياه.
- رفيديم: هجوم عماليق المفاجئ.

بعد مغادرة مصر وسط ضجة كبيرة والعبور الحاسم للبحر الأحمر، بدأت المسيرة القسرية للتو. لابد من التعود على أسلوب الحياة البدوي الجديد، الذي يتميز بقلة الوفرة والتعود على صوت وقع الأقدام على رمال الصحراء، وعلى الشعور بعدم الجدوى والنقص الذي يجب تقبله، يضاف إلى ذلك نظام غذائي جديد أقل تنوعا من النظام السابق. لقد انتهى إيقاع العمل والنوم المعتادين؛ ولم تعد هناك حديقة للزراعة. لا يوجد سوى الحر والعطش والجوع، وعمود من السحاب والنار يشيران إلى طريق غير مؤكد عبر بيئة قاحلة وجبلية.

عند المغادرة، كان العبرانيون قد أخذوا بعض المؤن والماء للأيام القليلة الأولى. ويجب أن يُقال إن موسى كلمهم في البداية عن تقديم ذبيحة في مسيرة ثلاثة أيام، لكن لا مجال للرجوع الآن لذلك. لقد تراجعت مسألة تقديم الذبيحة هذه في البرية إلى الخلفية. ولحسن الحظ ان لا أحد كان يعلم في هذه المرحلة أن الرحلة ستستغرق

أربعين سنة أخرى. إنها حقاً مدرسة حقيقية للصبر حيث يتعلق الأمر بترويض الجسد النفس والروح. إن التطهير التدريجي والتركيز على الأساسيات، هو أيضًا بمثابة اكتشاف الرب في تفرده وقداسته.

بعد ثلاثة أيام من عبور البحر الأحمر، جفت الوديان وقِرب الماء، لكن مع الحرارة والجفاف، عليك أن تشرب. تتطلب القطعان أيضًا الاهتمام. ومع ذلك، لم يعد هناك أي وسيلة لإرواء عطشك. البحر الذي يحيط بك مالح وبالتالي غير صالح للاستهلاك. فما العمل؟ يدخل الشك إلى الشعب ومن غير موسى يلومون الآن؟ هذا هو الاختبار الحقيقي الذي أراده الله (خر ١٥: ٢٥).

في مارا، صادفوا بركة لكن المشكلة هي أن المياه مرة.، وهي راكدة وليس طعمها مثل مياه النيل الجارية. ليست أجسامهم مستعدة لشرب هذا الماء. وهم لم يكتسبوا بعد خبرة حفر الآبار. هناك الكثير من الأشياء لاكتشافها وتعلمها. موسى وحده يعرف كيف يتصرف في الصحراء. وبفضل معرفته وقدرته على الاستماع إلى الله، فهو يعرف ما يجب فعله لضمان البقاء. ولولا ذلك لكان التحدي أكبر. كان سيكون عاجزًا تمامًا أمام مثل هذا الحشد الكبير: إعطاء الماء لثلاثة ملايين شخص بالإضافة إلى مواشيهم! ومع ذلك، فإننا نشعر به على حافة الهاوية. متأثرًا ومرهقًا، يصلي إلى الرب بقوة (خر ١٥: ٢٥).

ومع ذلك فإن الحل في متناول اليد. فقط يكفي أن نفتح أعيننا. لقد ألقيت قطعة خشب في البركة فجعلت الماء صالحًا للشرب. تحل الشجرة الأزمة. لقد أصبحت مصدرًا للحياة، في إشارة إلى شجرة الحياة في سفر التكوين والتي تنمو أيضًا في أورشليم الجديدة.

"فَصَرَخَ إِلَى ٱلرَّبِّ. فَأَرَاهُ ٱلرَّبُّ شَجَرَةً فَطَرَحَهَا فِي ٱلْمَاءِ فَصَارَ ٱلْمَاءُ عَذْبًا. هُنَاكَ وَضَعَ لَهُ فَرِيضَةً وَحُكْمًا، وَهُنَاكَ ٱمْتَحَنَهُ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ لِصَوْتِ ٱلرَّبِّ إِلَهِكَ، وَتَصْنَعُ ٱلْحَقَّ فِي عَيْنَيْهِ، وَتَصْغَى

إِلَى وَصَايَاهُ وَتَحْفَظُ جَمِيعَ فَرَائِضِهِ، فَمَرَضًا مَا مِمَّا وَضَعْتُهُ عَلَى ٱلْمِصْرِيِّينَ لَا أَضَعُ عَلَيْكَ. فَإِنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ شَافِيكَ. ثُمَّ جَاءُوا إِلَى إِيلِيمَ وَهُنَاكَ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنَ مَاءٍ وَسَبْعُونَ نَخْلَةً. فَنَزَلُوا هُنَاكَ عِنْدَ ٱلْمَاءِ." (خر ١٥: ٢٥-٢٧).

يقود الاختبار الأول إلي الدرس الأول: تعلم القواعد الأساسية للعيش معًا. وفي مصر كان هناك فرعون وميليشياته الذين يطبقون القانون. إما الطاعة العمياء أو الاستدعاء العنيف للنظام والضرب. الآن، يتعين علينا إعادة اختراع كل شيء، والتعلم من جديد. وفقًا للتقاليد اليهودية، علم موسى العبرانيين قواعد نوح السبعة[١٤]، وهي مدونة سلوك حقيقية تحظى باحترام عالمي وتعتبر بمثابة مشروع دولة. إن أصل هذه الوصايا هو الله الذي أوصلها إلى آدم ونوح. كما تم العثور عليها كذلك مذكورة في قانون حمورابي الفارسي.

- وجوب إنشاء المحاكم.
- تحريم التجديف.
- تحريم عبادة الأصنام.
- حظر الارتباطات غير المشروعة.
- تحريم القتل.
- تحريم السرقة.
- تحريم أكل لحم منزوع من حيوان حي.

أما المحطة الثانية من الرحلة فتؤدي إلى سراب، أو تكاد. في "إيليم"، يكتشف الناس واحة. هذه هي الفرصة الأولى للراحة وإعادة الشحن واستعادة القوة بعد انفعالات الرحيل المتسرع. الوصف هنا مقتضب ورمزي. تنبئ هذه الواحة، من وجهة نظري، بما سوف يصبح عليه الشعب في المسيرة: أي اثنتا عشرة قبيلة تمثل مصادر

[١٤] راجع أيضًا: (تك ٩: ١-١٠).

الحياة نفسها، بينما السبعون نخلة كأنها تصوير مسبق للسبعين قائدًا المسؤولين عن إطعام الناس وقيادتهم، وبمجرد أن يستريح العبرانيون ويرتووا ويُلْهَمُوا بهذه الرؤية، كان عليهم أن يواصلوا رحلتهم.

"وَقَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: «لَيْتَنَا مُتْنَا بِيَدِ ٱلرَّبِّ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ ٱللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشَّبَعِ. فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هَذَا ٱلْقَفْرِ لِكَيْ تُمِيتَا كُلَّ هَذَا ٱلْجُمْهُورِ بِٱلْجُوعِ." (خر ١٦: ٣).

بعد مضي أكثر من شهر على الطريق، كان هناك اختبار آخر في انتظار الشعب: تجربة الجوع. يبدأ الشعب في إضفاء المثالية على ماضيه من خلال التوق إلى أواني اللحوم. ومع ذلك، ففيما عدا النخب المصرية المتميزة، فمن من العبيد العبرانيين كان يستطيع شراء اللحوم؟ ومع ذلك، يقبل الله المقارنة ويتدخل في الأمر، ويقدم لهم طعامًا غنيًا وكافيًا، ينزل حرفيًا من السماء.

"فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ. فَيَخْرُجُ ٱلشَّعْبُ وَيَلْتَقِطُونَ حَاجَةَ ٱلْيَوْمِ بِيَوْمِهَا. لِكَيْ أَمْتَحِنَهُمْ، أَيَسْلُكُونَ فِي نَامُوسِي أَمْ لَا. وَيَكُونُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلسَّادِسِ أَنَّهُمْ يُهَيِّئُونَ مَا يَجِيئُونَ بِهِ فَيَكُونُ ضِعْفَ مَا يَلْتَقِطُونَهُ يَوْمًا فَيَوْمًا... فَكَانَ فِي ٱلْمَسَاءِ أَنَّ ٱلسَّلْوَى صَعِدَتْ وَغَطَّتِ ٱلْمَحَلَّةَ. وَفِي ٱلصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ ٱلنَّدَى حَوَالَيِ ٱلْمَحَلَّةِ. وَلَمَّا ٱرْتَفَعَ سَقِيطُ ٱلنَّدَى إِذَا عَلَى وَجْهِ ٱلْبَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَٱلْجَلِيدِ عَلَى ٱلْأَرْضِ." (خر ١٦: ٤، ٥، ١٣، ١٤).

الآن لم يعد العبرانيون بحاجة إلى زراعة الأرض بجهد كبير، فها الخلاص يأتي من فوق. يجب عليهم أن يتخلوا عن وضعية الخضوع والانحناء، وأن يستقيموا ويتعلموا رفع أعينهم إلى السماء مثل الرجال والنساء الأحرار. إن الله في نعمته، يرزقنا عندما نثق به. ولكن القواعد تتغير: فلم يعد هناك للشعب مبرر للاكتناز، لأن هناك

ما يكفي الجميع وبكميات كافية. أمام الله لم يعد هناك فقراء ولا أغنياء، لان لكل منهم قيمة متساوية. يتم التوزيع بشكل عادل، ومن يخشى منهم نفاد الطعام كان يختزنه لأجل نفسه: لكن كان ما يتم تخزينه من المن يتعفن ويصبح غير صالحاً للأكل.

كان الاستثناء الوحيد هو اليوم الذي يسبق السبت، وفيه كان يُسمح بجمع حصتين من المَن، لأنه يوم راحة الرب، يقضونه بالبيت. الكلمة العبرية "نصيب مضاعف" تشير إلى معنى مزدوج: أ) الطعام يتكاثر، ب) يغير طبيعته، لأنه في يوم السبت يأخذ معنى تفصيل المادة الأولية، حتى يصبح قابلًا لإفادة لا الجسم فقط، بل والنفس أيضًا.[١٥] إن الرب صالح، يتكفل بوجبتين في اليوم: المَن في الصباح، والسمان في المساء.

إن حبَّات الندى البيضاء الصغيرة هذه التي نحصدها في الصباح، لا يمكن وصفها. ولهذا سُميت المن، وهي كلمة تأتي من السؤال ما هو؟ (خر ١٦: ١٥). في البداية، يُنظر إلى المَن على أنه نعمة، وطعمه يُرضي الفم. ثم يَمَلُّ منه العبرانيون ويتغير تقديرهم له، كما تظهر النصوص جيدًا:

- طعمها مثل كعكة العسل (خر ١٦: ٣١).
- ها نحن نتضور جوعًا... المَن فقط! (عد ١١: ٦).
- يبدو مثل النسغ من شجرة (عد ١١: ٧).
- طعم المن مثل الكعك المطبوخ في الزيت (عد ١١: ٩).
- هذا الطعام الرهيب يثير اشمئزازنا (عد ٢١: ٥).

في الطريق إلى جبل حوريب، يهاجم الشعب موسى مرة أخرى لأنه يفتقر إلى الماء. يكاد موسى أن ييأس، لسبب ازدياد الغضب بين الشعب، ولحسن الحظ، يتدخل الله مرة أخرى ويقدم الحل: اضرب

[١٥] دراي، ص٣١.

الصخرة ليخرج منها الماء. يجب على موسى أن يتغلب على خوفه، ويظهر قيادته، ويقود الشيوخ إلى الصخرة، ويضرب الصخرة. وهكذا لا يمكن الطعن في سلطته، وتحدث المعجزة الإلهية. وقد دُعي هذا المكان ماسة أي الاستفزاز، ومريبة أي الخصومة (خر ١٧: ٦).

التجربة التالية، تلك التي حدثت رفيديم، كان من الممكن أن تكون أكثر خطورة من الأحداث السابقة. فبعد أن أضعفت الرحلة الشعب العبري، وأجهدتهم ظروف معيشتهم الجديدة، وبينما هم متفرقون غير متحدين، كان يجب عليهم أن يواجهوا لأول مرة خصمًا أفضل تنظيمًا منهم بكثير. لذلك توجب عليهم توحيد الصفوف وتعلم القتال كرجل واحد.

يُقال إن أفضل طريقة لتوحيد أمة هي جعلها تواجه عدوًا مشتركًا. وهذا ما يحدث دون أن يختار العبرانيون هذه الكوكبة. المصريون بالتأكيد بعيدون، بل ومنسيون. ولكن الآن تبدأ الأمور الجادة: تظهر قبائل أخرى. إنهم لا يتقبلون بسهولة وصول هذا الحشد غير المتجانس. ربما يشعرون بالتهديد من قبل هؤلاء البدو الرحل. ثم يسعون لخوض المعركة معهم قبل فوات الأوان، قبل أن يصبح العبرانيون أقوياء للغاية.

من المؤكد أن العماليق كانوا يراقبون العبرانيين لبعض الوقت. ينتظرون لحظة ضعف ليهاجموهم. لكن بعد التجارب الأخيرة، يبدو العبرانيون بالفعل ضعفاء بدرجة كافية تبدو معها فرصة التغلب عليهم ممكنة.

في رفيديم، يطلب موسى من يشوع، الذي يقوم بأول ظهور علني له هنا، أن يختار رجالًا مستعدين لحمل السلاح والدفاع عن أنفسهم. أما موسى فيصعد إلى الجبل ليدعو الرب. ويبدو أن الأمر يعمل بنجاحٍ: فطالما احتفظ موسى بذراعيه مرفوعين، يكون بنو إسرائيل

هم الأقوى وعندما يُخْفِضَهُم، يسيطر الأعداء. ومع ذلك، بدأت قواه تنفد، ذراعيه تثقلان. ثم يأتي هارون وحور لإنقاذه ويحملان ذراعيه.

"وَكَانَ إِذَا رَفَعَ مُوسَى يَدَهُ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَغْلِبُ، وَإِذَا خَفَضَ يَدَهُ أَنَّ عَمَالِيقَ يَغْلِبُ. فَلَمَّا صَارَتْ يَدَا مُوسَى ثَقِيلَتَيْنِ، أَخَذَا حَجَرًا وَوَضَعَاهُ تَحْتَهُ فَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَدَعَمَ هَارُونُ وَحُورُ يَدَيْهِ، ٱلْوَاحِدُ مِنْ هُنَا وَٱلْآخَرُ مِنْ هُنَاكَ. فَكَانَتْ يَدَاهُ ثَابِتَتَيْنِ إِلَى غُرُوبِ ٱلشَّمْسِ. فَهَزَمَ يَشُوعُ عَمَالِيقَ وَقَوْمَهُ بِحَدِّ ٱلسَّيْفِ." (خر ١٧: ١١-١٣).

العمالقة هم من نسل عيسو، الأخ التوأم ليعقوب، جد إسرائيل. وبالتالي فإن الشعبين أبناء عمومة. لكن يعقوب سرق بمكر حق البكورية وبركة الأب على حساب عيسو الأخ البكر. هذا التنافس يجد ذروته هنا. إن الأمر يتعلق بالعدو الأول المعلن لإسرائيل. وبحسب المدراش فإن كلمة عماليق تعني حشرة تمتص الدم[١٦] أو تشربه. إن لدي العماليق سمعة كونهم محاربين شرسين.

إن ما لم يحصل عليه جدهم بالحق، يريدون استعادته بالقوة الغاشمة. لا يمكن لعماليق أن يقبلوا أن تنشأ دولة حرة وأن تنتشر في المنطقة، فيحاولون إجهاض التحالف الإلهي الذي لا يزال جنينيًا وأن يسحقوا النبتة الصغيرة الوليدة في أسرع وقت ممكن. ولكن ذلك لا يتحقق، لأن الرب ساهر علي شعبه، وبعد النصر، يبنى موسى المذبح الأول كعلامة تذكار.

(٥) التلقي

"فَحَدَثَ إِذْ كَانَ هَارُونُ يُكَلِّمُ كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمُ ٱلْتَفَتُوا نَحْوَ ٱلْبَرِّيَّةِ، وَإِذَا مَجْدُ ٱلرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِي ٱلسَّحَابِ." (خر ١٦: ١٠).

[١٦] دراي، ص٤٣.

بمجرد التغلب على التجارب الأولى، يتخذ الشعب العبراني قراره. يشجعهم هارون على عدم التركيز بعد الآن على ماضيهم، بل على مواجهة مصيرهم. لقد حفظ الله لهم أرض الموعد. رغم أنهم لا يعرفون ذلك بعد، لكن الرب سوف يظهر نفسه بطريقة خاصة في سيناء. لا أحد مثل الرب، وقد اختار لنفسه شعبًا ليكشف له عن ذاته. ولكن لكي نكون منفتحين على الوعد وقادرين على تلقي الشريعة كعطية وليس كعمل روتيني، يجب على المرء أن يترك وراءه الحزن والاستياء والمرارة وكذلك الحنين إلى ما قد تركه وراءه. عندما يأخذ الشعب طريقه نحو البرية، عندها يستطيع الله أن يعلن مجده. إن هذا الدرس صالح أيضًا لحياتنا.

إن الرب صالح، وهو يتصرف معنا بشكل تربوي. طالما سرنا على الطريق، فاتحين آذاننا، فإنه يعطينا علامات لا حصر لها على حضوره ونعمته. لقد رأى العبرانيون الله وهو يعمل في الضربات العشر، واختبروا عبور البحر الأحمر. لقد اكتشفوا في الصحراء الواحة ذات الينابيع الاثني عشر والسبعين نخلة. علاوة على ذلك، يكتشفون المن والسلوى ويرون الله يعمل، عندما أنبع من الصخرة نبع ماءاً عذباً. نعم، حضور الله ليس بعيدًا أبدًا، وهو يُظْهِرُ ذلك جليًا في عمود النار ليلًا وفي السحاب نهارًا.

للأسف، وعلى الرغم من كل هذه الاعلانات الإلهية، لا يزال الشعب يتشكك ويتذمر. باعتبارهم قادة الشعب يدفع موسى وهارون الثمن. إنه نفس الشيء دائمًا: نحن نبحث عن الجاني، عن كبش فداء. بالنسبة لله، فمن الصعب جدًا فهمه، إذ يبدو مجردًا للغاية بحيث لا يمكن إلقاء اللوم عليه. كما أن الثقة تستغرق وقتًا لترسخ في القلب. وكما سبق أن لاحظنا، فإن المعونة تأتي من فوق. يجب على العبرانيين أن يستقيموا ويتعلموا أن ينظروا إلى الأعلى. وشيئًا فشيئًا يدركون الحضور الإلهي، فتتغير العادات، وتتطور العقليات

تدريجياً. من كتلة لا شكل لها من الأفراد والعائلات، تنشأ ببطء ولكن بثبات أمة، متحدة من خلال قواعد مشتركة وإيمان واحد.

يتم تدريجيًا إنشاء تنظيم جديد يضم مسؤولين عن العبادة والشرطة والعدالة. في البداية، يكون موسى هو مَن يقوم بكل هذه. فهو يستمع، ويحكم، ويتدخل حسب الاحتياج. بالإضافة إلى أنه يتولى وظيفة الكاهن عندما يتوسط بين الشعب والله. وهذا التراكم في الوظائف يرهقه ويهدد حالته الصحية. إن زيارة زوج والدته يثرون ستسمح له بأن يعي ذلك الأمر، ثم أن يتخذ قرارًا بشأن التدابير التصحيحية اللازمة. إن شخصاً من خارج دائرة موسي، هو وحده القادر أن يجادله من خلال طرح الأسئلة الصحيحة. هذه النظرة الخارجية والتحليل الذي يتم للوضع يتم بشكل موضوعي وربما حتى بشكل يخلو من الرحمة، لأنه يتعين أن يتعلم موسى معني التفويض.

كان موسى يخشى ألا يكون على مستوى المهمة. واشتكى من عدم معرفة كيفية التحدث أمام الجمهور. لكن المخاطر الآن أعلى بكثير. يجب عليه قيادة حشد كبير، وإيجاد حلول لجميع الأسئلة التي تنشأ، وفي الوقت نفسه تسوية النزاعات الفردية. إنه على وشك الانهيار العصبي ويخاطر بالسقوط فريسة للإرهاق في أي وقت. لكن سوف يستخدم الله الزائر ككاشف، وبالتالي يجعل من الممكن تصحيح الوضع.

"وَحَدَثَ فِي ٱلْغَدِ أَنَّ مُوسَى جَلَسَ لِيَقْضِيَ لِلشَّعْبِ. فَوَقَفَ ٱلشَّعْبُ عِنْدَ مُوسَى مِنَ ٱلصَّبَاحِ إِلَى ٱلْمَسَاءِ." (خر ١٨: ١٣).

"فَلَمَّا رَأَى حَمُو مُوسَى كُلَّ مَا هُوَ صَانِعٌ لِلشَّعْبِ، قَالَ: مَا هَذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي أَنْتَ صَانِعٌ لِلشَّعْبِ؟ مَا بَالُكَ جَالِسًا وَحْدَكَ وَجَمِيعُ ٱلشَّعْبِ وَاقِفٌ عِنْدَكَ مِنَ ٱلصَّبَاحِ إِلَى ٱلْمَسَاءِ. فَقَالَ مُوسَى لِحَمِيهِ: إِنَّ ٱلشَّعْبَ يَأْتِي إِلَيَّ لِيَسْأَلَ ٱللهَ. إِذَا كَانَ لَهُمْ دَعْوَى يَأْتُونَ إِلَيَّ فَأَقْضِي بَيْنَ ٱلرَّجُلِ

وَصَاحِبِهِ، وَأُعَرِّفُهُمْ فَرَائِضَ ٱللهِ وَشَرَائِعَهُ. فَقَالَ حَمُو مُوسَى لَهُ: لَيْسَ جَيِّدًا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي أَنْتَ صَانِعٌ. إِنَّكَ تَكِلُّ أَنْتَ وَهَذَا ٱلشَّعْبُ ٱلَّذِي مَعَكَ جَمِيعًا، لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ أَعْظَمُ مِنْكَ. لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَهُ وَحْدَكَ." (خر١٨: ١٩-٢١).

كان موسى يخشى ألا يكون على مستوى المهمة، واشتكى من عدم معرفته كيفية التحدث أمام الجمهور. لكن المخاطر كانت الآن أعلى بكثير، إذ يجب عليه قيادة حشد كبير، وإيجاد حلول لجميع الأسئلة التي تنشأ، وفي الوقت نفسه تسوية النزاعات الفردية. إنه على وشك الانهيار العصبي ويخاطر بأن يسقط فريسة للإجهاد في أي لحظة. لكن الرب يستخدم هذا الزائر ليكشف له ما لا يراه، وبالتالي يجعل من الممكن تصحيح الوضع.

"اَلْآنَ ٱسْمَعْ لِصَوْتِي فَأَنْصَحَكَ. فَلْيَكُنِ ٱللهُ مَعَكَ. كُنْ أَنْتَ لِلشَّعْبِ أَمَامَ ٱللهِ، وَقَدِّمْ أَنْتَ ٱلدَّعَاوَى إِلَى ٱللهِ، وَعَلِّمْهُمُ ٱلْفَرَائِضَ وَٱلشَّرَائِعَ، وَعَرِّفْهُمُ ٱلطَّرِيقَ ٱلَّذِي يَسْلُكُونَهُ، وَٱلْعَمَلَ ٱلَّذِي يَعْمَلُونَهُ. وَأَنْتَ تَنْظُرُ مِنْ جَمِيعِ ٱلشَّعْبِ ذَوِي قُدْرَةٍ خَائِفِينَ ٱللهَ، أُمَنَاءَ مُبْغِضِينَ ٱلرَّشْوَةَ، وَتُقِيمُهُمْ عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ أُلُوفٍ، وَرُؤَسَاءَ مِئَاتٍ، وَرُؤَسَاءَ خَمَاسِينَ، وَرُؤَسَاءَ عَشَرَاتٍ." (خر ١٨: ١٩-٢١).

إن هذا الأمر سيجعل من الممكن إنشاء تنظيم داخلي حقيقي للشعب، لتوضيح الإجراءات وتبسيط الحلول الإدارية. وإذا رجعنا إلى دلالات العدد فإن ذلك يعني أنه قد تم إعداد نحو ٧٨.٦٠٠ مسؤول في ذلك اليوم. وهذا أمر مهم، لكنه لا يدعو بأي حال من الأحوال إلى التشكيك في الدور الحاسم الذي لعبه موسى. على العكس من ذلك، فهو يوفر له الوقت للتعامل مع المسائل الأساسية.

بعدما كان موسي في وضع يقتضي أن يكون متواجدًا في كل مكان، فإنه سوف يختفي تمامًا بين عشية وضحاها لمدة أربعين يومًا،

وهو على الأرجح لم يتخيل أنه سيغيب لفترة طويلة كهذه، استجابة لدعوة الله لينضم إليه في جبل سيناء. أما بالنسبة للشعب، فإن هذا الغياب أيضاً يعتبر في النهاية اختفاءً له تداعيات ثقيلة التبعات، مثل حادثة العجل الذهبي.

لقد حان الوقت لإتمام بنود العهد الذي يريد الله أن يقيمه مع شعبه. هذا التحالف يذهب إلى ما هو أبعد من القوانين التي أرساها نوحٌ، لأنه لا يتعلق فقط بقواعد العيش المشترك، فهو يصف من هو الرب، وكم هو مختلفٌ عن الآلهة الأخرى، وكيف يرى العلاقات على جميع المستويات. إنها مسألة إنشاء وتحديد إطار لمساحة من الحرية والأخوة. إنها نهاية ميزان القوى. لم يعد هناك جبروت أو تعسف، بل هناك مجموعة من الشبكات تشكل شبكة اجتماعية ودينية تسمح لكل فرد بالنمو والازدهار. لن يتم تعيين قادة لكي يفرضوا قوانينهم، ولكن فقط لتفسير القانون الإلهي وتسهيل الاحترام المتبادل.

"أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِٱلْمِصْرِيِّينَ. وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ ٱلنُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ. فَٱلْآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ ٱلشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ ٱلْأَرْضِ. وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً. هَذِهِ هِيَ ٱلْكَلِمَاتُ ٱلَّتِي تُكَلِّمُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ." (خر ١٩: ٤-٦).

إن التوراة بوصاياها هي هبة حقيقية. ويمكن اعتبار إعطائها بمثابة مرحلة جديدة في خلق العالم. يعيد الله خلق العلاقات أ) بين البشر، ب) بينهم وبين نفسه. يصعد موسى جسديًا إلى الجبل للقاء الرب والحصول على الشريعة. ولكن بالنسبة لجميع الناس، فهو ارتقاء حقيقي بالروح، لأنهم مدعوون إلى التفاعل مع إلههم وقبوله بطريقة جديدة تمامًا.

بعد خروجهم من مصر الفرعونية، حيث "أطبق الاضطهاد والعبودية على أنفاسهم"، وضاقت نفوسهم، فإن بني إسرائيل مدعوون الآن إلى الصعود والارتقاء.[١٧]

تعتبر الشريعة عقداً بين طرفين يتمتعان بحرية الالتزام بها. يرسي الله قواعد الشريعة، ويعطي وصاياه، ويصدقها الناس من خلال الترحيب بها بدورهم بتطبيقها يوميًا. فيجيب الشعب كله بقلب واحد: "كل ما تكلم به الرب نفعل." (خر ١٩: ٨). تم إبرام العقد والاحتفال به بألعاب نارية جبارة مصحوبة بزلزال قوي.

وبمصادقة العقد، يرتقي الشعب كله إلى مرحلة الشركاء مع الله. فهو يربط نفسه بالخطة الإلهية للبشرية، وبذلك يصبح بدوره أمة من الكهنة. من الآن فصاعدًا، ستتغير حالة كل فرد من الشعب. فهو يتحمل مسؤولية جديدة. ولم يعد يستطيع الاعتماد فقط على سلطاته السياسية أو الدينية، بل على المستوى الشخصي، فهو مدعو لتقديس اسم الرب وغسل ثيابه، أي أن يتطهر، لأن الله قدوس.

"وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ٱلرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِٱلنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ ٱلْأَتُونِ، وَٱرْتَجَفَ كُلُّ ٱلْجَبَلِ جِدًّا." (خر١٩: ١٨).

منذ الآن فصاعدًا نواجه دولة مشروعة يضع الله فيها قواعدها. يتم كتابة هذه القواعد وإبلاغها وبالتالي تكون معروفة للجميع. لا مزيد من الأقوال الشمولية، التي تفرض رؤية من الأعلى. فالإنسان يُعطى حقوقاً وتكون عليه أيضاً واجبات. وهم الآن مسؤولون عن تفسير قواعد القانون باستخدام بصيرتهم وذكائهم. وهكذا تكتسب الخليقة كلها أهمية ويصبح الإنسان شريكا لله في قلب الخليقة.

[١٧] دراي، ص٦١.

يصبح جسد الإنسان نفسه القناة التي يتدفق من خلالها روح الله. إنها إعادة تقدير حقيقية للإنسان الذي ينتقل من وضع الحيوان الناطق إلى وضع الشريك في إدارة العالم. عن طريق الختان يحمل الإنسان العهد في جسده، فيحول جسده ونفسه وروحه إلى مجال إعلان وبركة، وللأسف، فإن هذا لا يتم بشكل تلقائي بل يتطلب تغييرًا في الإدراك والوعي، كما يذكرنا الرسول بولس (رو ١٢: ٢). ويختبر شعب إسرائيل هذا الأمر بمرارة.

إن اختبار العجل الذهبي سيدفع موسى إلى تحطيم ألواح الشريعة، الأساس المكتوب للوصايا التي تلقاها من الله. تم نقش الوصايا العشر في البداية على الحجر، ثم تحولت بعد ذلك إلى غبار. إن غضب موسى سيثير بين الناس ما يشبه الصدمة الكهربائية، ومن المفارقات أن هذا سيؤدي إلى تسريع الوعي بالدور الفردي الذي يلعبه كل شخص في هذا التحالف. من التنظيم الجامد ستولد عملية تواصل داخلية.

وفي المرة الثانية، يكتب موسي بنفسه الكلمات العشر. لكن أولاً، ينشر إرادة الله شفويًا والتي تتضمن تغييرًا في الفكر وفي السلوك. يتم إيصال الشريعة في المقام الأول عن طريق الكلام ويتطلب الأمر تفسيرا بشريا. وهكذا تفتح الشريعة مجالا اجتماعيا يتفاعل به المجتمع. إنه يكسر الأيديولوجيات ويكشف التجاوزات الاستبدادية. ورغم أن الانحراف ممكن دائمًا، لكن هذا يعني انحرافًا أو تشويهًا عن أساسه الأصلي.

لا تحقيق للناموس دون الشركة مع الله، ولا شركة مع الله دون إتمام الشريعة.[١٨]

[١٨] ديتريش بونهوفر، ناخفولج، ص٩٨.

ومن هذا يمكن أن ينشأ خطآن رئيسيان: أ) الانفصال عن الله، أو ب) الإفراط في الناموسية:

أ) يضع الناموس مبادئ العدالة النابعة من طبيعة الله. لكن من خلال تنحية الله جانبًا، طوعًا أو مكرًا، يخاطر المرء بإساءة استخدام السلطة. ومن خلال مخالفة القواعد أو التحايل عليها، يمكن للأقوياء استغلال القانون لصالحهم على حساب الآخر والأضعف، وبالتالي، فإنهم يرفضون حقيقة وجود الخالق، الذي صنع جميع البشر متساوين. من خلال السماح لأنفسهم بالفساد أو من خلال رفض تطبيق العدل بشكل منصف، فإنهم يجعلون أنفسهم مذنبين تجاه الله نفسه، لأن الرب يقف إلى جانب أضعف الناس في المجتمع. إنه يدافع عمن هم في موقع الدونية؛ وخاصة الغريب أو الأرملة أو اليتيم. وهذا أحد الانتقادات الرئيسية التي كان يوجهها أنبياء العهد القديم للشعب.

ب) كان العكس من ذلك يحدث، من خلال المبالغة في تعقيد الشريعة، ومن خلال إدخال قواعد ووصايا فرعية لا تعزز بالضرورة من الشريعة الإلهية، بل تقوم بتشويهها وابعادها عن هدفها. نحن نتهرب من الهدف الذي أعطاه الله لنا وأراده، وذلك من خلال تعزيز السيطرة الاجتماعية للطبقة الغنية على بقية السكان. لقد تم وضع القانون ليضمن للإنسان مساحة من الحرية والتنمية المتناغمة وليس القمع. لقد سمح الخروج من مصر بالتحرر من كافة أشكال العبودية وتحرير الشعب المختار. وسيكون من الظلم استخدام الشريعة بغرض الاستعباد الجديد. هذا هو النقد الرئيسي الذي يوجهه يسوع ضد الفريسيين، خاصة فيما يتعلق بالسبت: "إن السبت جُعل من أجل الإنسان، لا الإنسان من أجل السبت." (مر ٢: ٢٧).

يوفر القانون مساحة فردية للإنجاز بالإضافة إلى مساحة للتنمية الاجتماعية. وهذا صحيح بشكل خاص في الوصيتين الثانية والرابعة: حظر تمثيل الله، وكذلك هبة السبت:

أ) صنع التماثيل أو الصور هو وسيلة لوضع الله في صندوق، لمحاولة السيطرة عليه. يرفض الله أن ينحصر في الصور المصنوعة من خلال أحكام مسبقة، تمامًا كما يرفض أن ينحصر في مخلوقاته أو أن يُخْتَزَل إلى مرتبة الأشياء المرغوبة. إن قبول الاختلاف يحررنا من كل أشكال الاستغلال. تتيح الشريعة رؤية كائن حر في مواجهة الله أو القريب، ويتيح إمكانية شراكة مقبولة بحرية. وهذا الاعتراف بالآخر يفتح مجالاً للحوار[١٩] ويسمح بالتعاطف.

ب) إن العمل مهم، لكنهما خلال السبت يفقد طابعه الاستعبادي. والراحة التي يطلبها الله تمنع الإنتاجية المفرطة. إنه ينبه إلى البعد الرأسي وإلى أن الخالق أخذ وقتًا للتأمل في خلقه في اليوم السابع. هذه الاستراحة الأسبوعية ليست في المقام الأول قاعدة إضافية، بل هي عطية مرتبطة بالكرم الإلهي. إن الراحة وتسبيح الرب هيما بشكل ما فرصة للروح أن تتنفس. وهذا يسمح بالاسترخاء والابتعاد الضروري عن كل ما يستعبدنا بشكل يومي.

"ثُمَّ تَكَلَّمَ ٱللهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ قَائِلًا: أَنَا ٱلرَّبُّ إِلَهُكَ ٱلَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ ٱلْعُبُودِيَّةِ. لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي ٱلسَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي ٱلْمَاءِ مِنْ تَحْتِ ٱلْأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ، لِأَنِّي أَنَا ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ إِلَهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ ٱلْآبَاءِ فِي ٱلْأَبْنَاءِ فِي ٱلْجِيلِ ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، وَأَصْنَعُ

[١٩] مثلما حدث في خلق الزوجين (تك ٢: ٢٣ث).

إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ." (خر ٢٠: ١-٦؛ تث٥: ٦).

ولذلك فإن الشريعة هي في المقام الأول عطية وهبة تجد أساسها في قصة التحرير من مصر. وطالما كان الناس مجبرين على إطاعة أوامر الحراس في أرض العبودية، فلم تكن لديهم الحرية الداخلية للاستماع إلى إلههم وخدمته. فقط ما إن وصلوا إلى الصحراء -وهي مساحة عذراء قاحلة- أن صار ذلك لهم ممكنًا، ويصبح لديهم استعدادًا داخليًا كافيًا لرؤية الرب وسماعه. ولهذا يجب عليهم أن يتطلعوا إلى الأمام وإلى الأعلى. بالتوجه نحو مستقبلهم، صار بإمكانهم أن يلمحوا أرض الميعاد. وطالما ظلوا يشعرون بالحنين إلى مصر، فإنهم سيظلون عبيداً، أسري أفكارها وعاداتها. وبدون الصحراء لن تكون هناك شريعة، وبدون الحركة لن يكون هناك وحي.

استمر موسي يقول للإسرائيليين: "فَٱحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوا كَمَا أَمَرَكُمُ ٱلرَّبُّ إِلَهُكُمْ. لَا تَزِيغُوا يَمِينًا وَلَا يَسَارًا. فِي جَمِيعِ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا ٱلرَّبُّ إِلَهُكُمْ تَسْلُكُونَ، لِكَيْ تَحْيَوْا وَيَكُونَ لَكُمْ خَيْرٌ وَتُطِيلُوا ٱلْأَيَّامَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي تَمْتَلِكُونَهَا." (تث ٥: ٣٢-٣٣).

بالنسبة لكثير من الناس، فإن الوصايا العشر تبدو مثل وصايا صارمة. إنهم يرون الله كحارس للنظام العالمي، وسيد متسلط وبعيد. ومع ذلك، فإن العكس هو الصحيح. إن الله مهتم بخير رعيته. فهو يوفر لهم مساحة للنمو والانفتاح المجتمعي. عندما يعطيهم قانونه، فهو يحميهم من أي إغراء للاستعباد ويضمن لكل فرد احترامًا لحياته. إن طاعة الله ووصاياه تحمي من الشر، وتطلق طاقات تساعد على إزهار السعادة.

"أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ. قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ ٱلْحَيَاةَ وَٱلْمَوْتَ. ٱلْبَرَكَةَ وَٱللَّعْنَةَ. فَٱخْتَرِ ٱلْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ، إِذْ تُحِبُّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ وَتَسْمَعُ لِصَوْتِهِ وَتَلْتَصِقُ بِهِ، لِأَنَّهُ هُوَ حَيَاتُكَ وَٱلَّذِي يُطِيلُ أَيَّامَكَ لِكَيْ تَسْكُنَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي حَلَفَ ٱلرَّبُّ لِآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا." (تث ٣٠: ١٩-٢٠).

(٦) المثابرة

إن الفشل أبو النجاح.[٢٠] النجاح هو السير من فشل إلى فشل مع الاحتفاظ بالحافز.[٢١]

كم مرة صرخنا إلى الله طالبين منه التدخل. ومع ذلك، يواصل الشر عمله في العالم، وتشتعل الحروب الظالمة، فيعاني بعض الناس أكثر مما ينبغي. إن بيئتنا تتدهور دون أن يكون من الممكن كسر هذه الحلقة المفرغة. فالاضطهاد، وخاصة ضد المسيحيين، يتزايد سنة بعد سنة بدلاً من أن يهدأ، فهل الله غائب؟ أين هو؟ لماذا يمكن أن نراه يعمل في حياتنا، ولكن ليس في العالم؟ وكما هو الحال مع العبرانيين، غالبًا ما تكون المثابرة في الإيمان صعبة عندما لا تكون الظروف مواتية. يذكرني هذا بالقصة التالية:

ذهب حاخام إلى السوق ليقوم بالتسوق. اكتشف خلف المنصة شخصية مألوفة، شخصية لم يقابلها هنا من قبل: الله شخصيًا. اقترب وسأله وقد انجذب إلى هذا الكشك الخاص جداً، "يا إلهي، ماذا تبيع في كشكك؟" فيجيب الله: "مرحبًا يا عزيزي، أنا أبيع أي شيء تريده". بدأ الحاخام، المتفاجئ، بسرد كل الرغبات التي تدور في

---

[٢٠] مَثَّل صيني.

[٢١] عن وينستون تشرشل.

رأسه: الحب، الفرح، السلام، السعادة... فيجيبه الله: "أعتقد أن هناك خطأ. هنا، لا أبيع الفواكه، فقط البذور ...."

لقد روى يسوع بنفسه عدة أمثال عن البذار: مِثْل مَثَل الزارع وحبة الخردل. تعبر كل هذه القصص عن جانب من ملكوت الله. البذور صغيرة وغير ذات أهمية وليس فيها ما يشير إلى النتيجة النهائية. ومع ذلك، فإنها جميعًا تحمل في داخلها القدرة على أن تصبح نباتًا أو شجرة. الله لا يبيع إلا البذور، والأمر متروك لنا لوضعها في الأرض وسقيها وجعلها تنمو. لكن قبل أن تصبح نباتًا جميلًا، يجب أن تموت البذرة في الأرض، ثم تنبت وتنمو وتعطي أوراقًا، حتى تأخذ المكانة المخصصة لها. يمكن أن تستمر لسنوات وتتطلب الكثير من المثابرة، لكن لتحقيق ذلك، يجب أن تمر بفترات من الجفاف، والعواصف العنيفة، والبرد، وتواجه الأمراض، وتتقبل أن تُداس أو أن تَرعيَ عليها الكائنات.

هكذا موقفنا نحن أيضًا في العالم؛ الله يعطينا الأدوات والبذور، فإذا زرعنا الكراهية أو العنف، فسوف يتبع ذلك انعدام الثقة والحرب. وعلى العكس من ذلك، إذا تصرفنا بمحبة واحترام، ستظهر الثمار الطيبة. الأمر متروك لنا لفعل الخير. ليس الله هو المسؤول عن سلوكنا البشري. والأمر نفسه مع العبرانيين؛ كم مرة كان عليهم أن يمروا بمواقف الفشل قبل أن يحققوا النجاحات الأولى؟ كم سنة احتاجتها هذه العائلات المفككة لتتحول إلى شعب متناغم وناجح؟

إن قصة الخروج من مصر وعبور الصحراء عبارة عن سلسلة متتالية من الحلقات الحاسمة المكونة من صعود وهبوط، وإخفاقات وانتصارات. إن الرب يقدم علامات لا حصر لها على حضوره وكرمه، ولكن من جانب الشعب، لدى المرء انطباع بأن الفشل هو السائد، فالناس يتذمرون فقط ويبحثون عن كبش فداء ويظهرون أنهم

غير قادرين على الدخول في علاقة ثقة مع إلههم، ويتولى موسى، قائدهم، مهمة شاقة بشكل خاص تتمثل في العمل كحزام ناقل بين طرفي التحالف. دعونا نتناول هذه الأحداث التي تشير إلى التقدم في الصحراء.

حلقة العجل الذهبي

"فَقَامَ مُوسَى وَيَشُوعُ خَادِمُهُ. وَصَعِدَ مُوسَى إِلَى جَبَلِ ٱللهِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَقَالَ لَهُمُ: ٱجْلِسُوا لَنَا هَهُنَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَيْكُمْ. وَهُوَذَا هَارُونُ وَحُورُ مَعَكُمْ. فَمَنْ كَانَ صَاحِبَ دَعْوَى فَلْيَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمَا. فَصَعِدَ مُوسَى إِلَى ٱلْجَبَلِ، فَغَطَّى ٱلسَّحَابُ ٱلْجَبَلَ، وَحَلَّ مَجْدُ ٱلرَّبِّ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ، وَغَطَّاهُ ٱلسَّحَابُ سِتَّةَ أَيَّامٍ. وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلسَّابِعِ دُعِيَ مُوسَى مِنْ وَسَطِ ٱلسَّحَابِ. وَكَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ ٱلرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ ٱلْجَبَلِ أَمَامَ عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَدَخَلَ مُوسَى فِي وَسَطِ ٱلسَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى ٱلْجَبَلِ. وَكَانَ مُوسَى فِي ٱلْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً." (خر ٢٤: ١٣-١٨).

يكفي أن يغيب موسى قليلًا حتى يعود الشعب إلى عاداته القديمة. إن الأربعين يومًا على الجبل، التي يحاور خلالها موسى إلهه ويتلقى التعليمات بين يديه، تبدو كأنها قد طالت أكثر من اللازم. يعجز هارون عن احتواء نفاد صبر الرجال والنساء المبْتَلِون بالشك والغارقين في حالة من النكوص والتراجع. من دون قائدهم الحازم والمُلهِم، فإنهم يقعون مرة أخرى في حبائل مصر. فمهما رأوا السحابة، وسمعوا الرعود، وتغذوا على المن، تصبح معجزات الله مع كل ذلك بالنسبة لهم أمراً اعتياديًا. ألا نتصرف نحن مثلهم في كثير من الأحيان؟

"وَلَمَّا رَأَى ٱلشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي ٱلنُّزُولِ مِنَ ٱلْجَبَلِ، ٱجْتَمَعَ ٱلشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ ٱصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لِأَنَّ

هَـذَا مُوسَـى ٱلرَّجُـلَ ٱلَّـذِي أَصْـعَدَنَا مِـنْ أَرْضِ مِصْـرَ، لَا نَعْلَـمُ مَـاذَا أَصَابَهُ. فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: ٱنْزِعُوا أَقْرَاطَ ٱلذَّهَبِ ٱلَّتِي فِـي آذَانِ نِسَـائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَآتُونِي بِهَا." (خر ٣٢: ١).

هل لكل الأمم آلهة يمكنهم أن يروها ويلمسوها ويأخذوها معهم، باستثناء العبرانيين؟ كلما مر وقت أطول، كلما زاد إغراء الانضمام إلى صفوف الأمم، فليس من السهل أن تكون مختلفًا عن الآخرين. لا أحدُ يحب أن يبرز من بين الحشود. إن المرور دون أن يلاحظنا أحد له العديد من المزايا، لأن السباحة مع التيار العام أكثر طمأنينة، خاصة عندما تجد نفسك منعزلاً في الصحراء. إن كونك شعبًا مختارًا أو أن تصبح هكذا، يتطلب التضحية بالنفس والانضباط والوقت.

يجد هارون نفسه في مواجهة كتلة من الأشخاص المشوشين الذين يحتاجون إلى توجيه. ثم يحاول كسب الوقت لتجنب أعمال الشغب. ألم يقل موسى نفسه أنه ينبغي التكلم مع أخيه في غيابه؟ من المؤكد أن هارون يثق بأخيه. إنه يعلم أن موسى سيعود، لكنه في هذه اللحظة يجد نفسه عاجزًا ويبحث عن حلٍ خاص. علاوة على ذلك، لم يَدن النص الكتابي هارون في أي وقت من الأوقات بسبب تصرفاته. ولن يكون مذنباً في حادثة العجل الذهبي. وهذا يعني ضمنيًا أن الناس قد دفعوه إلى أقصى الحدود. أما هو، فكان يحاول أن يتفاهم مع الشعب بالعقل وأن يجعلهم يتجاوبون معه.

من الممكن اعتبار محاولة إلزام النساء بالتخلص من زينتهن وأموالهن وسيلة لإيقاظهن من سباتهن وكسب الوقت لعلهم ينسون أمر العجل الذهبي. لكن لا يبدو أن هذه المماطلة تأتي بثمار، لأن النساء يمتثلن دون تذمر ويتركهن أزواجهن يفعلن ذلك دون ممانعة. فشل هارون في محاولته الأولي. ثم قام بإذابة هذه الأشياء وتحويلها إلى شكل يمكن التعرف عليه. وهذا مرة أخرى يستغرق وقتًا ويبين خبرته ومعرفته. لكن على عكس الآلهة المصرية، فإن هارون لا

يصنع ثورًا، بل عجلًا. لذلك، ربما كان كائنًا زخرفيًا أكثر من كونه صنمًا على شكل تمثال كامل.

"فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِٱلْإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلًا مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هَـذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ ٱلَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ." (خر ٣٢: ٤).

يبدو هارون مندهشًا من أن الناس بدأوا يخلطون بين العجل والإله الحقيقي ومخلصهم من أرض مصر. لذلك أسرع ببناء مذبح بجانب العجل الذهبي حسب تعليمات الرب. وهكذا يسعى مرة ثانية إلى صرف انتباههم عن العجل وتركيز عبادة الشعب على الإله الحقيقي. علاوة على ذلك، فهو يؤجل الاحتفال إلى اليوم التالي، وكأن الأمر لا يزال مسألة كسب الوقت. مخططه عبقري، ولكن في النهاية، لا ينخدع أحد. لذا لن يُدان هارون، بل الشعب هو من سيُدان.

لقد حذر الله موسى مما يحدث، فيظن موسى أنه يسمع من بعيد أصوات حرب، لكنها ليست كذلك. هذه هي صرخات الابتهاج. وبدلًا من الحداد على قائدهم الذي طال غيابه، فقد أطلق العبرانيون العنان واحتفلوا. لقد طفح الكيل؛ إنهم لا يخالفون القواعد التي أعطاها موسى فحسب، بل يستهزئون بشريعة الله. إذا تمكن موسى من احتواء غضب الله، فلن يتمكن من احتواء عواطفه الشخصية مرة واحدة أمام التمثال. يلقي موسى الألواح الحجرية التي أخذها من يدي الله ويكسرها. وأما العجل الذهبي فيحوله إلى تراب، ثم يسقيهم الماء الذي وضع فيه الباقي. لقد أدرك موسي أن هارون سمح للشعب أن يفعلوا ما يريدون (خر ٣٢: ٢٥)، ومع ذلك فإنه سيأمر اللاويين بتطهير الشعب.

"فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ ٱلرَّبِّ إِلَهِهِ، وَقَالَ: «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ ٱلَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ

شَدِيدَةٍ؟ لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ ٱلْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي ٱلْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ ٱلأَرْضِ؟ اِرْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَٱنْدَمْ عَلَى ٱلشَّرِّ بِشَعْبِكَ. اُذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ ٱلَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ ٱلسَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هَذِهِ ٱلأَرْضِ ٱلَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى ٱلأَبَدِ. فَنَدِمَ ٱلرَّبُّ عَلَى ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ." (خر ٣٢: ١١-١٤).

تمثل هذه الحادثة لحظة تتوقف عندها القصة. فهذه هي اللحظة التي تتباري فيها الشريعة باعتبارها عطية إلهية أفضل من أي شيء، مع أسوأ شيء، أي الخطيئة في أبشع صورها. لحسن الحظ، يكون رد فعل موسى هو تصرف قائد حقيقي وليس مثل هارون (الآية ٢٢) الذي يتنصل من المسؤولية ويلقي بها على الشعب، مثل آدم من قبله، عندما عرضت عليه زوجته الثمرة المحرمة.

ويبدو أن العبرانيين قد فهموا الدرس. إنهم يتخلون بشكل نهائي عن ملابس الاحتفال (الآية ٦)، ويأخذون الخيمة المقدسة خارج المحلة، لأنهم يفهمون أن المكان قد ُدنس. عندها يمكن تقديسها مرة أخرى واستعادة وظيفتها كخيمة الاجتماع مع الله (الآية ٧). علاوة على ذلك، فهي اللحظة التي يغير فيها يشوع من مكانته، ويتحول من زعيم قبلي بسيط إلى مساعد معين لموسى، ليحل محله على رأس الشعب عندما يحين الوقت.

" فَقَالَ لَهُ: إِنْ لَمْ يَسِرْ وَجْهُكَ فَلاَ تُصْعِدْنَا مِنْ هَهُنَا، فَإِنَّهُ بِمَاذَا يُعْلَمُ أَنِّي وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ أَنَا وَشَعْبُكَ؟ أَلَيْسَ بِمَسِيرِكَ مَعَنَا؟ فَنَمْتَازَ أَنَا وَشَعْبُكَ عَنْ جَمِيعِ ٱلشُّعُوبِ ٱلَّذِينَ عَلَى وَجْهِ ٱلأَرْضِ. فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: هَذَا ٱلأَمْرُ أَيْضًا ٱلَّذِي تَكَلَّمْتَ عَنْهُ أَفْعَلُهُ، لأَنَّكَ وَجَدْتَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيَّ، وَعَرَفْتُكَ بِٱسْمِكَ." (خر ٣٣: ١٥-١٧).

كان رد فعل الرب يشبه رد فعل الإنسان تقريبًا: فقد رقَّ قلبه بكلمات موسى. على عكس آلهة الأمم الأخرى التي لا تتفاعل، يُظهِرُ إله إسرائيل مشاعره، أحيانًا بالغضب، وأحيانًا بالرحمة. إنه مستعد أن يغفر للبشر، عالمًا أنهم خطاة وقساة. ثم يعود موسى إلى أعلى الجبل ليعيد العلاقة مع الله وينقش لوحي الشريعة بنفسه. لكن هذه المرة ينتظر الناس عودته دون صعوبة. في حالة من الراحة في محضر الرب، يتحول موسي بمجد إلهه: فقد بدأ وجهه يلمع ويصبح مضطرًا أن يغطي وجهه حتى لا يصدم الشعب.

أتذكر تجربة مررت بها عندما كنت في الثلاثين من عمري. كنت قد أمضيت للتو أسبوعًا من الخلوة الروحية حيث قضينا عدة أيام في الصلاة لبعضنا البعض. على الصعيد العاطفي، كنت أعيش لحظة من التساؤل العميق والشك. لكن لحظات الصلاة التي قضيناها مع الله كانت مكثفة وقوية. في نهاية هذا اللقاء وجهًا لوجه مع الله، أشرقت وجوهنا لدرجة أنني شعرت بالحاجة إلى تغطية وجهي، وشعرت كما لو كنت مثل موسي، وكنت أواجه صعوبة كبيرة في النزول من الجبل للقيام بأنشطتي اليومية.

"فَقَالَ: هَا أَنَا قَاطِعٌ عَهْدًا. قُدَّامَ جَمِيعِ شَعْبِكَ أَفْعَلُ عَجَائِبَ لَمْ تُخْلَقْ فِي كُلِّ ٱلْأَرْضِ وَفِي جَمِيعِ ٱلْأُمَمِ، فَيَرَى جَمِيعُ ٱلشَّعْبِ ٱلَّذِي أَنْتَ فِي وَسَطِهِ فِعْلَ ٱلرَّبِّ. إِنَّ ٱلَّذِي أَنَا فَاعِلُهُ مَعَكَ رهيبٌ." (خر ٣٤: ١٠).

حلقة المستكشفين

لقد مرَّ أكثر من عام على الرحيل الكبير عن مصر. بمجرد وضع جميع التعليمات والشرائع، انطلق الشعب مرة أخرى بتوجيه من إلههم (عد ١٣: ١٠)، وارتبطوا بحوباب، ابن عم موسى المدياني والخبير الكبير في الصحراء (عد ١٠: ٣١). انطلق الشعب، لكنهم

بدأوا مرة أخرى في التذمر من ظروفهم المعيشية، لدرجة أن موسى يئس بشدة وطلب من الله أن يضع حدًا لحياته.

على الرغم من غضبه، أرسل الله كمية كبيرة من السلوى في كيبروث أيضًا كعربون لكرمه ممَّا جعل الناس يخزنونها طوال الشهر حتى اشمأزوا منها (عد ١١: ٢٠). كعلامة ثانية، ولتخفيف العبء الواقع على أكتاف موسى، قرر الله أن ينقل إلى سبعين شيخًا من إسرائيل جزءًا من الروح الذي في موسى، وبعد تقاسم المسؤوليات المتعلقة بإدارة جيدة، قرر الله أن يدعو من وسط الشعب أشخاصاً من خلال ربطهم أيضًا بالبعد الروحي والنبوي، لكن لسوء الحظ، فإن هذا لا يحل جميع المشاكل.

في نهاية السنة الثانية من رحلة الصحراء، يقترب الناس من أرض الموعد فيقرر موسى إرسال اثني عشر قائدًا ككشافة. ولا يوجد ما يشير إلى أن المهمة كانت سرية أو أن لها أي طابعاً عسكرياً. إنهم لا يذهبون للتجسس، بل للمراقبة. الهدف هو تحقيق الوعد الإلهي. علاوة على ذلك، لن يشعروا بالقلق بأي شكل من الأشكال أثناء رحلتهم. بل يبدو أن موسى يريد بهذا أن يحفز الأسباط على المغامرة ومغادرة الصحراء وامتلاك الأرض التي وُعِدُوا بها.

"ثُمَّ كَلَّمَ ٱلرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: أَرْسِلْ رِجَالًا لِيَتَجَسَّسُوا أَرْضَ كَنْعَانَ ٱلَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. رَجُلًا وَاحِدًا لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ آبَائِهِ تُرْسِلُونَ. كُلُّ وَاحِدٍ رَئِيسٌ فِيهِمْ. فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى لِيَتَجَسَّسُوا أَرْضَ كَنْعَانَ، وَقَالَ لَهُمُ: ٱصْعَدُوا مِنْ هُنَا إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَٱطْلَعُوا إِلَى ٱلْجَبَلِ، وَٱنْظُرُوا ٱلْأَرْضَ، مَا هِيَ: وَٱلشَّعْبَ ٱلسَّاكِنَ فِيهَا، أَقَوِيٌّ هُوَ أَمْ ضَعِيفٌ؟ قَلِيلٌ أَمْ كَثِيرٌ؟ وَكَيْفَ هِيَ ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي هُوَ سَاكِنٌ فِيهَا، أَجَيِّدَةٌ أَمْ رَدِيَّةٌ؟ وَمَا هِيَ ٱلْمُدُنُ ٱلَّتِي هُوَ سَاكِنٌ فِيهَا، أَمُخَيَّمَاتٌ أَمْ حُصُونٌ؟ وَكَيْفَ هِيَ ٱلْأَرْضُ، أَسَمِينَةٌ أَمْ هَزِيلَةٌ؟ أَفِيهَا شَجَرٌ أَمْ لَا؟ وَتَشَدَّدُوا فَخُذُوا مِنْ ثَمَرِ ٱلْأَرْضِ». وَأَمَّا ٱلْأَيَّامُ فَكَانَتْ أَيَّامَ بَاكُورَاتِ ٱلْعِنَبِ.

فَصَعِدُوا وَتَجَسَّسُوا ٱلْأَرْضَ مِنْ بَرِّيَّةِ صِينَ إِلَى رَحُوبَ فِي مَدْخَلِ حَمَاةَ." (عد ١٣: ١، ١٧-٢٠).

على عكس الصحراء التي سافروا عبرها، فإن المنطقة التي تم استكشافها كانت مأهولة بالفعل. ولذلك فكان الأمر يتعلق بالاستعداد لمواجهة الاختبار النهائي. كان الهدف هو أن يتغلب العبرانيون على مخاوفهم (الآية ٢٠) وأن يعتبروا لصلاح الله. إن الرسالة موجهة بالدرجة الأولى للأسباط وليس لموسى. وتمر الرحلة بمدينة الخليل، مكان قبر البطاركة. بعد هذا الحج، يقطع المستكشفون البلاد لمدة أربعين يومًا. يقومون بتجميع الحد الأقصى من الخبرات ويحضرون معهم عينات رائعة من الفاكهة. عند عودتهم، يؤكدون أن البلد يتوافق جيدًا مع الوصف الذي تم تلقيه لأرض الموعد. لكن مع ذلك يراودهم الشك.

"وَأَخْبَرُوهُ وَقَالُوا: قَدْ ذَهَبْنَا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَرْسَلْتَنَا إِلَيْهَا، وَحَقًّا إِنَّهَا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، وَهَذَا ثَمَرُهَا. غَيْرَ أَنَّ ٱلشَّعْبَ ٱلسَّاكِنَ فِي ٱلْأَرْضِ مُعْتَزٌّ، وَٱلْمُدُنُ حَصِينَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا. وَأَيْضًا قَدْ رَأَيْنَا بَنِي عَنَاقَ هُنَاكَ." (عد ١٣: ٢٧).

من أصل اثني عشر مسئولاً تصدر انتقادات جادة من بين عشرة منهم يزرعون من خلالها الشك بين الناس. يتحول التقرير المتحمس إلى خطاب محبط. وبدلًا من تقديم التقارير إلى قبيلتهم وحدها، يواجهون الجماعة بأكملها. عندها يرتعد الناس ويتركون الشك يجرفهم. لكن كالب ويشوع وحدهما لا يشتركان في الرأي السائد. إنهما لا يبنيان رأيهما على الانطباعات، بل على الوعد الإلهي. ولسوء الحظ، فقد تم تهميشهما، على الرغم من الكلمات القوية والمتحمسة التي قيلت بشكل خاص.

"لَكِنْ كَالِبُ أَنْصَتَ ٱلشَّعْبَ إِلَى مُوسَى وَقَالَ: «إِنَّنَا نَصْعَدُ وَنَمْتَلِكُهَا لِأَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَيْهَا». وَأَمَّا ٱلرِّجَالُ ٱلَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ فَقَالُوا: «لَا نَقْدِرْ أَنْ نَصْعَدَ إِلَى ٱلشَّعْبِ، لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَّا. فَأَشَاعُوا مَذَمَّةَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي تَجَسَّسُوهَا، فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا هِيَ أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا، وَجَمِيعُ ٱلشَّعْبِ ٱلَّذِي رَأَيْنَا فِيهَا أُنَاسٌ طِوَالُ ٱلْقَامَةِ. وَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ ٱلْجَبَابِرَةَ، بَنِي عَنَاقٍ مِنَ ٱلْجَبَابِرَةِ. فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَٱلْجَرَادِ، وَهَكَذَا كُنَّا فِي أَعْيُنِهِمِ.»" (عد١٣: ٣٠-٣٣).

هذا النص يوضح قوة الكلمات، فبمقدورها أن تُحَفِّزَ أو أن تثبط العمل تمامًا. إن الكلمة الإلهية، وكذلك الوعد المرتبط بها، يتعارضان مع الأقوال غير العادلة والتي لا تخلو من الافتراء. فمن ناحية، هناك من يعتمد على الرؤية الإيمانية، ومن ناحية أخرى، هناك من يركز على ما يراه ويدركه من الواقع. ولسوء الحظ، فإنهم ينظرون في المقام الأول إلى الكنعانيين على أنهم تهديد. إنهم يعتبرون أنفسهم جرادًا يواجه عمالقة متخيلين. إنه للأسف انطباع مؤسف، سوف يكلفهم غاليًا. في الواقع، فإن الخوف هو دائمًا مستشار سيئ.

"فَرَفَعَتْ كُلُّ ٱلْجَمَاعَةِ صَوْتَهَا وَصَرَخَتْ، وَبَكَى ٱلشَّعْبُ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ. وَتَذَمَّرَ عَلَى مُوسَى وَعَلَى هَارُونَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ لَهُمَا كُلُّ ٱلْجَمَاعَةِ: لَيْتَنَا مُتْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَوْ لَيْتَنَا مُتْنَا فِي هَذَا ٱلْقَفْرِ! لِمَاذَا أَتَى بِنَا ٱلرَّبُّ إِلَى هَذِهِ ٱلْأَرْضِ لِنَسْقُطَ بِٱلسَّيْفِ؟ تَصِيرُ نِسَاؤُنَا وَأَطْفَالُنَا غَنِيمَةً. أَلَيْسَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مِصْرَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نُقِيمُ رَئِيسًا وَنَرْجِعُ إِلَى مِصْرَ." (عد ١٤: ١-٤).

إن المرء ليري في موقفهم خيبة أمل كبيرة. ما كان يمكن أن يكون نهاية الكابوس الذي عاشه الشعب في الصحراء، يتحول إلى حلقة من الرثاء والبكاء. ومرة أخرى، فإنهم يضعون اللوم على موسى وهارون وليس على حاملي الأخبار السيئة. المعادلة مزدوجة السلبية: إما أن تموت في المعركة أو تموت في الصحراء، وفي كلا الحالتين

هناك الموت. فما هو البديل؟ اهي العودة إلى مصر. حقًا؟ ثم يتبع ذلك دفاع طويل من يشوع وكالب ومحاولة لإقناع الشعب، لكن لم يعد أحد يستمع إليهما، لأن الشعب لم يعد له آذان. بل على العكس، يُثار حديث عن فكرة إزالة موسى وحتى القضاء على يشوع وكالب برجمهم بالحجارة. لكنهم لا ينجون من هذا الموقف العصيب إلا بتدخل من الله نفسه الذي يُظهر مجده.

"وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ، مِنَ ٱلَّذِينَ تَجَسَّسُوا ٱلْأَرْضَ، مَزَّقَا ثِيَابَهُمَا وَكَلَّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا ٱلأَرْضُ جَيِّدَةٌ جِدًّا جِدًّا. إِنْ سُرَّ بِنَا ٱلرَّبُّ يُدْخِلُنَا إِلَى هَذِهِ ٱلْأَرْضِ وَيُعْطِينَا إِيَّاهَا، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا. إِنَّمَا لَا تَتَمَرَّدُوا عَلَى ٱلرَّبِّ، وَلَا تَخَافُوا مِنْ شَعْبِ ٱلْأَرْضِ لِأَنَّهُمْ خُبْزُنَا. قَدْ زَالَ عَنْهُمْ ظِلُّهُمْ، وَٱلرَّبُّ مَعَنَا. لَا تَخَافُوهُمْ... وَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: حَتَّى مَتَى يُهِينُنِي هَذَا ٱلشَّعْبُ؟ وَحَتَّى مَتَى لَا يُصَدِّقُونَنِي بِجَمِيعِ ٱلْآيَاتِ ٱلَّتِي عَمِلْتُ فِي وَسَطِهِمْ؟" (عد ١٤: ٦-٩، ١١).

ينجح موسى مرة أخرى في منع العقوبة الإلهية وينال المغفرة لهم. من جهته، يشعر الشعب بالندم الشديد على قراره. ولكن الأوان قد فات لعكس الوضع واستعادة الثقة لدى الجانبين. من الواضح أن العبرانيين ليسوا مستعدين بعد لدخول أرض الموعد. لقد عادوا إلى المربع صفر، وما كان يخشاه الشعب على وشك أن يتحقق: أنهم سيموتون في الصحراء. إن المحاولة اليائسة للشروع في غزو عسكري رغم كل شيء، دون دعم موسى ودون موافقة إلهية، يتبين أنها مدمرة، والهزيمة ستكون أكثر مرارة. السبيل الوحيد للخروج هو العودة إلى الصحراء. فقط الأطفال، مع يشوع وكالب، سيدخلون أرض الموعد عندما تنعدم الثقة، يكون محكومًا على جميع العلاقات بالفشل. إن الشعب العبري، الذي عانى من عقود من سوء المعاملة والقمع في مصر، ليس مستعدًا بعد للتخلص مما ترسب في أعماقه أو أن يثق في إلهه. يُقال إن تغيير الهيكل التنظيمي يستغرق ليلة واحدة

فقط، ولكن تغيير الثقافة المشتركة يستغرق جيلًا كاملًا. بالنسبة للعبرانيين، كان الدخول إلى كنعان سابقًا لأوانه. لن تكون الأربعون سنة أكثر مما يلزم لتوحيدهم في مشروع مشترك خلف قائدهم. سيكون عليهم مراراً وتكراراً أن يختبروا صدق كلمة الله.

"وَأَمَّا أَطْفَالُكُمُ ٱلَّذِينَ قُلْتُمْ يَكُونُونَ غَنِيمَةً فَإِنِّي سَأُدْخِلُهُمْ، فَيَعْرِفُونَ ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي ٱحْتَقَرْتُمُوهَا. فَجُثَثُكُمْ أَنْتُمْ تَسْقُطُ فِي هَذَا ٱلْقَفْرِ، وَبَنُوكُمْ يَكُونُونَ رُعَاةً فِي ٱلْقَفْرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيَحْمِلُونَ فُجُورَكُمْ حَتَّى تَفْنَى جُثَثُكُمْ فِي ٱلْقَفْرِ." (عد ١٤: ٣١- ٣٣).

بالنسبة لليهودية، يتم تمييز ليلة ٩ آب (التقويم اليهودي) بحجر أسود. إنها، بحسب التلمود، أسوأ ليلة في تاريخ إسرائيل.[٢٢] في الواقع، في نفس هذا التاريخ، بعد عدة قرون، سيتم تدمير الهيكل الأول والثاني. باختصار: أ) حوالي ١٢٥٠ قبل الميلاد، يرفض الناس الانطلاق لغزو أرض الموعد. ب) في نفس اليوم عام ٥٨٧ ق.م.، يحدث تدمير القدس على يد الملك البابلي نبوخذ نصر. وهذه بداية السبي لجزء كبير من الأسر المتعلمة. ج) في نفس التاريخ من سنة ٧٠ م.، يحدث تدمير القدس على يد الإمبراطور الروماني تيطس.

ماذا عن حياتنا؟ ألم نواجه إخفاقات مماثلة؟ في حين أن الحدس يوحي إلينا بالتزامٍ ما للقيام به أو بعملٍ ما ينبغي أن نؤديه، فنتخلى عن أداء ذلك تحت أي مسمي. وبعد ذلك ندرك أنه كان خطأ ونأسف عليه بشدة. غالبًا ما يكون ذلك ثمرة للمخرب الداخلي لدينا، وهو صوت صغير يشكك بلا هوادة في قدراتنا ويقوض إرادتنا. يقول لنا الرب: اذهبوا إلى العَبْرِ. لكننا ننظر إلى الظروف. نركز أعيننا على الطقس، وارتفاع الأمواج، أو إلى ما سيقوله الناس عنا. في الواقع،

[٢٢] دراي، ص٢٢٤.

هناك أسباب كثيرة للشك في كلمته. من الأسهل كثيرًا أن تصمت في وجه الظلم، وأن تجلس في كرسيك المريح، بدلًا من مواجهة العاصفة والدخول، ربما، في نتائجها. ماذا لو طلب منا الله أن نخرج من منطقة راحتنا وأن نخطو خطوات شجاعة نحو المجهول؟

حلقة تمرد قورح

"وَأَخَذَ قُورَحُ بْنُ يِصْهَارَ بْنِ قَهَاتَ بْنِ لَاوِي، وَدَاثَانُ وَأَبِيرَامُ ٱبْنَا أَلِيآبَ، وَأُونُ بْنُ فَالَتَ، بَنُو رَأُوبَيْنَ، يُقَاوِمُونَ مُوسَى مَعَ أُنَاسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ رُؤَسَاءِ ٱلْجَمَاعَةِ مَدْعُوِّينَ لِلِاجْتِمَاعِ ذَوِي ٱسْمٍ. فَٱجْتَمَعُوا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالُوا لَهُمَا: «كَفَاكُمَا! إِنَّ كُلَّ ٱلْجَمَاعَةِ بِأَسْرِهَا مُقَدَّسَةٌ وَفِي وَسَطِهَا ٱلرَّبُّ. فَمَا بَالُكُمَا تَرْتَفِعَانِ عَلَى جَمَاعَةِ ٱلرَّبِّ؟" (عد ١٦: ١-٣).

ثم تظهر محنة جديدة، ومحاولة جديدة للتمرد ضد القادة التاريخيين. إننا نجد أنفسنا في الوضع الكلاسيكي لأزمة الأجيال في البحث عن السلطة. يحاول الشباب إزاحة التسلسل الهرمي الذي يشيخ جانبًا، دون الأخذ بعين الاعتبار حكم الرب. وموسى يعرف ذلك جيدًا، ولا يطالب بأي موقف معين. إن واجبات القائد التي يمارسها، وواجبات أخيه هارون كرئيس كهنة، ثقيلة التحمل، وكان لأكثر من مرة يفضل التخلي عن هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر. لكن الله وحده هو الذي يقرر هذا الأمر. وبما أن الأمر يتعلق بأناس هم من سبط لاوي، المكلفين بالخدمة الإلهية، فإن التجربة تحدث أثناء طقس ديني يتم فيه إصعاد البخور في مجامر كجزء من الصلاة والعبادة.

"وَقَالَ مُوسَى لِقُورَحَ: «ٱسْمَعُوا يَا بَنِي لَاوِي. أَقَلِيلٌ عَلَيْكُمْ أَنَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ أَفْرَزَكُمْ مِنْ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ لِيُقَرِّبَكُمْ إِلَيْهِ لِكَيْ تَعْمَلُوا خِدْمَةَ مَسْكَنِ ٱلرَّبِّ، وَتَقِفُوا قُدَّامَ ٱلْجَمَاعَةِ لِخِدْمَتِهَا؟ فَقَرَّبَكَ وَجَمِيعَ إِخْوَتِكَ

بَنِي لَاوِي مَعَكَ، وَتَطْلُبُونَ أَيْضًا كَهَنُوتًا! إِذنْ أَنْتَ وَكُلُّ جَمَاعَتِكَ مُتَّفِقُونَ عَلَى ٱلرَّبِّ. وَأَمَّا هَارُونُ فَمَا هُوَ حَتَّى تَتَذَمَّرُوا عَلَيْهِ؟" (عد١٦: ٨-١١).

لكن الجزاء الإلهي يأتي فوريًا وغير قابل للاستئناف. فالمغتصبون سرعان ما ينكشفون. يُظهِر يهوه الرب ذاته، وتنشق الأرض من تحت أقدام المتآمرين وتبتلعهم: فينحدرون أحياء إلى الهاوية وتبتلعهم الأرض (ع ١٦، ٣٣). لا يلعب المرء بالنار دون عقاب في وسط الشعب المختار. لقد خلط قورح بين المسؤولية والسلطة، وكان يود تغيير ميزان القوى من خلال جعل الشريعة أكثر تسامحاً من أجل مصلحته الشخصية. لكن الرب الذي يقود الشعب حقًا هو إله قدوس. عندما يرغب المرء في أن يوكل لنفسه بالقوة وظيفة غير مخصصة له، فإن هذا يؤدي عمومًا إلى الفشل. في السير مع الله، يجب علينا أن ننتظره. هو الذي يفتح الأبواب أو يغلقها عندما يحين الوقت وأحيانا قد يستغرق هذا الأمر وقتًا.

إن القصة لا تنتهي عند هذا الحد. ويستمر الاحتجاج، حيث إن التذمر والاحتجاج متجذران بين الشعب. يهدد الله مرة أخرى بتنفيذ إبادة عامة، والتي تمكن موسى من منعها. لكن الطاعون انتشر وقتل في النهاية ١٤٧٠ شخصًا (عد ١٧: ١٤). ثم، من خلال آية جديدة، يضع الله الجميع في مكانهم. إذ يتم دعوة زعماء القبائل ليضعوا حتى اليوم التالي في خيمة الاجتماع، عصا، هي علامة السلطة، محفورة بأسمائهم، وكان الحكم الذي بلا استئناف هو: أن العصا الوحيدة التي أخرجت برعمًا وزهرة هي عصا هارون. وهكذا تتحدد المسؤوليات مرة واحدة وإلى الأبد فيما يتعلق بالخدمة الإلهية.

حلقة مياه مريبة

"وَخَاصَمَ ٱلشَّعْبُ مُوسَى وَكَلَّمُوهُ قَائِلِينَ: «لَيْتَنَا فَنِينَا فَنَاءَ إِخْوَتِنَا أَمَامَ ٱلرَّبِّ. لِمَاذَا أَتَيْتُمَا بِجَمَاعَةِ ٱلرَّبِّ إِلَى هَذِهِ ٱلْبَرِّيَّةِ لِكَيْ نَمُوتَ فِيهَا نَحْنُ وَمَوَاشِينَا؟ وَلِمَاذَا أَصْعَدْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِتَأْتِيَا بِنَا إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ ٱلرَّدِيءِ؟ لَيْسَ هُوَ مَكَانَ زَرْعٍ وَتِينٍ وَكَرْمٍ وَرُمَّانٍ، وَلَا فِيهِ مَاءٌ لِلشُّرْبِ!»" (عد ٢٠: ٣-٥).

أثارت الميتة الطبيعية لأخت موسى وهارون في البرية جدلاً جديداً. فمريم[٢٣] التي كانت ترمز إلى مصدر الماء الحي والتسبيح النبوي، لم تعد موجودة، مما يترك فراغًا ثقيلَ الوقع. ومرة أخرى يفتقر الناس إلى المياه وتظهر الاتهامات المتبادلة المعتادة[٢٤]، فبدون ماء لا يمكن سقي القطعان أو حتى ممارسة طقوس التطهير.

مرة أخرى، يتم وضع موسى وهارون في مرمي النيران، وعليهم أن يتدخلوا ويطلبوا العون من الله. وهذا الأخير يعطي تعليماته دون عتاب. أما موسى، وكما سبق أن أوضحنا سابقًا، فيبدو منزعجًا وعصبياً من هذا الخلاف الجديد بين بني إسرائيل. إنه يتصرف عادة بهدوء شديد، ورأسه مرتاح، لكنه يبدو وكأنه يفقد صبره ويرى نفسه مدفوعًا إلى ارتكاب الخطأ. بدلًا من الدخول بهدوء في حوار مع الشعب، ثم التحدث ببساطة إلى الصخرة ليخرج منها الماء، ينجرف موسى بعيدًا وينفعل جداً، ويضرب الصخرة مرتين على التوالي. الأمر الذي سيكون قاتلًا له: إن الله يحمل عليه هذا التصرف كما لو كان قد ارتكب خطأً خطيرًا. لن يدخل هو ولا هارون إلى أرض الموعد. بل ستنتهي رحلتهم بالقرب من نهر الأردن.

---

[٢٣] راجِع: الفصل الثالث، الفقرة الثالثة.

[٢٤] راجِع أيضًا: (خر ١٤: ١؛ ١٦: ٣؛ عد ١٤: ٢٠؛ ٢١: ٥).

"وَرَفَعَ مُوسَى يَدَهُ وَضَرَبَ ٱلصَّخْرَةَ بِعَصَاهُ مَرَّتَيْنِ، فَخَرَجَ مَاءٌ غَزِيرٌ، فَشَرِبَتِ ٱلْجَمَاعَةُ وَمَوَاشِيهَا. فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِذَلِكَ لَا تُدْخِلَانِ هَذِهِ ٱلْجَمَاعَةَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا.»" (عد٢٠: ١١).

تبدو العقوبة ثقيلة للغاية بالنسبة لثورة بسيطة. ألم يمنع موسى، في عدة مناسبات، الله من فعل الأسوأ من خلال القضاء على الشعب بأكمله؟ في هذه الحالة، بدلًا من توحيد العبرانيين خلف العصا، علامة السُلطة، فقد أساء استخدامها. وهذا ما يوحي به النص بذكر أن كمية كبيرة من الماء تتدفق من الصخرة. يقبل موسى هذا الحكم دون اعتراض. ليكن هذا درسًا لنا في التواضع: عندما يعمل الله، دعونا نعرف كيف نصغي إليه.

حلقة الحيَّات المُحرِقَة

"وَأَرْسَلَ مُوسَى رُسُلًا مِنْ قَادَشَ إِلَى مَلِكِ أَدُومَ: «هَكَذَا يَقُولُ أَخُوكَ إِسْرَائِيلُ: قَدْ عَرَفْتَ كُلَّ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلَّتِي أَصَابَتْنَا... دَعْنَا نَمُرَّ فِي أَرْضِكَ. لَا نَمُرُّ فِي حَقْلٍ وَلَا فِي كَرْمٍ، وَلَا نَشْرَبُ مَاءَ بِئْرٍ. فِي طَرِيقِ ٱلْمَلِكِ نَمْشِي، لَا نَمِيلُ يَمِينًا وَلَا يَسَارًا حَتَّى نَتَجَاوَزَ تُخُومَكَ». فَقَالَ لَهُ أَدُومُ: «لَا تَمُرُّ بِي لِئَلَّا أَخْرُجَ لِلِقَائِكَ بِٱلسَّيْفِ». فَقَالَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: «فِي ٱلسِّكَّةِ نَصْعَدُ، وَإِذَا شَرِبْنَا أَنَا وَمَوَاشِيَّ مِنْ مَائِكَ أَدْفَعُ ثَمَنَهُ. لَا شَيْءَ. أَمُرُّ بِرِجْلَيَّ فَقَطْ». فَقَالَ: «لَا تَمُرُّ». وَخَرَجَ أَدُومُ لِلِقَائِهِ بِشَعْبٍ غَفِيرٍ وَبِيَدٍ شَدِيدَةٍ." (عد٢٠: ١٤-١٧، ٢٠).

أخيرًا، يخرج الشعب من الصحراء. ومع ذلك، فهذه ليست نهاية التجارب. بل إن الأمر الآن يتعلق بالدخول إلى الأراضي المزروعة ومواجهة الشعوب المستوطنة فيها؛ سواء على طول نهر الأردن أو في وقت لاحق في كنعان. يتجنب موسى الصراع غير الضروري

مع المناطق التي يرغب في عبورها فقط، إذ كان يعلم بوضوح وجهته النهائية. إنه يعترف ويحترم سيادة وحدود تلك المناطق. لكن الملوك المعنيين لا يرون الأمر بهذه الطريقة. وحتى اقتراح موسي عليهم بإتباع المسار الرسمي بشكل صارم، أو تحمل كل التكاليف المصاحبة لمرور الناس، لا يحظى بموافقتهم.

من المؤسف أن المحاولات الدبلوماسية لم تأتي بنتيجة. كان يُنظر إلى العبرانيين بشكل واضح على أنهم تهديد من قبل السكان المحليين. مع الأدوميين وهي أول منطقة يحتاجون إلى عبورها، حاول موسى أن يجعل عبوره غير محسوس به. كان هؤلاء من نسل عيسو، وهو ابن عم بعيد. كان موسى يعتبرهم إخوة بالدم ولذلك يفضل تجاوز أراضيهم. باتجاه الشمال، لم يكن ملك عراد أكثر تسامحاً، فهو لا ينتظر وصول المفاوضين ليهاجم العبرانيين، مما يجبرهم على الدفاع عن أنفسهم. في هذه المناسبة، يخاطب العبرانيون إلههم مباشرة لأول مرة، دون المرور بموسى، ويتوسلون إليه بطلبٍ، ولأن الرب كان مع بني إسرائيل، فقد انتصروا وانطلقوا لغزو كنعان.

على الرغم من هذه النهاية السعيدة، فقد ملأ الخوف قلوب الشعب. لقد توفي هارون للتو وأقيم حداد عليه مدة ثلاثين يومًا. ها هُم الزعماء التاريخيون يختفون الواحد تلو الآخر، وموسى هو التالي في القائمة. ازداد التعب والمعاناة وانخفضت المعنويات والحوافز، ومرة أخرى، يشتكي الشعب من أوضاعه المعيشية وطعامه. لا يَسُرُ ذلك الأمر الرب، فيرسل عليهم أفاعي ذات سم حارق. ثم بعدما تم استيعاب الدرس والتأديب، يتوب الشعب ويطلبون تدخل موسى.

"فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى: «ٱصْنَعْ لَكَ حَيَّةً مُحْرِقَةً وَضَعْهَا عَلَى رَايَةٍ، فَكُلُّ مَنْ لُدِغَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا يَحْيَا.»" (عد ٢١: ٨).

يرى البعض في هذه الحية النحاسية رمزًا لصليب المسيح، الذي ارتفع إلى أعلى (أف ٢: ٩) عن يمين الله. عندما ينظر المؤمن إلى يسوع وهو مسمر على الصليب، يتحرر من براثن الحية العظيمة، التي تسمى أيضًا الشيطان. لقد خلص من خطاياه، وهكذا انتقل من الموت إلى الحياة.

حلقة بلعام

"فَأَرْسَلَ رُسُلًا إِلَى بَلْعَامَ بْنِ بَعُورَ، إِلَى فَتُورَ ٱلَّتِي عَلَى ٱلنَّهْرِ فِي أَرْضِ بَنِي شَعْبِهِ لِيَدْعُوَهُ قَائِلًا: «هُوَذَا شَعْبٌ قَدْ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ. هُوَذَا قَدْ غَشَّى وَجْهَ ٱلْأَرْضِ، وَهُوَ مُقِيمٌ مُقَابِلِي. فَٱلْآنَ تَعَالَ وَٱلْعَنْ لِي هَذَا ٱلشَّعْبَ، لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنِّي، لَعَلَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَكْسِرَهُ فَأَطْرُدَهُ مِنَ ٱلْأَرْضِ، لِأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ ٱلَّذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَٱلَّذِي تَلْعَنُهُ مَلْعُونٌ.»" (عد ٢٢: ٥-٦).

بعد أن هزموا الموآبيين، واصل الشعب العبراني مسيرته شمالًا. يصل إلى البحر الميت ويعبر نهر أرنون ويهزم الأموريين. لا شيء ولا أحد يقدر أن يقاومهم. يحاول الملك بالاق كسر معنوياتهم من خلال الخداع والسحر، لعلمه أنه لا يمكن هزيمتهم بالقوة. لقد فهم أن الرهان روحي قبل كل شيء: فطالما أن نعمة الرب تقع على الشعب، فلا سبيل للوصول إليهم ووقف تقدمهم الإقليمي.

ولسوء حظه، فإن بلعام، الذي تفوح منه الرائحة الطيبة في البداية، لم يكن مجرد عراف وساحر، بل أن لديه أيضًا حساسية للبعد النبوي. إنه يحاول كسر الحماية الروحية التي تقع على إسرائيل، إذ قد انجذب جدًا بالعطايا المادية السخية التي عُرِضَت عليه. ومع ذلك، فإنه يستطيع سماع صوت الرب وعليه أن يعترف بعجزه. إن قدراته محدودة حقًا أمام قدرات الله الحي الذي يسمعه دون أن يعرفه تمامًا.

في تناغم مع صوت الرب، يرفض المُضي قُدمًا والانخراط في أقوالٍ يعلم أنها غير قابلة للتحقيق.

"فَلَمَّا رَأَى بَلْعَامُ أَنَّهُ يَحْسُنُ فِي عَيْنَيِ ٱلرَّبِّ أَنْ يُبَارِكَ إِسْرَائِيلَ، لَمْ يَنْطَلِقْ كَٱلْمَرَّةِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةِ لِيُوافِيَ فَأْلًا، بَلْ جَعَلَ نَحْوَ ٱلْبَرِّيَّةِ وَجْهَهُ. وَرَفَعَ بَلْعَامُ عَيْنَيْهِ وَرَأَى إِسْرَائِيلَ حَالًّا حَسَبَ أَسْبَاطِهِ، فَكَانَ عَلَيْهِ رُوحُ ٱللهِ، فَقَالَ بَلْعَامُ لِبَالَاقَ: «أَلَمْ أُكَلِّمْ أَيْضًا رُسُلَكَ ٱلَّذِينَ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ قَائِلًا: وَلَوْ أَعْطَانِي بَالَاقُ مِلْءَ بَيْتِهِ فِضَّةً وَذَهَبًا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَتَجَاوَزَ قَوْلَ ٱلرَّبِّ لِأَعْمَلَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا مِنْ نَفْسِي. ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُهُ ٱلرَّبُّ إِيَّاهُ أَتَكَلَّمُ." (عد ٢٤: ١، ١٢).

بعد أن ضغط عليه بالاق في مناسبات متعددة، مع وعود بزيادة المكاسب، تفاوض بلعام مع الرب وانتهى به الأمر بالحصول على حق الذهاب إلى الاجتماع، ولكن بشروط مقيدة معينة. كان حريصًا جدًا على سرعة الذهاب في طريقه، ولم يوقفه ويمنعه سوى حمارته عندما رأت ملاك الرب يسد طريقها. تحاول الحمارة تجنب الملاك، ثم تصطدم بالحائط وينتهي بها الأمر ملقياً بها على الأرض. يغضب بلعام ويشرع في ضربها بشدة، وفجأة، بدأت تتكلم.

كان بلعام نفسه يخاطر بأن يمزقه سيف الملاك، لولا ردود فعل حمارته. ثم تنفتح عيناه وينتهي به الأمر برؤية هذا الملاك نفسه، مما يجبره على الاستغفار عن سوء سلوكه. ومرة أخرى، عليه أن يتقبل أن المجال المتاح له للمناورة محدود؛ يمكنه فقط التعبير عن الكلمات التي نقلها إليه الله نفسه صراحةً.

يقع بلعام في معضلة عميقة جدًا. إما أن يرفض تفويض بالاق وتتأثر سمعته المهنية، أو أن يذهب كما أراد له بالاق، لكن باستعداد أن تكون أفعاله مُملاة عليه من الرب. إنه يخاطر بحياته بشكل كبير، مدركًا أنه لا يستطيع إرضاء موكله. بعد أن أدرك الملك بالاق أن

الكلمات التي قالها بلعام لا تتوافق مع تلك التي توقعها، حاول الملك بالاق إيجاد مخرج آخر. يجبر بلعام على الانتقال إلى ثلاثة مواقع مختلفة، على أمل أن يتغير المنظور، ولكن بلا جدوى. يظل بلعام ثابتاً على موقفه ويحترم الالتزام الذي قطعه أمام الرب. علاوة على ذلك، فبدلًا من أن يلعن الشعب العبراني، يذهب إلى حد مباركتهم، الأمر الذي لا يرضي موكله على الإطلاق.

"وَلَكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّ عِنْدَكَ هُنَاكَ قَوْمًا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْلِيمِ بَلْعَامَ، ٱلَّذِي كَانَ يُعَلِّمُ بَالَاقَ أَنْ يُلْقِيَ مَعْثَرَةً أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلْأَوْثَانِ، وَيَزْنُوا." (رؤ ٢: ١٤).

تُظهِرُ رواية سِفْر العدد أن بلعام كان مطيعاً جداً لكلمة الله. ومع ذلك، يحتفظ التقليد بصورته كرجل غادر، غير قادر على لعن الشعب، فيقترح على موكله حيلة أخرى: دفع العبرانيين إلى الخطأ. ويقال إنه شجع النساء الموآبيات على إغواء العبرانيين، وإقامة علاقات جنسية معهم، وبناء على أوامرهن، أن يقدم العبرانيون ذبائح للآلهة المحلية. بهذه الوسيلة، كان بنو إسرائيل قد تركوا أنفسهم يتأثرون بالعالم الوثني. لقد أهملوا القواعد المتعلقة بقداسة الله، وبقبول المساومة والامتزاج الخاطئ، كانوا قد ارتكبوا ما لا يمكن إصلاحه. يتذكر التقليد الكتابي هذا الخطأ باعتباره تعليم بلعام.

"وَأَقَامَ إِسْرَائِيلُ فِي شِطِّيمَ، وَٱبْتَدَأَ ٱلشَّعْبُ يَزْنُونَ مَعَ بَنَاتِ مُوآبَ. فَدَعَوْنَ ٱلشَّعْبَ إِلَى ذَبَائِحِ آلِهَتِهِنَّ، فَأَكَلَ ٱلشَّعْبُ وَسَجَدُوا لِآلِهَتِهِنَّ. وَتَعَلَّقَ إِسْرَائِيلُ بِبَعْلِ فَغُورَ. فَحَمِيَ غَضَبُ ٱلرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ... فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وُكَلَاءِ ٱلْجَيْشِ، رُؤَسَاءِ ٱلْأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ ٱلْمِئَاتِ ٱلْقَادِمِينَ مِنْ جُنْدِ ٱلْحَرْبِ. وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟ إِنَّ هَؤُلَاءِ كُنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَسَبَ كَلَامِ بَلْعَامَ، سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ فِي أَمْرِ فَغُورَ، فَكَانَ ٱلْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ ٱلرَّبِّ." (عد ٢٥: ١-٣؛ ٣١: ١٤-١٦).

لا يزال الدخول إلى كنعان يتميز بهذه الحادثة المؤسفة التي تولد الطاعون الذي يؤدي إلى وفاة ٢٤.٠٠٠ شخص. لقد قُتل بلعام نفسه على يد الشعب العبراني بعد ذلك بقليل (عد ٣١: ٨). لا يجوز أن يختلط إله إسرائيل بآلهة أخرى، خوفًا من تمييع الوصايا وفقدان مفهوم القداسة الذي يميزه. إن الخطر الأكبر على إيمان الشعب يكمن في تقليد العادات الوثنية وتحجيم الرب إلى مجرد وثن صنعته أيدي البشر.

(٧) الاحتفال

"ترنمي أيتها السماوات بالرب." (تث ١٥: ٤٣).

إنه من غير المناسب أن نتوقف عند هذا الحد، دون أن نأخذ الوقت الكافي للتنفس والابتهاج. هذه المرحلة السابعة تشبه اليوم السابع من الخلق. ألم ينشئ الله يوم السبت للراحة والتعجب من أعمال يديه؟ هذا اليوم جزء لا يتجزأ من العمل الإبداعي. إن الفرح والاحتفال بالله حركتان أساسيتان في حياة المؤمن. دعونا نلخص: من المهم أن يكون لديك رؤى وأحلام (الفصل ١)، أن تنهض لتحقيقها (٢)، أن تعبر الجبال التي تبدو للوهلة الأولى غير قابلة للعبور (٣)، أن تتغلب على تحديات الحياة اليومية (٤)، أن تنفتح على علامات حضوره (٥)، وأن تثابر على الطريق الصالح (٦).

لكن في النهاية، كل شيء يجب أن يؤدي إلى حالة (إعادة) الاعتراف بفضل الله علينا. عندما نأخذ الوقت الكافي للتأمل في الدرب الذي سلكناه ونرى الطريقة التي رافقنا بها الله خلال التجارب، لا يسعنا إلا أن نشعر بالإعجاب. إن أمانة الرب في كل أعماله، ترسخ في نفوسنا فرحة وأمل جديد في الغد.

"ترنيمة موسى ومريم. حِينَئِذٍ رَنَّمَ مُوسَى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ هَذِهِ ٱلتَّسْبِيحَةَ لِلرَّبِّ وَقَالُوا: أُرَنِّمُ لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ. ٱلْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي ٱلْبَحْرِ. ٱلرَّبُّ قُوَّتِي وَنَشِيدِي، وَقَدْ صَارَ خَلَاصِي. هَذَا إِلَهِي فَأُمَجِّدُهُ، إِلَهُ أَبِي فَأُرَفِّعُهُ. ٱلرَّبُّ رَجُلُ ٱلْحَرْبِ. ٱلرَّبُّ ٱسْمُهُ." (خر١٥: ١-٣).

إن مفاهيم التسبيح والاحتفال لا تقل أهمية بين الشعب العبراني عن طاعة الشريعة. في مناسبات عديدة، بنى الشعب مذبحًا، وقدموا ذبائح أو قرابين كشكل من أشكال الامتنان. كل مرحلة حاسمة يتم الفوز بها هي مناسبة لترنيمة لمجد الرب. وتجد الآلات الموسيقية أيضًا مكانًا بارزًا في قلب تسبيحات إسرائيل، كما نرى في الاستيلاء على أريحا أو في العديد من المزامير.

لقد سبق أن ذكرنا مقام مريم النبية وأخت موسى. ان تسبيحها يُدْخِلُ الشعب في روح العبادة، ويوم موتها، يتسبب غيابها في أزمة كبيرة. كأن البعد النبوي الذي يتجلى في التسبيح يختفي معها. تجف الآبار لعدم وجود الماء الحي، ذلك الماء الذي يفيض عندما تغذيه حالة ذهنية من روح الحمد والتسبيح والتكريس والثناء.

أما موسى النبي العظيم فهو أيضًا معروف بمزاميره وأغانيه. في أسفار موسى الخمسة، فإن العديد من التسابيح قد أتتنا من طرفه. بعد عبور البحر الأحمر مباشرة، عبَّر موسى عن فرحه وامتنانه بترنيمة تسبيح عظيمة (خر ١٥). ومن آخر الكلمات والتوصيات التي يتركها لشعبه قصيدة وعظ طويلة (تث ٣٢) يسميها هو نفسه ترنيمة (تث٣١: ١٩، ٢٢)، وفي مجموعة المزامير يُنسب إليه المزمور التسعون. وبعد ذلك بكثير، يقتبس الرسول يوحنا في سفر الرؤيا ترنيمة موسى، خادم الله، وترنيمة الحمل. وهكذا فإن جماعة المؤمنين بأكملها تشترك في نفس ترنيمة التسبيح.

"وَهُمْ يُرَتِّلُونَ تَرْنِيمَةَ مُوسَى عَبْدِ ٱللهِ، وَتَرْنِيمَةَ ٱلْخَرُوفِ قَائِلِينَ: «عَظِيمَةٌ وَعَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ، أَيُّهَا ٱلرَّبُّ ٱلإِلَهُ، ٱلْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ! عَادِلَةٌ وَحَقٌّ هِيَ طُرُقُكَ، يَا مَلِكَ ٱلْقِدِّيسِينَ!" (رؤ ١٥: ٣).

غالبًا ما يكون التسبيح جماعيًا ويجد مجاله في العديد من الأعياد التي تأسست بعد أحداث هامة في تاريخ إسرائيل. إننا نحتفل لنظهر امتناننا لله وبما قام به، ولكيلا ننسى اللحظات القوية، أو حتى الكوارث التي ميَّزت حياة الناس عبر القرون. إن العيد الأول، والأهم أيضًا، قد أسسه موسى بعد الخروج من مصر، أي عيد الفصح.

"وَيَكُونُ لَكَ عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَتَذْكَارًا بَيْنَ عَيْنَيْكَ، لِكَيْ تَكُونَ شَرِيعَةُ ٱلرَّبِّ فِي فَمِكَ. لأَنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ أَخْرَجَكَ ٱلرَّبُّ مِنْ مِصْرَ. فَتَحْفَظُ هَذِهِ ٱلْفَرِيضَةَ فِي وَقْتِهَا مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ." (خر ١٣: ٩).

في الروحانية اليهودية، فإن الاحتفالات تكون ذات طابع طقسي. إنها تصنع إيقاع السنة الليتورچية من خلال تذكر لحظات مهمة في تاريخ إسرائيل. فيما يلي بعض الأعياد والتقاليد العبرية الرئيسية:

- **عيد الفصح (أو الفصح):** يحيي هذا العيد ذكرى تحرير اليهود من العبودية في مصر. تقام وجبة كبيرة تسمى سدر، حيث يتم تقديم الأطعمة الرمزية، مثل الأعشاب المرة لتمثيل العبودية والخبز الفطير لتمثيل الهروب السريع لليهود من مصر.

- **عيد الأسابيع:** يحيي ذكري تسليم التوراة لموسى على جبل سيناء. يحتفل اليهود بعيد الأسابيع من خلال قراءة ودراسة التوراة وتناول منتجات الألبان لترمز إلى حلاوة التوراة.

- **عيد رأس السنة اليهودية:** وهو رأس السنة اليهودية الجديدة. يحتفل اليهود بهذا العيد من خلال الذهاب إلى الكنيس، والنفخ في

الشوفار (قرن الكبش) وتناول التفاح المغموس في العسل ليرمز إلى سنة حلوة وسعيدة قادمة.

- **يوم الغفران:** هذا العيد هو أقدس يوم في السنة، وهو اليوم الذي يطلب فيه اليهود المغفرة عن خطاياهم. يحتفلون بيوم الغفران بالصيام لمدة ٢٤ ساعة، والذهاب إلى الكنيس والصلاة.

- **عيد المظال:** يحيي ذكرى الفترة التي عاش فيها اليهود في أكواخ مؤقتة أثناء رحلتهم عبر الصحراء. يحتفلون بهذا العيد من خلال بناء كوخ يسمى السوكَّة، وتناول الطعام والنوم في السوكَّة لمدة سبعة أيام، والتلويح باللولاف (غصن النخيل)، والصلاة في الكنيس.

- **حانوكا:** هو عيد يحتفل بانتصار اليهود على اليونانيين وإعادة تكريس الهيكل في القدس. خلال هذا العيد، يضيء اليهود الشموع على شمعدان مكون من تسعة فروع، ويأكلون الأطعمة المقلية مثل الكعك واللاتكس (وهو عبارة عن بطاطس مبشورة أو بصل مع جبن مقلي في الزيت)، ويتبادلون الهدايا.

- **عيد الفور:** يحتفل بذكرى تحرير اليهود الذين استعبدتهم الإمبراطورية الفارسية. ثم يقرأ الناس كتاب أستير، ويرتدون ملابسهم، ويقدمون هدايا الطعام للأصدقاء والعائلة.

في الكتاب المقدس، الامتنان والفرح ليسا مجرد علامات امتنان يتم التعبير عنها بعد وقوع الحدث. إنهما جزءان لا يتجزأن من حياة الإيمان. عندما نسبح الرب، نحرك طاقات إيجابية هي في حد ذاتها أداة للتحول والتحرر. يستخدم يشوع التسبيح لهدم أسوار أريحا (يش٦). كما أن الملك يهوشافاط، بتسبيحه الله، ينتصر بدون قتال

(٢أخ ٢٠). بالنسبة للرسول بولس، فإن الفرح هو علامة مرئية لملكوت الله (رو ١٤: ١٧). حتى لو انقلب الكون كله وأصبحت الآلام لا تطاق، فإن الفرح مدعو ليبقى (٢كو ٧: ٤؛ ١٣: ٩؛ في ١: ٤؛ ١تس ١: ٦).[٢٥]

"اِفْرَحُوا فِي ٱلرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: اِفْرَحُوا. لِيَكُنْ حِلْمُكُمْ مَعْرُوفًا عِنْدَ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ. اَلرَّبُّ قَرِيبٌ. لَا تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِٱلصَّلَاةِ وَٱلدُّعَاءِ مَعَ ٱلشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى ٱللهِ. وَسَلَامُ ٱللهِ ٱلَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ." (في٤: ٤-٧).

خاتمة الجزء الأول

بمرافقتنا للعبرانيين في رحلتهم عبر الصحراء، تمكنا من إدراك مدى صعوبة عبور الصحراء سواء لهم أو لموسى على حد سواء. كان على الأوائل أن يتعلموا كل شيء: السير في منطقة مجهولة، وتناول الطعام بشكل مختلف، وحفر الآبار للعثور على الماء. لقد أُجبروا على ترك منازلهم، ووظائفهم، وقناعاتهم، وعاداتهم القديمة، وطريقة أداء عملهم في المجتمع. إذ لم يعودوا تحت السيطرة ولا عادوا يُعَامَلون بتعالٍ، والآن قد توجب عليهم أن يطوروا سلوكيات جديدة كبالغين يتجولون بحرية، ثم تبني قواعد جديدة للحياة الاجتماعية. من خلال تطبيق قوانين نوح، وإقامة تحالف مع الرب، فإنهم قد اختاروا بشكل حر الخضوع للسلطة البشرية والروحية.

مثل الأطفال الصغار الذين يطورون تدريجيًا مهارات جديدة ينمون جسديًا ونفسيًا، يجب على العبرانيين أن يتعلموا الثقة والاستماع والتطلع والاستقامة لاستقبال ثمار النعمة الإلهية. إنهم

[٢٥] ديديه روشا، بولس النموذج الاستراتيجي، ص٩٨.

يبدأون في الاعتزاز بحرية الحركة والفكر، ثم يقاتلون من أجلها. في البداية، ركزوا على موسى وقيادته المنتشرة في كل مكان، ثم اكتشفوا تدريجيًا تولي المسؤولية وتوزيع السلطة والحياة المقدسة. ولم يعد يكفي الطاعة والتبعية والإيمان بواسطة آخر، بل أصبح الأمر يتعلق بالحصول على الشريعة الإلهية وتفسيرها واستيعابها بشكل شخصي.

أما موسى، فإن تعليمه المصري وتجربته في الصحراء يشكلان رصيدًا كبيرًا في إرشاد الشعب. إن تواضعه وقدرته على الاستماع كانا أمران ضروريان في كسب ثقتهم وتقديم الأجوبة المناسبة لمختلف التحديات التي يواجهونها. لقد واجه موسى الشدائد والاستياء والغيرة، بل أحيانًا ما كانت كلماته وقيادته موضع خلاف، إلى حد أن بعض الناس يهاجمونه جسديًا. لكن توجب عليه التغلب على نقاط ضعفه ومخاوفه وشكوكه وأخطائه. وفي النهاية، اضطر إلى التصالح مع فكرة أنه على الرغم من كل ما فعله من أجل الشعب ومن أجل إلهه، فإنه لن يدخل أرض كنعان. يا له من درس في التواضع.

أخيرًا، احتاج الأمر إلى أربعين عامًا حتى يعبر الشعب نهر الأردن ويدخلوا أرض الموعد. الأيام الثلاثة التي أعلنها فرعون لتقديم الذبيحة، تتحول إلى سنتين، ثم بعد فشل المحاولة الأولى والعودة إلى الصحراء، تطول فترة الانتظار والاستعداد لتصل إلى أربعين سنة. في النهاية، يستغرق الأمر أكثر من جيل كامل حتى تتطور العقليات بشكل كافٍ وتكون قادرة على إبراز نفسها في بُعد جديد، وهو بُعد الثقة.

ومن خلال الانتقال من حالة الانهزامية والخمول إلى حالة الذهن المنتصر، يمكن طي صفحة مصر أخيرًا. لقد ولد شعب حقيقي بهياكله الإدارية والقانونية والعسكرية، ولكن أيضا بأحلامه وآماله وإيمانه المشترك. إن أربعين عامًا، على المستوى البشري، قد تبدو

فترة طويلة جدًا. ولكن على قياس الأمة، تكون هذه المدة في نهاية المطاف قصيرة جدًا، خاصة إذا فكرت في التحديات التي تنتظر العبرانيين على الجانب الآخر من نهر الأردن: الانحرافات والإغراءات، ولكن أيضًا المخاطر والمعارك الحقيقية جدًا.

أود أن أذكر أنه إن كنت أنا قد تلقيت دعوة في سن الحادية عشرة، فإن الأبواب لم تُفتح لي فعليًا للخدمة الروحية إلا وأنا في سن الخمسين. اليوم عند الله كألف سنة وألف سنة كيوم واحد، هذا ما يخبرنا به موسى في مزموره (مز ٩٠: ٤؛ ٢بط ٣: ٨). الله ليس لديه نفس مفهوم الوقت كما لدينا. لقد مر الشعب العبراني أيضًا بتجربة مريرة كهذه، حيث اضطر إلى السير لفترة طويلة في منطقة معادية، ولكن في النهاية، فإن الله دائمًا على حق، لأنه لديه وجهة نظر أوسع بكثير من وجهة نظرنا. إنه يعد أرض الموعد لكل واحد منا، لكنه وحده يعرف موعد دخولنا إليها.

"ثُمَّ تُصَرِّحُ وَتَقُولُ أَمَامَ ٱلرَّبِّ إِلَهِكَ: أَرَامِيًّا تَائِهًا كَانَ أَبِي، فَٱنْحَدَرَ إِلَى مِصْرَ وَتَغَرَّبَ هُنَاكَ فِي نَفَرٍ قَلِيلٍ، فَصَارَ هُنَاكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَعَظِيمَةً وَكَثِيرَةً. فَأَسَاءَ إِلَيْنَا ٱلْمِصْرِيُّونَ، وَثَقَّلُوا عَلَيْنَا وَجَعَلُوا عَلَيْنَا عُبُودِيَّةً قَاسِيَةً. فَلَمَّا صَرَخْنَا إِلَى ٱلرَّبِّ إِلَهِ آبَائِنَا سَمِعَ ٱلرَّبُّ صَوْتَنَا، وَرَأَى مَشَقَّتَنَا وَتَعَبَنَا وَضِيقَنَا. فَأَخْرَجَنَا ٱلرَّبُّ مِنْ مِصْرَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ رَفِيعَةٍ وَمَخَاوِفَ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ وَعَجَائِبَ، وَأَدْخَلَنَا هَذَا ٱلْمَكَانَ، وَأَعْطَانَا هَذِهِ ٱلْأَرْضَ، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا. فَٱلْآنَ هَأَنَذَا قَدْ أَتَيْتُ بِأَوَّلِ ثَمَرِ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَعْطَيْتَنِي يَا رَبُّ. ثُمَّ تَضَعُهُ أَمَامَ ٱلرَّبِّ إِلَهِكَ، وَتَسْجُدُ أَمَامَ ٱلرَّبِّ إِلَهِكَ." (تث ٢٦: ٥-١٠).

يمثل عبور البحر الأحمر اللاوعي الجمعي للشعب اليهودي. ويصبح الحدث المؤسسي الذي يجب ألا يُمحى من الذاكرة أبدا. ولهذا السبب نتذكره كل عام عندما نحتفل بعيد الفصح. وبعيدًا عن الذكرى، تلهم هذه الحادثة الفكر الكتابي بأكمله. يشير العديد من مؤلفي العهدين

القديم والجديد إلى هذه النقطة باعتبارها نقطة ارتكاز لحياة الإيمان. إن الخروج من مصر هو علامة على أن الله حي للغاية وأن أمانته تتفوق على أي شيء نعرفه. في سيناء، يكشف الرب عن نفسه باعتباره الإله الشخصي. بفضل تدخله المحرر، تأخذ النعمة معنى جديدًا وتضرب بجذورها في رسالة الإنجيل المحررة. فيما يلي المقاطع الكتابية الرئيسية التي تشير إلى ذلك كحقيقةٍ تاريخية:

- (يش ٤: ٢٣-٢٤): عبور البحر الأحمر إظهارًا لليد الإلهية القوية.
- (حز ٢٠: ٥-١٧): الله يقود إسرائيل رغم ثوراتها.
- (مز ٧٨): أمانة الله مستمرة رغم الانحرافات المتكررة للشعب العبراني.
- (مز ١٠٦): سبحوا الرب لأنه صالح. وخلافًا للآباء المتمردين، فهو يظل أمينًا.
- (مز ١٣٦): "يذكرنا" لأن أمانته تدوم إلى الأبد.
- (نح ٩: ٩-١٥): إله الرحمة؛ صلاة عامة للاعتراف بالخطايا.
- (أع ٧: ١- ٤٨): تاريخ إسرائيل كما يراه استفانوس.
- (١كو ١٠: ١-١١): مثال إسرائيل في الصحراء؛ تحذير.
- (عب ١١: ٢٣-٣١): أبطال الإيمان: إبراهيم، وموسى، والآخرون.

تذكر معظم هذه النصوص اللطف الإلهي وأمانة الرب التي تدوم رغم شكوك إسرائيل وثوراته وإخفاقاته. يحافظ الله على عهده، ولكن ماذا عن البشر؟ أليسوا في كثير من الأحيان جبناء وشركاء فقراء. تمر أجيال، لكن الوضع لا يتحسن مطلقاً، وعلى الرغم من خلافة الأنبياء وإرسال المسيح يسوع، تظل البشرية غارقة في عماها وخطاياها، وهذا ما يذكرنا به مثل السيد وكرمه. لا شيء يوقف الكرامين القتلة، ولا حتى مجيء الابن الوريث (مت ٢١: ٣-٤٢).

إن حادثة الخروج من مصر هي الحدث الذي يمثل ميلاد الشعب اليهودي كأمة. إنه يفتح مساحة من الحرية والإشباع الروحي الذي يجد ذروته في هبة الشريعة. ويبقى عبور الصحراء محفورًا في الذاكرة، كلحظة حاسمة في مسيرة إسرائيل مع إلهه. إنه هنا تولد خطط المستقبل، وكذلك الإيمان بإله يُحرّر ويستجيب الدعاء.

"هَكَذَا يَقُولُ ٱلرَّبُّ ٱلْجَاعِلُ فِي ٱلْبَحْرِ طَرِيقًا وَفِي ٱلْمِيَاهِ ٱلْقَوِيَّةِ مَسْلَكًا. ٱلْمُخْرِجُ ٱلْمَرْكَبَةَ وَٱلْفَرَسَ، ٱلْجَيْشَ وَٱلْعِزَّ. يَضْطَجِعُونَ مَعًا لَا يَقُومُونَ. قَدْ خَمِدُوا. كَفَتِيلَةٍ ٱنْطَفَأُوا. لَا تَذْكُرُوا ٱلْأَوَّلِيَّاتِ، وَٱلْقَدِيمَاتُ لَا تَتَأَمَّلُوا بِهَا. هَأَنَذَا صَانِعٌ أَمْرًا جَدِيدًا. ٱلْآنَ يَنْبُتُ. أَلَا تَعْرِفُونَهُ؟ أَجْعَلُ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ طَرِيقًا، فِي ٱلْقَفْرِ أَنْهَارًا." (إش ٤٣: ١٦-١٩).

الجزء الثاني: ها أنا أصنع كلَّ شيءٍ جديداً

تمهيد القسم الأول

إن المهمة التي أمامنا هي لا شيء قياسًا على القوة التي تسكن فينا. قد يبدو تاريخ الشعب العبري الذي تعمقنا فيه من خلال الخروج من مصر والسير في الصحراء بعيدًا جدًا. تفصلنا القرون عن قصة الكتاب المقدس، ولكن تفصلنا أيضًا عن تضاريس الأماكن، بالإضافة إلى الثقافة المحيطة. ومع ذلك، يمكن رسم العديد من أوجه التشابه بين هذه النصوص التأسيسية ورحلات حياتنا. لقد تأثرت أنا شخصيًا بقوة هذه النصوص وأغنتني، وأنا أرجع إليها عن طيب خاطر لأجد فيها رجائي وإيماني.

إن المراحل السبع التي مر بها شعب إسرائيل هي كلها دروس حياة نجدها في رحلاتنا. في الواقع، يجب علينا أن نتعلم كيف نفصل أنفسنا عن البيئة المألوفة والعادات العنيدة للغاية. لا بد لكي نوسع خيمتنا ونكتسب الثقة ونخترق الفضاءات الجديدة التي يدعونا الله إليها، لا بد من السفر عبر مناطق مجهولة وصحاري. هذا يعني، كما رأينا، مواجهة المجهول والثقة في هذا الإله الذي أعد الطريق حتى قبل أن نسير عليه.

مع ذلك، فهناك العديد من العقبات التي تقف في الطريق. إن العوائق الشخصية أو العوائق في العلاقات مع الآخرين، سواء المادية أو الثقافية كلها تعوقنا في رحلتنا وتمنع عنا نمونا بشكل سلس. بسبب تعرضنا لذلك، فإننا أحيانًا نشك، ولا نعد نؤمن بإمكانية التغيير. وأخيرًا، نُسقِط تبعات ذلك على الله نفسه. وهذا ما سنتعمق فيه في هذا الجزء الثاني، لكي نتعلم كيف نتغلب على التجارب وننمو في الحكمة والحق.

القسم الأول: العوائق التي تعترض مصيري

(١) لون الماء

هل يعني التنظيف الربيعي للمنزل أي شيء بالنسبة لك؟ عندما يبدأ النهار يطول، وترتفع درجة الحرارة الخارجية، نشعر أننا نريد الاستفادة من شرفة المنزل والتمتع بمذاق النور الذي عاد مرة أخرى. لذلك نبدأ بتنظيف نوافذنا وإعداد الشرفة الخاصة بنا لقضاء لحظات بهيجة وتجديد النشاط هناك مرة أخرى، بينما نستمتع بالهواء الطلق الرائع.

في هذه الحالة الذهنية، بدأتُ في تنظيف أرضية شرفتي، على الرغم من أنها لم تكن تعطي انطباعًا بأنها متسخة جدًا. ولكن قبل وضع الطاولة والكراسي على الشرفة مرة أخرى، كان ينبغي التنظيف جيداً على أية حال. هذا أقل ما يمكنك فعله، ألا تعتقد ذلك؟

هكذا ملأت الدلو بالماء الفاتر وبدأت أستخدم قطعة القماش أمررها لتنظيف الأرضية. أنا لست مجتهدًا بشكل خاص في التنظيف، ولكن بمجرد أن أبدأ، لا أفعل الأشياء بشكل ناقص. بفضل كثرة الفرك، أدركت أن الماء يتغير لونه ويتحول إلى لون التراب. يتحول لونه إلى اللون البني ويصبح معتمًا بسبب جميع أنواع الشوائب والأوساخ التي تستقر عليه. عند عودتي للشقة أنظر إلى الماء في الدلو فيأتيني صوت يفرض نفسه عليَّ قائلًا: أترى كم هي قذرة مياهك؟ ألم يكن الأمر يستحق القليل من الوقت والطاقة لضمان تنظيف أكثر عمقاً؟

كان لهذا الإدراك تأثير الصدمة الكهربائية الإلهية. للوهلة الأولى، يبدو كل شيء مثاليًا في أفضل العوالم، ولكن عندما تنظر عن كثب، تدرك أن الأوساخ عنيدة جدًا. ورأيت في ذلك رسالة إلهية تذكرني

بأن الخطية متجذرة في هذا العالم، وفي كل إنسان، رغم أننا لا نراها. ظاهريًا، يبدو البشر جميلون أنقياء، لكن في الواقع، إذا تمكنا، مثل الله، من النظر إلى قلوبهم، فسنرى أنها قذرة ومليئة بالأوساخ. وهذا هو سبب عدم سعادتهم ومعاناتهم من المشاكل والأمراض من كل نوع. لكن فقط التنظيف الشامل يمكنه أن يعيدهم إلى حالة أفضل، ويعيد ضبط العدادات ويغير حياتهم.

من خلال توسيع أفكاري، بدأت أفكر في أهمية الماء للبشر، ولكن على نطاق أوسع لكوكب الأرض بأكمله. إن الماء يغطي معظم كوكبنا ويشكل أربعة أخماس حجم جسمنا. إنه مبدأ الحياة بامتياز، والذي بدونه لا وجود للمخلوقات. ومع ذلك، في حين أن ٩٧٪ من المياه على الأرض مالحة، فإن قسما كبيرا من المياه العذبة غير صالحة للشرب أيضا؛ وهي ملوثة من ِقبل الإنسان، وهي أيضًا حاملة للمرض واليأس. لقد أصبح الاستحمام اليوم في نهر الجانج أو النيل أو أي نهر مقدس آخر خطراً على الصحة.

وحتى في الغرب، حيث أصبحت معالجة المياه القذرة هي القاعدة، نلاحظ بشيء من الدهشة أن كمية الجزيئات البلاستيكية العالقة في البحيرات والأنهار قد زادت بشكل كبير. ناهيك عن أنه بسبب ظاهرة الاحتباس الحراري وذوبان الأنهار الجليدية، فإن موارد المياه العذبة التي لا تزال صالحة للاستهلاك تميل إلى أن تصبح نادرة، وتنتشر فترات الجفاف الشديد بشكل خطير. في الماضي، كنا نتقاتل دائمًا حول الآبار وغيرها من مصادر مياه الشرب، لكن حرب المياه هي ما يتوقعه لنا علماء الاجتماع في المستقبل القريب.

نحن مضطرون إلى الإشارة إلى أن البشر، حتى لو كانوا قادرين على تحقيق الأفضل، فقد كانوا في كثير من الأحيان مصدراً لما هو أسوأ، وهكذا تسللت الأوساخ والخطيئة إلى كل مكان، حتى أعماق

أحشاء الأرض. وبمجرد انتشار جزيئات التلوث، يكاد يكون من المستحيل طردها. يذكرنا يسوع نفسه أن الشر يأتي قبل كل شيء من داخل الإنسان، أكثر من بيئته المحيطة به.

"ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ذَلِكَ يُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ. لِأَنَّهُ مِنَ ٱلدَّاخِلِ، مِنْ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ، تَخْرُجُ ٱلْأَفْكَارُ ٱلشِّرِّيرَةُ: زِنًى، فِسْقٌ، قَتْلٌ، سِرْقَةٌ، طَمَعٌ، خُبْثٌ، مَكْرٌ، عَهَارَةٌ، عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ، تَجْدِيفٌ، كِبْرِيَاءُ، جَهْلٌ. جَمِيعُ هَذِهِ ٱلشُّرُورِ تَخْرُجُ مِنَ ٱلدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ.»" (مر ٧: ٢٠-٢٣).

لقد وضع الله في الإنسان شرارة الخلود[٢٦]، ومهما يكن الإنسان محدودًا بطبيعته الفانية، إلا أنه يمتلك في أعماقه إمكانات هائلة تولد الأمل في تحقيق المشاريع العظيمة. إنه يطمح إلى الحقيقة وله أحلام تدفعه إلى الأمام. هذه كلها رؤى ومشاريع طموحة قادرة على تحفيزه والارتقاء به إلى دفعه بشجاعة إلى آفاق غير متوقعة.

إنه من المؤسف أن العقبات التي تعترض التنفيذ عديدة، وكثيرًا ما يكون مجال المناورة محدوداً. والأهم من ذلك هو عدم الاعتداد بالمظاهر، لأنها غالبًا ما تكون مضللة، ونادرا ما تكون المغريات ليست أكثر من تجربة بلا مستقبل. إن أفكارنا ومشاعرنا وكذلك آراءنا التي تعتمد على آليات غير واعية غالبًا ما تكون مضطربة ومشوهة.

إن الجبل الجليدي لا يمكن رؤية أكثر من ١٠٪ منه بالعين المجردة، فمعظمه مغمورٌ. وينطبق الشيء نفسه على الإنسان، الذي لا نكاد ندرك حقيقته أكثر من خلال مراقبة لباسه أو مشيته أو عواطفه أو المفردات التي يستخدمها. ولكي تكتشفه في مجمله، لا يزال يتعين علينا الغوص في أعماق عقله الباطن. إن الملابس لا

[٢٦] راجِع: دون ريتشاردسون، الأبدية في قلوبهم، JEM، ١٩٨٢.

تصنع الرجل، فنادراً ما يكون المظهر الخارجي والمكياج قادرين على إخفاء العزلة الداخلية والضيق الذي يمكن أن يستقرا هناك.

إن الجزء الأعظم من شخصيتنا مغمور، وغير ظاهر. لقد شكلت سنوات من التعليم والتنشئة الاجتماعية والمواجهة مع من حولنا قوقعة نحتمي بها، وكثيرًا ما حولت كل تلك الأشياء الأحلام إلى مجرد رماد. ماذا بقي من الرؤى العميقة والرغبات الشبابية والطموح لمواجهتها؟ كما هو الحال مع البصلة التي يجب تقشير طبقات كثيرة منها للوصول إلى جرثومة الحياة داخلها، غالبًا ما يستغرق الأمر سنوات من العلاج لإزالة الشك والحزن والأفكار السيئة وحتى اليأس، التي تجذرت تدريجيًا والتي تعوق خطط الله. من أن تتحقق في حياتنا.

لقد تميزت رحلتي أيضًا بعدد لا يحصى من العقبات التي تفاوتت في أهميتها. لم يتركني الله أبدًا، لكنه واصل عمل التقديس والنمو في داخلي، من خلال التجارب التي طورت في أعماقي حساسية جديدة، بينما عززت شخصيتي. لقد دعاني الرب وأنا في الحادية عشرة من عمري بصوت واضح ومسموع، لقد غير أول ما غير، رؤيتي، مما َبدَّلَ أولوياتي أيضاً. لقد كانت خدمته دائمًا هدفي منذ ذلك الحين. لكن كان عليَّ أن أتعلم كيف أتعايش مع الشدائد وأكتشف أن طرقه لا تؤدي بالضرورة إلى تحقيق رغباتي. لم تكن حياتي مع الله في كثير من الأحيان كما تخيلتها. وعندما كانت تأتيني فرص، كان ذلك في كثير من الأحيان يحدث بشكل مفاجئ، عندما لم أكن أتوقع ذلك.

لقد أظهر لي الله أنه لا ينبغي لي أن أخطئ الهدف: فبدلًا من تثبيت نظري على الجبل الذي أمامي، والذي يسد طريقي، ويمنعني من رؤية الأفق، وبالتالي يجعله يبدو لي مستحيلًا، يدعوني إلى تركيز انتباهي على الهدف الذي حددته لنفسي. بهذه الطريقة فقط، مع اتخاذ خطوة واحدة بشجاعة في كل مرة، يمكنني أن أتسلق المرتفعات التي

أطمح إلى الوصول إليها. وعندما أصل إلى الهدف، فإن الرؤية التي تظهر لي لا تجعلني أرتعش من الفرح فحسب، بل أيضًا، عند النظر إليها من الأعلى، تجعلني أري هموم الحياة اليومية صغيرة جدًا بالنسبة لي.

فكِّر بشكل كبير: الحياة مرآة؛ لن تعطيك أبدًا أكثر ممَّا تتوقع.[٢٧]

إن السماح لله بالتصرف في حياتك هو سر النجاح. ولكن هذا لا يحدث تلقائيًا، بل يتطلب الاستماع إليه. في بعض الأحيان يستغرق هذا العمل المتعمق وقتًا ويتطلب تضحيات ويؤدي إلى أوقاتٍ من عدم الفهم. عندما يتصرف الله، تحدث بعض التغييرات دون أن نلاحظ، فتحدث تحولات أخرى تزعجنا وتهزنا وكأننا ندخل في عين الإعصار: كل معالمنا تنقلب رأساً على عقب. نحن لا نعرف كيف ولماذا. الله أعلم منا لماذا هذه الرحلات ضرورية. ولكن هناك شيء واحد مؤكد: نتيجة لتدخله، تحدث التحولات في أعماقنا. وبما أن الرؤى تولد في أعماق قلوبنا، فمن خلال تدخله، يمكنها أن تشع مرة أخرى ويدرك كياننا الداخلي أوامر الروح القدس بشكل أكثر وضوحًا.

(٢) السلوكيات الخاطئة

"طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ ٱلْقَلْبِ، لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ ٱللهَ." (مت ٥: ٨).

إن أفكارنا السيئة بالفعل، وإخفاقات طبيعتنا العميقة والسلوكيات المرتبطة بها هي التي تمنعنا من رؤية الله. ليس من غير المألوف أن يخرجنا الله من وضعنا المعتاد ليتحدانا، ويقودنا إلى البرية للتحدث إلى قلوبنا (هو ٢: ١٤). لقد اختبرت ذلك بنفسي في عدة مناسبات،

[٢٧] اقتباس غير معلوم مَن قائله.

وخاصة عندما قادني الله خلال فترات من الاضطراب المهني الشديد والبطالة.

عندما كنت على وشك فقدان مصدر أماني ورزقي، اختار الله الطريقة الأكثر ملاءمة لوضعي أمام تحديات وأوامر في داخلي غيرت مسار حياتي وأنضجتني. غالبًا ما تكون الدوافع الصغيرة هي التي لها تداعيات كبيرة، لأنها غيرت الطريقة التي أنظر بها إلى نفسي، وكسرت بعض الأحكام المسبقة أو المحرمات وفتحت لي أبوابًا جديدة. لقد وجد الله طريقة للمس عواطفي العميقة وبالتالي إطلاق طاقات ورؤى جديدة.

ما الذي يمنع قلوبنا إذًا من أن تكون حساسة ونقية بما يكفي لرؤية الله أو سماع صوته؟ أليست هذه هي نفس العوامل التي منعت اليهود من رؤية يسوع المرسل من الله الآب؟ غالبًا ما يكون ذلك هو العمى المرتبط بالمفاهيم الجاهزة، والخاطئة في معظم من الأحيان، واليقين الزائف، وعادات الحياة السيئة، وأخيرًا عدم القدرة على الاستماع إلى الرسالة المنطبعة في أرواحنا.

لقد هاجم يسوع بشدة السلوكيات والمواقف التي تركز على المظهر، بحجة أن الطاعة العمياء للقواعد الجاهزة والمنافقة في كثير من الأحيان (الناموسية) تكفي. من بين الأنبياء والرعاة الكذبة الذين أدانهم

الرب، كان هناك أناس حسني النوايا يثقون بالمظاهر وليس بالقلوب. مثل هذه الأرملة الفقيرة التي يأخذها يسوع مثالًا، وهي لا تضع إلا قطعتي نقد في الصندوق في نهاية الخدمة: لقد كانت تقدمتها أعظم بكثير من تقدمة المتبرعين الآخرين، لأنها أعطت من إعوازها كل معيشتها (مر ١٢: ٤). لقد كلفها تبرعها أكثر بكثير من تبرعات العديد من الأغنياء الذين ألقوا أموالاً كثيرة في الصندوق.

من المفارقات أن لعب الكوميديا في الحياة وأمام الآخرين يبدو أسهل من أن تكون ضعيفًا وتكشف عن طبيعتك الحقيقية. ومع ذلك، ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح، أن تكون القاعدة هي أن تبدو طبيعيًا وقادرًا على التعبير عن نفسك بشكل سلس. في الواقع، لا يقدر الجميع أن يكونوا ممثلًين جيدين. غالبًا ما يكون تعلم أداء الدور بشكل جيد أمرًا مملاً، خاصة عندما تكون مجبرًا أن تكشف نفسك أمام جمهور كبير. كيف نشرح هذا التناقض؟ لماذا يصعب علينا السماح لضعفنا وإنسانيتنا بالظهور أمام الآخرين؟ هل نفتقر إلى الفخر بطبيعتنا الحقيقية؟ هل نخشى أن نكون أنفسنا ونفضل بالحري إخفاء نقاط ضعفنا؟ هل نحن خائفون من فقدان احترام جيراننا وأصدقائنا من خلال إعطائهم لمحة عن هويتنا الحقيقية؟

عندما أقوم بتحليل الإحصائيات التي تصف نسبة الأشخاص المدمنين على الكحول أو التبغ أو القمار أو المنشطات أو المواد الإباحية أو اضطرابات الأكل أو الكذب أو غيرها من الرذائل، فإنني أفاجأ بعددهم الكبير. من خلال مراقبة ما يحيط بي، يبدو أنني لم أكن واعياً بهذه الحقيقة. ومع ذلك، إذا نظرت داخلي مليًّاً، فإنني أرى هشاشتي وضعفي. أعلم أنني شخصياً قد استسلمت للعديد من هذه السلوكيات وتعرضت لإغرائها مثل كثيرين آخرين، ولست فخورًا بذلك.

هذا بالتأكيد أحد الأسباب التي تجعل الكثير منا يسعى لإخفاء طبيعتنا الحقيقية. تساعدنا العديد من المواد التي تغير الحالة المزاجية على إخفاء الواقع ونسيان إخفاقاتنا. يجبر بعض الأشخاص على تناول الكحول، والبعض الآخر يتعاطى المنشطات أو يتناول الأدوية لمساعدتهم على النوم أو استقرار الحالة المزاجية. وهذا يساعدهم على إعطاء صورة أكثر إرضاءً عن أنفسهم. ولكنه في الوقت نفسه يعوقهم عن قدرتهم على سماع الله وهو يتكلم معهم. أن يكون لديك

قلب نقي يتطلب أن تكون هشًا وضعيفًا ومنفتحًا على ما هو غير متوقع.

(٣) المقارنة

إحدى الصعوبات الرئيسية التي واجهتني كانت تكمن منذ فترة طويلة في روح المقارنة. لقد عانيت من التهميش في طفولتي، لسبب بسيط هو أنني كنت أتحدث لغة مختلفة في المنزل عن تلك التي تدرس في المدرسة، وبسبب كوني خجولًا إلى حد ما. لقد احتقرني بعض الرفاق وجعلوا حياتي صعبة. في أعماقي كنت أرغب في أن أكون قائدًا، يقود الآخرين، لكن تم إسكاتي مما أثر سلبًا على تعليمي. كان لدي محرك سيارة "بورش" في هيكل "سيارة ذات قوة حصانين".

بسبب ذلك، زرعتُ في نفسي استياءً عميقًا من الاستهزاء بالعدالة، والإحباط والشك. لقد عانى تقديري لذاتي لفترة طويلة. لقد رأيت زملائي في الصف كمنافسين، لأنني شعرت أنهم كانوا أفضل مني. في كثير من الأحيان كنت أبتلع غضبي وأدفن نفسي في الداخل. وكانت النتيجة نوبات غضب، وعدوانية يصعب السيطرة عليها، وآليات دفاع غير ملائمة. وبالتالي، فإذ كان رفاقي لا يفهمون سبب تصرفاتي، فقد كانوا يميلون إلى احتقاري.

لقد شعرت بالاشمئزاز في كثير من الأحيان عندما لاحظت أن الأشخاص الأكثر نجاحًا في الحياة، يقولون كلامًا سهلًا، لا يتبعونه بأي أفعالٍ. لقد عرفوا كيفية التملق والمداهنة، ولكن من جهة أخري كان يمكنهم السرقة والخداع مع الإفلات من العقاب. كان يكفي لهؤلاء الناس أن يخفوا لعبتهم جيدًا ولا يتم القبض عليهم. لقد تضخم غرورهم، ومع ذلك، ففي بعض الأحيان، كان البالون يفرغ بنفس

السرعة التي يصل بها إلى الارتفاع بفضل انتفاخه. إن الحياة في كثير من الأحيان تنحاز إلى الجريئين وليس إلى العاملين في الظل.

إن روح المقارنة قديمة قِدم العالم. يبدأ الأمر بالفعل في سن صغيرة جدًا، عندما ندخل في منافسة بين الإخوة والأخوات، سواء على قيمة الهدية أو حجم قطعة الكعكة. كيف يمكننا أن نوضح أن الفردية هي ثروة وقيمة وأن المساواة هي فخ؟ كوالد، كنت أواجه في كثير من الأحيان حدودي، عندما كان أطفالي يتجادلون حول من هو الأفضل أو الأسرع أو الأطول. قد تقول إن هذا أمر يتعلق بالطفولة، أليس كذلك؟ ومع ذلك، فأن ذلك متجذر بعمق في طبيعتنا البشرية.

انظر إلى التلاميذ الذين اختارهم يسوع ليكونوا قدوة وقادة وقت رحيل معلمهم. كم مرة استسلموا لتجربة اشتهاء المراكز الأولى؟ كثيراً ما ظهر التنافس والمقارنة في قلب اهتماماتهم. دعونا نرى بطرس، المتحمس دومًا، والذي يسرع بوضع نفسه دومًا في المقدمة؛ فيكون أول من ينكر ربه. لكنه ليس الوحيد، ولنتذكر هذه الكلمات التي تبرز روح التنافس.

"وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ أَيْضًا مُشَاجَرَةٌ مَنْ مِنْهُمْ يُظَنُّ أَنَّهُ يَكُونُ أَكْبَرَ. فَقَالَ لَهُمْ: «مُلُوكُ ٱلْأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَيْهِمْ يُدْعَوْنَ مُحْسِنِينَ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَيْسَ هَكَذَا، بَلِ ٱلْكَبِيرُ فِيكُمْ لِيَكُنْ كَٱلْأَصْغَرِ، وَٱلْمُتَقَدِّمُ كَٱلْخَادِمِ."[٢٨] "وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ٱبْنَا زَبْدِي قَائِلَيْنِ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كُلَّ مَا طَلَبْنَا». فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟». فَقَالَا لَهُ: «أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَٱلْآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ». فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ.

[٢٨] راجِع أيضًا: (مت ١٨: ١-٤).

أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا ٱلْكَأْسَ ٱلَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِٱلصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟»" (لو ٢٢: ٢٤-٢٦؛ مر ١٠: ٣٥-٣٨).[٢٩]

أهو الكبرياء أم الغيرة أم مجرد نقص في تقدير الذات؟ بعد فوات الأوان، أعلم أن القليل من كل هذا هو ما منعني من تطوير ثقتي في نفسي وفي الموارد الوحيدة التي لا يمكن لأحد أن ينتزعها مني، وهي مواردي الخاصة، فضلًا عن الإمكانات الراسخة في الأعماق. إن الحاجة إلى الاعتراف وإلى تقدير الآخرين والعطش الذي لا يقاوم إلى الحب والاحترام كثيرًا ما منعني من التقدم في مسار حياتي؛ كما لو كان على الآخرين أن يخبروني بما هو جيد بالنسبة لي.

المنافسة والكبرياء

بشكلٍ دائم، فقد درج الناس على قياس أنفسهم مقابل بعضهم البعض، سواء للأفضل أو للأسوأ. إن التحفيز والإثارة الناتجين عن تجاوز مستوى أو حالة قائمة فعلًا، والتنافس مع الأفضل، يمكن أن يدفعنا إلى الأمام ويجعلنا نحقق إنجازات غير مسبوقة. هذه هي الطريقة التي تولد بها المشاريع العظيمة والابتكارات وأخيرًا، العبقريات. إن ذلك يساعدنا على التقدم جسديًا وفكريًا. لكن على العكس من ذلك، فإن التنافس المبالغ فيه يمكن أن يثبط الحافز، بل ويسبب الاكتئاب التام ويدفع إلى بعض التطرف مثل الانتحار. إن بعض الشباب لا يصبحون قادرين على تحمل الضغط الذي يمارسه عليهم آباؤهم أو معلموهم أو أرباب العمل.

"سيتيوس، ألتيوس، فورتيوس"، أي "أسرع، أعلى، أقوى"، هذا هو الشعار الأولمبي الذي ابتكره بيير دي كوبرتان أو بالأحرى الأب

[٢٩] في إنجيل متى، تتوجَّه والدتهما بهذا الطلب إلى يسوع (مت ٢٠: ٢٠-٢٣)؛ حتى الأهل يتدخلون لأجل أبنائهم.

الدومينيكي هنري ديدون في عام ١٨٩٤. إذا كان في الأصل يهدف إلى قضية نبيلة، بما أن الأمر كان يتعلق بأن يحفز المصممون روح الدراسة، وسمو الروح، فضلًا عن القدرات الجسدية، فإن المنافسة المدفوعة إلي أقصي حدودها كانت تحبذ التعسف والإساءة وعلى أنماط مختلفة من الإفراط التي تؤدي إلى تعاطي المنشطات. من خلال تسليط الضوء على المراكز الثلاثة الأولى فقط على منصات التتويج، فإننا نحتقر جميع المنافسين الآخرين المستحقين.

لقد لاحظت أن قائمة المدعين في السياسة كانت طويلة، لكن المنتخبين كانوا قليلين. غالبًا ما كان أداء الطموحين والمتكبرين أفضل من الآخرين. في الطبيعة يبقى الأقوى فقط؛ أولئك الذين يتمكنون من مقاومة الهجمات الشخصية وحملات التشهير. ألا يقولون إن أفضل دفاع هو الهجوم؟ ويتم القضاء بسرعة على الأشخاص الذين يرفضون الدخول في هذه اللعبة. وهكذا فإن المقارنة تؤدي إلى المنافسة، وغالبًا ما يؤدي التنافس إلى احتقار الآخر، مما يؤدي إلى القِبَلِية والقومية وفي النهاية الحروب.

ويحثنا الرسول بولس بدوره على تدريب أنفسنا لننال المركز الأول في السباق السماوي (١كو ٩: ٢٤). إن الإيمان مثل الماراثون؛ إنه يتطلب القدرة على التحمل للوصول إلى النهاية. عليك أن تزرع الكثير لتحصل على محصول جيد. فإذا كان الطموح أمرًا جيدًا، لأنه يساعدنا على تحقيق أهداف سامية، والتدريب شرط ضروري لبلوغ النهاية، فيجب تجنب الكبرياء واحتقار الخصم.

الغيرة

الغيرة هي أحد الأسباب الكامنة وراء الحاجة غير الصحية لمقارنة الذات بالآخرين. إنها تتغذي على انطباع بأن هناك دائمًا شيء ناقص، أو بالأحرى على الخوف من تفويت شيء ما. يظهر

هذا في كل مرة نشتهي فيها شيء أو صفة خاصة بجيراننا. ولسوء الحظ، فإن هذا الشعور يتغذى من تجارب المعاناة وخيبة الأمل، وهو ما لا يبشر بالخير. يذكرنا علماء النفس أن الغيرة سببها التجارب والأفكار والتصورات والذكريات، ولكنها أيضًا ثمرة من نسج خيالنا. وبالتالي فإن الغيرة لا تقوم على الواقع، بل على الأوهام والخيال.

مثل المقارنة، فإن الغيرة منتشرة بشكلٍ خاص بين الأشخاص الذين يعانون من تدني احترام الذات. إنها تتغذى على الأحزان التي يعاني منها الطفل الصغير: الإحباط من وجود أشقاء يبدو أنهم أكثر نجاحًا أو يحصلون على الأفضل بسهولة أكبر. وبالتالي فإن هذه المشاعر هي مشاعر عدم الرضا والحزن المرتبطة بخيبة الأمل.

لمحاربة شعور الغيرة، فلا فائدة من دفنه في أعماق نفسك أو إنكاره. لا يوجد سوى العمل على الذات وتعزيز التجارب الإيجابية، المستمدة من النجاحات الصغيرة في الحياة اليومية، التي يمكنها تحويل الغيرة وتجاوزها. وهكذا فإن اختلافاتنا هي في حد ذاتها غني، وقبول الذات يصبح أساسًا للإنجاز.

أحبُّ مَثَل الوزنات هذا (مت ٢٥: ١٤-٣٠) الذي به يكشف يسوع قلب الله. قد يبدو من الظلم أن السيد لا يعامل كل خادم بنفس الطريقة: فيعطي الواحد ٥٠٠ وزنة، والآخر ٢٠٠، والثالث ١٠٠ (الآية ١٥). الفرق يتراوح من واحد إلى خمسة أضعاف. وفي النهاية، يبدو أن الشخص الذي حصل على الأقل يُحكم عليه بقسوة أكثر من الأولين.

ولكن عند الفحص الدقيق، يتبين أن هذا الظلم واضح فقط، لأن السيد يعطي كل واحد حسب قدرته (الآية ١٥). أولًا، المبلغ، حتى بالنسبة للأخير، كان كبيراً جدًا بالفعل، لأنه يعادل مبلغًا ضخمًا من المال. هذا القرض سخي ويشير إلى أن السيد يعرب عن ثقة كبيرة

في خدمه. إن هدية الحياة هي أغلى الهدايا ويجب على المرء أن يعرف كيف يكون ممتنًا للخالق.

ثانيًا، هناك اختلافات مهمة بين البشر. ينشأ البعض في بلد غني أو في أسرة ثرية، والبعض الآخر أكثر إبداعًا منهم كمنتجين. ولا يزال لدى البعض الآخر قدرات فكرية محدودة أو يولدون معاقين. إنه واقع من المستحيل الهروب منه، لكنه لا يمنعك من تنفيذ مشاريع عظيمة والعيش بسعادة. ومن المعروف أن أغنى الناس غالبًا ما لا يكونون الأكثر إشباعًا، وأن أولئك الذين يصبحون مشهورين بسرعة كبيرة جدًا لديهم ميل قوي إلى الاستسلام للإدمان.

ثالثًا، لا يطلب السيد نفس النتيجة من كل واحد من خدمه. إنه يتوقع أكثر من الشخص الذي حصل على أكثر. والشخص الذي يوبخه في النهاية، هو الذي لم يجعل ماله يثمر، بل كان خائفًا متكاسلاً. فبدلًا من مواجهة الحياة والمجازفة وبالتالي خوض تجارب إيجابية أو سلبية، دفن موهبته وبالتالي أغلق نفسه أمام أي إمكانية للتطور.

"ثُمَّ جَاءَ أَيْضًا ٱلَّذِي أَخَذَ ٱلْوَزْنَةَ ٱلْوَاحِدَةَ وَقَالَ: يا سَيِّدُ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ قَاسٍ، تَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ تَزْرَعْ، وَتَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَبْذُرْ. فَخِفْتُ وَمَضَيْتُ وَأَخْفَيْتُ وَزْنَتَكَ فِي ٱلأَرْضِ. هُوَذَا ٱلَّذِي لَكَ. فَأَجَابَ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْعَبْدُ ٱلشِّرِّيرُ وَٱلْكَسْلاَنُ، عَرَفْتَ أَنِّي أَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ أَزْرَعْ، وَأَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ أَبْذُرْ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَضَعَ فِضَّتِي عِنْدَ ٱلصَّيَارِفَةِ، فَعِنْدَ مَجِيئِي كُنْتُ آخُذُ ٱلَّذِي لِي مَعَ رِبًا." (مت ٢٥: ٢٤-٢٧).

ولذلك لا فائدة من مقارنة المرء نفسه بأخيه أو جاره. ليس لدينا فرص متساوية في الحياة. والغيرة لن تصلح أي شيء. بل على العكس من ذلك، فهي تزيد من سوء حالنا، بل تبطئنا وتعمينا. إنها تمنعنا من التعرف على نقاط قوتنا وتصرفنا عن الأساسيات.

قايين وهابيل: قصة غِيرة قاتلة

كما سبق أن رأينا، فإن مشكلة المقارنة متجذرة بعمق في إنسانيتنا. إنها تتكون فينا ونحن ننمو وتتجذر في أعمق أعماق طفولتنا. لكنها تسيطر أيضًا على ضعفنا البشري وتنتشر في عمق سلوكياتنا التي نتعامل بها كبالغين بشكل سيء. لذلك ليس من المستغرب أن نجد أمثلة لا حصر لها في نصوص الكتاب المقدس. تستخدم الحية الشهوة لصرف انتباه آدم وحواء عن علاقتهما الخاصة مع خالقهما. وهذا يؤدي بعد ذلك إلى التنافس بين الزوجين، قبل أن ينتشر إلى أطفالهما.

تذكر قصة قايين وهابيل (تك ٤)، أول أبناء عرفتها البشرية. إننا نري فيها قايين يقارن نفسه مع أخيه، ويستسلم لنوبة من الغيرة، وأخيراً يقضي على أخيه بدم بارد في لحظة مفاجئة، إذ لم يستطِع تحمل التوتر الناشئ عن الاختلاف بينهما. مع ذلك، كان لدى الأخوين علاقة شخصية مع إلههما، الأمر الذي كان ينبغي أن يمنعهما من الدخول في صراع الغيرة.

لكن مثل كل البشر، كان لدى الأخوين شخصيتين مختلفتين تمامًا. إنهما يتخذان خيارات حياة متميزة ومتباينة. كان ينبغي أن يؤدي ذلك إلى ازدهارٍ شخصي على أساس القيم الفردية لكل منهما، ولكن بدلًا من التركيز على تفرده، يحول قايين نظره عن هدفه الشخصي إلى التركيز على شخصية أخيه. وبمجرد أن يبدأ في مقارنة التقدمة المعدة لإلهه بتلك التي قدمها أخيه، ينسى الهدف من وراءها. وبدلاً من التركيز على علاقته مع الله والدخول في لحظة شكر لأبيه السماوي على ثمار عمله، يسقط وجهه، ويصبح مظلمًا (الآية ٥)، ويطلق لمشاعر التمرد والغيرة العنان.

كان قايين فلاحًا. يزرع الأرض؛ بينما كان أخوه هابيل راعي غنم. وفي نهاية الموسم، وكنوع من الشكر لله كما جرت العادة، كانوا يعدون قربانًا ويقدم كل منهم أفضل منتجاته: ثمار الأرض للأول وذبيحة للثاني. ومع ذلك، ليست هذه هي المشكلة، لأن الله لا يميز بين التقدمتين.

إن أصل الشر ينبع من موقف القلب. وأصل اسم قايين قريب من الفعل الذي يستخدم لقول: أنجب، أما هابيل فمعناه الضباب، والنَفَسُ، والهشاشة. يوحي النص الكتابي من خلال الاسم بشعور معين من الكبرياء من جانب أمهم حواء عندما وضعت ابنها البكر. يبدو أن الأم تتخذ موقف التفوق، ولا تتردد في وضع نفسها على قدم المساواة مع الله، الخالق. علاوة على ذلك، فهي لا تعامل هابيل على قدم المساواة مع أخيه. وعلى العكس من ذلك فإن آدم أبو الأخوين في هذا المقطع يظهر غيابه.

"وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ ٱمْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «ٱقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِنْ عِنْدِ ٱلرَّبِّ». ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلًا فِي ٱلْأَرْضِ." (تك ٤: ١، ٢).

وبهذا المعنى، يشير اسم قايين ومهنته إلى تصرف يسوده حب التملك، وحتى التكبر، على عكس هابيل الهش. لا يقول النص الكثير عن هابيل، إلا أن ذبيحته كانت مقبولة عند الله. ولذلك يمكننا أن نستنتج من اسمه وسلوكه موقفًا قلبيًا معينًا يدل على التواضع وصفات الشخص الذي يحب الدخول في علاقة. بطريقة ما، نجد أنفسنا مع قايين وهابيل أمام نفس الفرق الأساسي الواضح بين "الوجود" وبين "التملك".

هل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك ونقول إن قايين قد ورث مشكلة هوية من أمه؟ هي التي يبدو أنها بحاجة إلى إيجاد مبرر لوجودها من

خلال الأمومة؟ لماذا يدخل قايين في منافسة مع أخيه، وبالتحديد في العالم غير المادي، أي الروحي؟ تختلف مهنتهما، كما تختلف شخصيتهما التي تميزهما: فالأول اختار أن يعمل في الأرض بجد ليخرج منها الحياة، بينما هابيل راعي يسهر على سلامة قطعانه. مهنياً، فقد اعتاد قايين على تركيز نظره إلى الأسفل، على البراعم الصغيرة التي تحتاج إلى الاهتمام والحماية من الأمراض والمخاطر التي قد تصل إليها. وعلى العكس من ذلك، يجب على أخيه رفع عينيه ومسح الأفق لتوقع الحيوانات المفترسة والمخاطر التي يمكن أن تهاجم حيواناته.

لقد اختلفت المهنتين وكذلك اختلفت نظرة كل منهما إلى الحياة. إن الخياران المهنيان متساويان وضروريان بنفس القدر لصالح المجتمع. ولكن عندما يفقد الإنسان رؤية الهدف من وجوده، فإنه يدخل في منافسة، وبالتالي يقطع نفسه أيضًا عن إلهه. من خلال مهاجمة أخيه، يكون قايين قد أخطأ الهدف. معتقدًا أنه قد حرر نفسه من مشكلة شخصية بقتل أخيه هابيل، فإنه على العكس من ذلك سيعاني طوال حياته من الذنب الناجم عن جريمته. وهذا سيمنعه من الازدهار والدخول الكامل في المشاريع التي أعدها له خالقه.

للوهلة الأولى، تعطي القصة انطباعاً أن قايين كان على حق في اعتقاده أن الله يبتعد عنه: فتقدمته غير مقبولة مثل ذبيحة هابيل. لكن يبدو الأمر كأنه ظلم واضح، لكن على العكس من ذلك، سيكون الله مهتمًا بقايين أكثر من اهتمامه بأخيه. الحوار الذي يجري بين قايين والله يسلط الضوء على الطبيعة الحقيقية للمشكلة. إنه غضب قلب قايين الذي يتحول إلى غضب بين الأشقاء. أما الله فيطلب الاتصال به ويميل إلى التفاهم معه وأن يجعله يغير موقفه. لو كان قايين قد استمع للرب، لكان قد أتيحت له الفرصة أن يرفع عينيه هو الآخر، للبحث عن شخص الرب الذي أعد له قربانًا ولأعاد الاتصال به.

"فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا ٱغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلَا رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ ٱلْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ ٱشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا.»" (تك ٤: ٦-٧).

يخبرنا التاريخ أن إغراء الخطيئة للأسف يكون الأقوى في كثير من الأحيان، لقد أطلق قايين العنان لدوافعه غير الصحية، بدلًا من أن يستمع إلي صوت قلبه وإلي صوت العقل. الشيء نفسه ينطبق علينا، عندما ننأى بأنفسنا عن إنسانيتنا الهشة، نتحول إلى مُعَذِّبِينَ ومُضْطَهِدِينَ. عندما نسعى لأن نصبح أسياد أنفسنا، وأن نحقق العدالة بأنفسنا، فإننا نضع أنفسنا في موقف المتعالين عن الله ذاته، وبالتالي نفقد القدرة على التحكم والسيطرة على ميولنا القاتلة. مثل قايين، نفقد في النهاية سبب حياتنا وقد نمارس طقوسًا دينية تفتقد هدفها الحقيقي وهو إكرام الخالق.

يعقوب وعيسو: محاولة تغيير المصير

قصة أخرى تعطي مكانًا كبيرًا للتنافس بين شقيقين. هذه هي القصة بين يعقوب وعيسو، التوأم لإسحاق ورفقة (تك ٢٥-٣٣). لقد سَعَت رفقة إلى فرض القدر وتفضيل ابنها المميز يعقوب بوسائل غير مشروعة، بعد فشلها في الثقة بوعد الله والسماح له بالتصرف بسيادة. لقد أدي هذا في النهاية إلى زعزعة استقرار التوازن الأسري الهش بشكل مستمر.

"فَقَالَ لَهَا ٱلرَّبُّ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ، وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ، وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ». فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. فَخَرَجَ ٱلْأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ، فَدَعَوْا ٱسْمَهُ «عِيسُوَ». وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ ٱسْمُهُ «يَعْقُوبَ». وَكَانَ إِسْحَاقُ ٱبْنَ سِتِّينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا. فَكَبِرَ ٱلْغُلَامَانِ، وَكَانَ عِيسُو إِنْسَانًا يَعْرِفُ ٱلصَّيْدَ، إِنْسَانَ

ٱلْبَرِّيَّةِ، وَيَعْقُوبُ إِنْسَانًا كَامِلًا يَسْكُنُ ٱلْخِيَامَ. فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُوَ لِأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْدًا، وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ." (تك ٢٥: ٢٣-٢٨).

يشير النص إلى أن التنافس بين التوأمين قد بدأ مبكرًا جدًا، لأنهما كانا بالفعل في بطن الأم يركلان بعضهما البعض في رحمها (الآية ٢٢). في نهاية حياتهما، ينجب الشقيقان شعبين سيتطوران ويبقيان كدولتين متنافستين. أصبح يعقوب من نسل العبرانيين، بينما أسس عيسو أمة الأدوميين، التي تقع أراضيها جنوب البحر الميت.

على الرغم من أنهما توأمان، إلا أن الأخوين مختلفان تمامًا عن بعضهما البعض. الأول مشعر بشكل خاص وله مزاج حاد نشط، في حين أن الثاني هو شخص منزلي ومجتهد.[٣٠] بطبيعته المغامرة، يخرج عيسو أولًا من الرحم، وبالتالي يجد نفسه في وضع الابن البكر الذي يثير الحسد بكل ما يتمتع به من حقوق البكر. من جانبه، يستخدم يعقوب عقله المفكر والحاد والماكر لسرقة الأسبقية من أخيه بمهارة وخِفة. في الواقع، ذات مساء، عاد عيسو إلى بيته جائعًا ومنهكًا بعد العمل الشاق في الحقل، ولم يدرك حقًا ما الذي يفعله أخوه عندما ينتزع منه بكوريته مقابل طبق عدس (تك ٢٥: ٣٣).

كما هو الحال في كثير من الأحيان في النزاعات داخل الأسرة، فإن هذه التوترات تتغذى على قضايا المحسوبية. إسحاق، الأب، هو أقرب إلى ابنه البكر، ويظهر هذا أنه أكثر رجولة بطبيعته، لأنه رجل يحيا في الهواء الطلق ويحب الصيد. تفضل رفقة يعقوب الذي يبقى قريبًا منها ويُعْمِلُ عقله باستمرار ويحب أن يؤدي لها الخدمات التي تطلبها. من الواضح أن هذا الوضع غير المتوازن لا يساعد على التطور المتناغم للزوجين والمنزل.

[٣٠] معنى اسم عيسو، هو المُغطَّى بالشَعر، واسم يعقوب مُستمَد من كلمة عقب.

كان من الممكن أن تظل هذه الحلقة مجرد نزوة بين الطفلين. لكن، بعد عقود، تقترب لحظة موت الأب إسحق. ويجهز لخلافته ويرغب في نقل السلطة الأبوية إلى أكبر أبنائه، وكما تملي التقاليد، يطلب منها إعداد حفل المباركة حول وجبة جيدة ويرسلها للبحث عن فريسة. لقد فاجأته رفقة بينما كان يعطي تعليماته، وقررت أن تستغل ضعف زوجها العجوز الذي أصبح أعمى لتمرر ابنها المفضل يعقوب لأخذ البركة، بدلًا من أخيه عيسو. من أجل ذلك، ساعدت يعقوب حتى يتمكن من تقديم الوجبة المطلوبة قبل أخيه، استخدمت حيلة حتى لا يتمكن زوجها من تمييز يعقوب جسديًا وبالتالي يكشف القناع عنه. وهكذا، وبالخداع، تمكن يعقوب من سرقة البركة لمصلحته الخاصة (تك ٢٧: ٥، وما يليها).

يبدو أن هذه الخدعة قد نجحت. إسحاق، بمجرد أن أعطى كلمته، لا يستطيع النكوص عنها، مما أثار استياء عيسو وغضبه. لكن العواقب جاءت مؤسفة أكثر لأنها أخلَّت بالتوازن الأسري الهش. يجب على يعقوب منذ الآن الهروب بشكل دائم من منزل الوالدين هربًا من انتقام أخيه. لن يرى والدته مرة أخرى أبدًا ولن يجد أخيه أخيرًا إلا بعد عقدين من الزمن. علاوة على ذلك، عندما بدا اللقاء وشيكًا، توقع يعقوب الأسوأ، وخاف مرة أخرى على حياته (تك٣٢-٣٣). وكانت النتيجة إيجابية في النهاية، حيث أصبح كل من الأخوين يتمتع بوضع شخصي جيد. ومع ذلك، فإن التنافس لم يهدأ، حيث أصبح البلدان جارين وبقيا في صراع بعد عدة قرون.

للوهلة الأولى، يبدو أن مخططات رفقة ويعقوب قد أتت بثمارها. ويبدو أنهما من خلال تصرفاتهما قد فضلا تحقيق خطة الله، المعلنة منذ البداية، وهي أن الأكبر سيستعبد للأصغر. ولكن في مقابل خسائر بشرية كبيرة. إن العائلة ستظل منقسمة إلى الأبد، وهذا بالتأكيد لم يكن جزءًا من الإرادة الإلهية. إذا كان الله قد خطط ليعقوب أن يصبح جد الشعب العبراني، فإنه كان سينفذ خططه بطريقته

الخاصة. ولم يكن محتاجًا إلى عنق الظروف بالخداع والغش لكي تتحقق.

إن نفاد الصبر ليس هو الحل أبدًا، بل على العكس من ذلك: "بِٱلرُّجُوعِ وَٱلسُّكُونِ تَخْلُصُونَ. بِٱلْهُدُوءِ وَٱلطُّمَأْنِينَةِ تَكُونُ قُوَّتُكُمْ." (إش ٣٠: ١٥). هذه الكلمة أُعطيت لي عندما كان عمري ٢٠ عامًا، وهي ترافقني منذ ذلك الحين. لقد وجدت في كثير من الأحيان أنه من الصعب عليَّ الانتظار حتى تنضج الظروف من تلقاء نفسها قبل الانطلاق في المسار المرسوم. ومع ذلك، مع تقدمي في السن، أجد أنه عندما تُفتح الأبواب من تلقاء نفسها، تبدو النتائج مثل الفاكهة الناضجة التي يجب قطفها. إنها أكثر فائدة واسترخاء. عندها نرى يد الله الفاعلة فيتقوَّى إيماننا.

مقارنة غير مُبرَّرة

عرف الملك شاول لماذا ابتعد الله عنه. ومع ذلك، بدلًا من أن يقوم بفحص نفسه والدخول في حوار مع إلهه، يُسقط استياءه وغضبه على داود. ومع ذلك فهو الذي دعا الشاب داود إلى البلاط لكي يهدئ من اضطرابه بالمقطوعات الموسيقية. ولكن بدلاً من أن يفرح بما يعود عليه بالنفع، فإنه ينكب على ذاته ويمتلئ غيرة منه. كان يرى في داود الشاب هذا منافسًا لديه كل ما يفتقر هو إليه: السلام والثقة وجرعة جيدة من متعة الحياة. إن امتلاك السلطة والثروة لا يكفي بالنسبة له. فهو لا يتحمل أن يرى في داود كل هذه الصفات التي لا يجدها هو في نفسه، فبدلًا من تنمية ذاته الداخلية وإعادة الاتصال بإلهه، فقد أظهر نفوره وشره وغضبه ضد داود، جليًا إلى الخارج.

يمثل داود بالنسبة لشاول كل ما يفتقر إليه: نضارة العمر، والبطولة العسكرية، واعتراف الشعب به، والحماسة والكاريزما المؤثرة. هذا الشاب ليس لديه ما يمكن أن يهدد منصبه وسلطته

كملك، لكنه محبب وحساس ومخلص. حتى أنه أصبح أحد أقرب أصدقاء ابنه يوناثان، وهو الأمر الذي يجد شاول صعوبة في قبوله، ولأنه غير قادر على التحكم في انفعالاته وغضبه، يعتقد أنه وجد الحل من خلال القضاء على منافسه الشاب.

يوضح لنا هذا المثال الجديد كيف يمكن للمقارنة أن تمنعنا من الدخول في علاقات بل وتفسدها، لأنها تعزز حالة التنافس. إنها تشوه الطريقة التي ننظر بها إلى الآخرين. عندما نري الآخر كمنافس، فإننا نضع أنفسنا في مرتبة أعلى منه، على الرغم من أن العكس هو الصحيح بشكل عام: فالمقارنة هي نتيجة لعقدة النقص. هذا الوضع يمنعنا من تحقيق ذواتنا، لأننا بحسدكم للآخر، نشوه مسار حياتنا، لذا فإن الصعوبة تكمن في جانبنا نحن.

أتراني أقوم بإسقاط أخطائي وإخفاقاتي على نظيري؟ أليست هذه محاولة عقيمة أبتسر بها مرحلة من الحياة لازمة جداً للازدهار الشخصي والروحي؟

"أَوْ كَيْفَ تَقْدِرُ أَنْ تَقُولَ لِأَخِيكَ: يَا أَخِي، دَعْنِي أُخْرِجِ ٱلْقَذَى ٱلَّذِي فِي عَيْنِكَ، وَأَنْتَ لَا تَنْظُرُ ٱلْخَشَبَةَ ٱلَّتِي فِي عَيْنِكَ؟ يَا مُرَائِي! أَخْرِجْ أَوَّلًا ٱلْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ، وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا أَنْ تُخْرِجَ ٱلْقَذَى ٱلَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ." (لو ٦: ٤٢).

قبل أن أرغب في إلقاء محاضرة على جاري، يدعوني يسوع إلى أن أفحص نفسي أولًا. ما هي المعايير التي أقارن بها نفسي بالآخرين؟ على أي أساس يمكنني تقييم تقدمي أو الطريق التي أسلكها؟ كما رأينا أعلاه، غالبًا ما يكون جسدنا وأرواحنا مشبعين بطبيعتنا الخاطئة وسطحية نظرتنا للعالم لدرجة أننا نفقد كل قدرتنا على اتخاذ قرارات سليمة وواقعية.

من خلال وضع نفسي في موقف التنافس، أتخذ موقع المتفرج، حتى عندما يدعوني الله لأكون فاعلًا في مصيري. غالبًا ما ترتبط المقارنة بجشع غير صحي يرفض النظر إلى ما يناسبني وما امتلكه فعلاً: رحلة الحياة التي قمت بها بالفعل، وحجم الثروات المادية وغير المادية التي أعطاني إياها الرب. بدلاً من ذلك، أركز على ما ليس لدي وأنسى ما يمكنني تقديمه للآخرين بالإضافة إلى الإمكانات الهائلة الموجودة في المشاركة والعطاء.

عندما أترك مصير الآخرين كشأن يخصهم، أستطيع أنا أيضًا أن أحقق ما يخصني.

(٤) الخوف

لم يمضِ زمنٌ طويل منذ توقفنا جميعًا بسبب جائحة فيروس كورونا. كان عدد المرضى يتزايد يومًا بعد يوم، وكان الاقتصاد يواجه واحدة من أكبر الأزمات في عقدنا هذا. طلبت منا السلطات عدم الخروج قدر الإمكان، والحفاظ على مسافة بيننا وبين الآخرين ووضع أنفسنا في الحجر الصحي بمجرد ظهور أدنى أعراض. وتتابعت الرسائل المثيرة للقلق واتخذت نطاقا غير مسبوق، حتى عندما طلبت منا السلطات عدم الذعر، لكن كان هذا في الواقع مهمة مستحيلة.

خاف بعض جيراننا على صحتهم ولم يعودوا يخرجون من بيوتهم قط، وقام آخرون بتخزين المواد الغذائية والتموينية والحاجات الأساسية. كان المزيد والمزيد من الموظفين يترددون في القدوم إلى العمل. لقد تخلى الأجداد عن رعاية أحفادهم، الذين كانوا يعتنون بهم كل أسبوع. وكان الخطر غير مرئي، ولكنه كان موجودا في كل مكان، ومنتشرا في كل مكان، ويمكن أن يؤثر على أي شخص.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك هو معرفة من المستفيد من الذهان الذي أصاب الجميع. بالنسبة للبعض، كان الله هو الذي هز الكوكب. وبالنسبة للآخرين، كان ذلك علامة على أن العالم يسير بشكل خاطئ للغاية وأن البشر يفقدون السيطرة. كان نظامنا البيئي بأكمله ينهار بسبب الجنون الذي يسببه الإنسان. وبعد أن تعبر الجائحة، يمكننا أن نضحك ونضع الأمور في نصابها الصحيح مرة أخري. لكن الخوف يزرع الشك ويمنع اتخاذ القرارات الصحيحة. من الواضح أن الخوف ليس مستشارًا جيدًا أبدًا، لأنه لا يأتي من الله.

"لِأَنَّهُ لَا يَتَزَعْزَعُ إِلَى ٱلدَّهْرِ. ٱلصِّدِّيقُ يَكُونُ لِذِكْرٍ أَبَدِيٍّ. لَا يَخْشَى مِنْ خَبَرِ سُوءٍ. قَلْبُهُ ثَابِتٌ مُتَّكِلًا عَلَى ٱلرَّبِّ. قَلْبُهُ مُمَكَّنٌ فَلَا يَخَافُ حَتَّى يَرَى بِمُضَايِقِيهِ." (مز ١١٢: ٦-٨).

موتٌ، أم وسيلة للتقدم؟

الخوف هو عاطفة أساسية. هناك نوعان من الخوف، خارجي وداخلي. يعمل الخوف الخارجي على تنبيه أجسامنا عندما يواجه خطرًا وشيكًا. إنه مفيد، بل وضروري لأنه ينطلق من غريزة البقاء لدينا. إنه يسعى لتجنب الخطر أو الإزعاج المحتمل. كما هو الحال في جميع الحيوانات التي تواجه حيوانًا مفترسًا، يؤدي هذا الخوف إلى سلوك تجنب الخطر، أو حتى الهروب.

وعلى العكس من ذلك، فإن الخوف الداخلي أكثر غدرًا، لأنه مرتبط بمشاعر سلبية. إنه يعوقنا ويسحقنا تحت ثقل لا نستطيع تحمله. وهذا الخوف غادر لأنه يعمينا ويخدعنا بشأن قدراتنا. إنه يزرع الشك ويولد ضغوطًا غير ضرورية. يمكن إدراك أصله بطرق مختلفة: تدني تقدير الذات، أو صوت المخرب الداخلي، أو حتى عدو أرواحنا.

إنني أعرف جيدًا هذا الشعور بعدم الثقة والخوف المنتشر الذي أبطأني في الماضي وجعل حياتي صعبة. لقد توقعت المشاكل وركزت على أي شيء قد لا ينجح. بدلًا من أن أكون واثقًا بشأن المستقبل، كنت أبني عقباتي الخاصة وكان ذلك يضغط علي. لكن الله عمل في قلبي وفتح لي طرقًا جديدة في حياتي كانت أكثر راحة.

كانت إحدى الصعوبات التي واجهتني هي الخوف من فقدان السيطرة على الأحداث. كان لدي شعور بأنني غير مؤهل لإدارة ما هو غير متوقع في الزمان والمكان. عندما كان يتعين عليَّ أن أقوم بتدريس شيء أو شرحه، كنت أقوم بدراسة الكثير من المواد خشية أن يفوتني شيء. لقد بذلت جهدًا كبيرًا قبل رحلة ما أو حدث معين، لطمأنة نفسي من خلال توقع كل التفاصيل وبالتالي تجنب الوقوع في مفاجآت. لقد قمت بسهولة بتفويض مسؤولياتي لزملائي أو أصدقائي ليطمئنوني ويكونوا بجانبي في حالة ما إذا ارتبكت أو تعطلت.

مثل كثير من الناس، كنت سعيدًا بالبقاء في منطقة الراحة الخاصة بي. وعلى الرغم من أنني شخص لا يحب الروتين بشكل خاص، إلا أنني عشت في توتر مستمر، بل وضغط داخلي مستمر، بين الانجذاب إلى الحداثة والخوف الكامن في الخطوات اللازمة لتجربتها. من الواضح أن المشكلة كانت عميقة في داخلي: لقد عانيت من عدم الثقة بالنفس.

عندما كنت في سن المراهقة، كنت أعاني من الخجل. كنت غير مرتاح خاصة مع النساء. كان من الصعب عليَّ أن أطلب من فتاة أن تأتي لترقص معي خلال حفلة أو معسكر تزلج. أتذكر مسرحية كان عليَّ فيها أن ألعب دور رجل في منتصف العمر كانت زوجته غير مخلصة. لقد استغرق الأمر بعض الوقت لترويض مخاوفي والتجرؤ على معانقة فتاة بشكل طبيعي. بعد ذلك، بعد أن وقعت في حب إحدى

صديقاتي، ولكنني لم أتمكن من التعبير عن مشاعري لها، شعرت بالقلق من مجرد إمكانية أن أصادفها أو أن أقابلها خلال جلسة.

لقد واجهت تجارب مختلفة في الحياة أجبرتني على مواجهة مخاوفي والعمل على الجوانب الإشكالية في شخصيتي. لقد سقطت على رأسي حرفيًا العديد من الأسئلة، ولم تترك لي سوى القليل من الراحة لهضمها والتغلب عليها. لكن الله كان يأتي لإنقاذي دائمًا. لقد تحققت وعوده، حتى لو احتاج الأمر إلى وقت أطول مما كنت أتوقع. عندما كان باب يُغلق، كان الله يفتح نافذة.

بعد خمس سنوات من التدريب والممارسة المهنية، اضطررت إلى ترك وظيفتي كقس لكنيسة وبالتالي التخلي عن الخدمة فيها. كان لدي بالفعل طفلان صغيران وعائلة لأعتني بها. بالنسبة لي، كان ذلك يمثل قفزة في الفراغ. بعد بعض عمليات بحث فاشلة للعثور على عمل، قررت استئناف الدراسات العليا في الإدارة العامة. كانت الكنيسة الإصلاحية تعمل أيضًا كإدارة شبه حكومية كبيرة، ولم أجد صعوبة في التحقق من صحة مساري المهني. كانت الدراسات اللاهوتية المؤدية إلى درجة الجامعة، قد سهلت الاعتراف بالدرجات التي حصلت عليها والتي كانت شرطاً أساسياً للقبول في التدريب.

من الواضح أنها كانت طريقة الله. لقد خضعت للمقابلة واختبار القبول. كل شيء سار دون أي صعوبات خاصة. لقد خططت لإجراء هذا التدريب بدوام كامل أثناء إنجاب أطفال صغار. عندما اتصل بي المعهد لإبلاغي بقبولي، أشاروا ضمنًا إلى أنه لا يزال لديهم عنصر للتحقق من صحته. بمجرد إغلاق الهاتف، أزعجتني هذه المعلومة لفترة طويلة حتى اتصلت بهم مرة أخرى. وهناك علمت أنهم سيقومون بإعطائي منحة دراسية، دون أن أطلبها. لم يكن ذلك بالنسبة لي مجرد استجابة لصلواتي، بل كان بمثابة معجزة حقيقية للصلاح الإلهي. وهكذا تمكنت لأكثر من عام من التفرغ للدراسات

التي شغفت بها واكتسبت من خلالها مهارات لا زالت تخدمني حتى اليوم.

شبح الخوف

في أوسلو، وخلال مؤتمر دولي، أتيحت لي الفرصة لزيارة متحف إدوارد مونك، وهو رسام محلي معروف. كانت أشهر أعماله، والتي سرقها قطاع الطرق منذ سنوات قليلة، هي "الصرخة". وهي لوحة انطباعية تمثل رجلًا مشوه الوجه، وفمه مفتوحًا على مصراعيه، ويغمره الخوف، ولكن دون أي سبب حقيقي يبرر هذا الانفعال. اللوحة تنقل لك شعورًا قويًا بالرهبة. كل شيء حول الوجه ضبابي ويبدو كما لو أنه يتحرك. لقد تم تناول نفس الموضوع ورفضه في العديد من اللوحات الأخرى المشابهة، مما يدل على أنه يمثل عاطفة قوية للغاية قد عاشها هذا الفنان. لا يزال التعبير الشديد لهذا الرجل المعذب يطاردني. إنها تحكي الكثير عن الحالة العاطفية التي يعيشها مؤلفها والأوهام التي كانت تنخره من الداخل.

أثناء البحث في هذا الموضوع، واجهت تحديًا من ثراء المفردات عندما يتعلق الأمر بالتعبير عن مشاعر الخوف. وهذا يوضح مدى قوة هذا الشعور في مخيلتنا الجمعية. إنه مؤشر مهم لمدى ضخامة الصدمات التي أحسسنا أو مررنا بها جميعًا والتي تؤثر في أعمق أعماقنا:

التوتر => القلق => الخوف => الخشية => الكرب => الرهاب => الرعب => الرهبة => الذعر => الهلع.

إن المحفزات الكامنة وراء مشاعر الخوف هذه تكاد تكون متنوعة بتنوع المفردات المستخدمة لوصفها. يبدأ الأمر بالمخاوف المرتبطة بالليل، مثل أن يجد الانسان نفسه غارقاً في بيئة معادية مثل الماء أو

ظهور حشرات معينة. وبشكل أعمق، هناك أيضًا الخوف من أن تكون وحيدًا، أو من أن تمر بعذابٍ ما، أو من أن يتم التعرف عليك عندما تحاول أن تمر دون أن يلاحظك أحد.

لقد أصبحنا معتادين على التمثيل الهزلي في المجتمع وادّعاء حياة مثالية لدرجة أن مجرد كشف القناع والتعرف على هويتنا الحقيقية يمكن أن يسبب لنا القلق. يمكن تجنب الكثير من التعب وآلام المعدة أو آلام الظهر، إذا قبلنا أنفسنا كما نحن. إنه أمر مرهق جدًا أن تضطر دائمًا إلى إعطاء انطباع جيد عن نفسك، وأن تتحمل هذا العبء حتى تكون ناجحًا في كل ما تقوم به.

يبدو أن بعض الأحلام التي تطاردنا في لياليا، وخاصة السنوات الأولى من حياتنا، مرتبطة بالصدمة التي مررنا بها أثناء ولادتنا. عندما يخرج المولود من بطن أمه، يبدأ بالبكاء، لأنه يبدأ بالتنفس من تلقاء نفسه، ويكون ذلك بمثابة صدمة له. إن تغيير الحالة هذا أمر صادم للغاية. غالبًا ما تعبر عنه ذاكرتنا من خلال أحلام السقوط أو الهبوط الذي بلا نهاية. وتنتهي هذه الكوابيس فقط عندما نستيقظ فجأة من نومنا وتتكرر بشكل دوري. فالألم إذًا جزءٌ أصيل من إنسانيتنا، وذلك منذ بداية مسيرتنا الأرضية، إذ أننا جميعًا قد انتزعنا من رحم الأم.

إذا كانت الولادة يمكن أن تكون حدثًا مؤلمًا للإنسان، فإن الموت هو أكثر إيلاماً من ذلك. إنه يحوم فوق حياتنا كالنسر الذي ينتظر فريسته. الموت مزعج. يمكن أن يضربنا في أي وقت وبطرق مختلفة. وأسوأ ما في الأمر هو عدم معرفة ما بعد الموت. الحياة ليست سهلة بالفعل، لكن الشكوك المحيطة بالرحيل الكبير يصعب التعايش معها، ووسائل السيطرة عليها تكاد تكون معدومة. هذا هو السبب الذي دفع المصريين القدماء إلى بناء الأهرامات، أو الذي لا يزال يحفز الشباب الجهادي اليوم على الموت شهداء.

تحدد "شيلي كاجان" من جامعة "ييل"[٣١] ثلاثة معايير ضرورية لخلق شعور بالخوف: أ) أن يُنظر إلى نتيجة حدث ما على أنها سيئة، ب) الاحتمال الأغلب أن تكون نتيجته قوية، ج) أن يسود هناك قدر كبير من عدم اليقين بشأن الطبيعة الحقيقية لما سيحدث بعد ذلك. إذا كان الموت هو السبب الجذري لأسوأ الكوابيس، وإذا كان وحده يلخص كل هموم الإنسان، فإنه يتوافق جيدًا مع المعايير التي حددتها مدام كاجان. وفي الواقع، لا أحد يعرف ماذا سيحدث على الجانب الآخر. وهذا ينتج عدم اليقين والخوف. الموت هو أكثر إثارة للقلق لأنه يمثل النهاية. لذا فإن الرحيل الكبير يفتح مساحة مجهولة ويثير المخاوف من أن يجد المرء نفسه في مواجهة العدم، أو على العكس من ذلك، أن يضطر إلى تقديم حساب عن حياته.

هناك شيء واحد مؤكد، الجميع سيموتون في يوم من الأيام. إن عدم اليقين الوحيد المرتبط به هو متى سيحدث. يقرر البعض، قبل الأوان، باختيار لحظة وفاتهم، عندما يفقدون كل معني للحياة. إنها طريقة مفاجئة لمواجهة الخوف من الموت والهروب من قبضته. ولكن بفعلهم هذا، بدلًا من أن يختاروا العيش والتغلب على مخاوف الموت، يسقطون في تجربة وضع أنفسهم في موضع الخالق والقاضي. بطريقة ما، فإنهم يعتبرون أنفسهم مركز العالم، ويتجاهلون محيطهم ومجتمعهم والدعوة التي وُضعت على حياتهم.

لكن الرغبة في الوقاية من الخوف من الموت لا فائدة منها. كلما حاولنا السيطرة عليها، كلما زاد الخوف في مطاردتنا، إلى حد جعلنا مصابين بالإحساس بالاضطهاد. والعكس هو الصحيح: كلما زادت ثقتي ووضعت حياتي بين يدي الرب، قل خوفي. إذا قبلت أن الموت قد يأتي بشكل غير متوقع، ولكن أن حياتي هي في يد الله، فليس لدي

[٣١] ش. كاجان، الموت، دار نشر جامعة ييل، ٢٠١٢.

ما أخشاه، لأنه وحده الذي يعرف هذه اللحظة. والموت في حد ذاته لم يعد تهديدًا، بل مجرد عبور إلى الحياة في حضوره.

"لِأَنَّ لِيَ ٱلْحَيَاةَ هِيَ ٱلْمَسِيحُ وَٱلْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَتِ ٱلْحَيَاةُ فِي ٱلْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمَرُ عَمَلِي، فَمَاذَا أَخْتَارُ؟ لَسْتُ أَدْرِي! فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنْ ٱلِٱثْنَيْنِ: لِيَ ٱشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ ٱلْمَسِيحِ، ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا. وَلَكِنْ أَنْ أَبْقَى فِي ٱلْجَسَدِ أَلْزَمُ مِنْ أَجْلِكُمْ. فَإِذْ أَنَا وَاثِقٌ بِهَذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَمْكُثُ وَأَبْقَى مَعَ جَمِيعِكُمْ لِأَجْلِ تَقَدُّمِكُمْ وَفَرَحِكُمْ فِي ٱلْإِيمَانِ." (في ١: ٢١-٢٥).

يُلخِّص الرسول بولس في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس الأصحاح ١١ كل الأخطار التي واجهها خلال ٣٥ عامًا من خدمته الرسولية: السجن، والضرب، والجلد، وهجمات قطاع الطرق، وتحطم السفينة، والغرق، إلخ. بل إنه في أحد الأيام قد تعرض للرجم وترك ليموت (أع ١٤: ١٩). لكنه لم يتخيل في أي وقت من الأوقات التخلي عن الجهاد، بل على العكس من ذلك، فهو متأكد من أن آلامه أيضًا لها معنى وفائدة، " ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا ٱلْإِخْوَةُ أَنَّ أُمُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ ٱلْإِنْجِيلِ." (أف ١: ١٢). إنَّ في آلامه جزءًا من المصير الذي يقع على كل مسيحي، مثل سيده المسيح، الذي بذل حياته ومات ظلمًا من أجل خلاص البشرية.

أجرة الخطية هي موت

"وَأَمَّا ٱلْآنَ إِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ ٱلْخَطِيَّةِ، وَصِرْتُمْ عَبِيدًا لِلهِ، فَلَكُمْ ثَمَرُكُمْ لِلْقَدَاسَةِ، وَٱلنِّهَايَةُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. لِأَنَّ أُجْرَةَ ٱلْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ ٱللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا." (رو ٦: ٢٢-٢٣).

بالنسبة لبولس، هناك أدلة على أن الله قد خلقنا للحياة وليس للموت. ولكن الخطية والشر قد دخلا إلى العالم وسيطرا عليه. لقد

انحرفت العلاقات مع الله وجيراننا وتشوهت إلى حد عزل البشر وحرمانهم من كل أمل في الحياة. لقد أصبح المرض نفسه وجهًا من وجوه الشر الذي يجعلنا نشك في الخير الإلهي ويخرب أساس ثقتنا.

إن الخوف يعوقنا حتى يصيبنا بالشلل التام. فهو يولد حالة من التوتر التي يمكن وحدها أن تسبب الحوادث أو الأمراض. الخوف يمكن أن يزيد من نبضات القلب، ويسبب اضطرابات في الجهاز الهضمي، والصداع، وردود الفعل التحسسية، وحتى الاكتئاب، بل وربما السرطان أيضًا، لِمَ لا؟ إنه يمكنه داخل العائلات أن يزعزع استقرار العلاقات ويثير ردود فعل خبيثة. وبالتالي، فإن الخطية الموجودة في العالم وفي حياتنا هي المسؤولة بشكل مباشر أو غير مباشر عن المعاناة التي نعانيها والتي نسبب بها معاناة الآخرين.

بدأ المزيد والمزيد من الناس يستمدون الحياة بشكل غير مباشر من خلال عرض أنفسهم على الشبكات الاجتماعية. إنهم يتصرفون مثل ممثلين في مسرحية. لقد أصبح المظهر فضيلة. لذلك، في كل مرة يتحركون فيها، يلتقطون صورًا وينشرونها على وسائل التواصل الاجتماعي. إنهم يعلقون أهمية أكبر على ردود الفعل الرقمية أكثر من الاستمتاع بالمشاعر التي يوفرها جمال الأماكن التي يزورونها. لكن لا أحد ينخدع. أجمل اللقطات والعدد الهائل من الأصدقاء على الشبكات لن يغطي الوحدة الداخلية ولن يشبع المعدة الخالية أبدًا.

أن تكون نفسك فإن هذا لا يكلف شيئًا! أما الادّعاء، فتكلفته باهظة. لا شيء مؤكد أكثر من الموت، ولا يمكن لأي حيلة أن ترده. يمكننا أن نتصرف مثل الضحايا الذين يطاردهم عدو غير مرئي، أو يمكننا ترويضه وجعله حليفا. لقد واجه المسيح موته مرفوع الرأس. بفضل هبة حياته، أصبح الموت نفسه موقعًا لأعظم انتصار للبشرية

المتصالحة. أليس مكتوب: "لَيْسَ لِأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لِأَجْلِ أَحِبَّائِهِ." (يو ١٥: ١٣)؟

تعلمت أن الشجاعة ليست غياب الخوف، بل القدرة على التغلب عليه.[٣٢]

إن ترويض الموت يعني الثقة بالحياة. إذا لم يعد الموت مخيفًا، لأننا نعرف الشخص الذي سيرحب بنا على الجانب الآخر، لذا يمكننا أن نواجه تجارب الحياة اليومية بسلام. إنه عدو أرواحنا الذي يسعى إلى الإمساك بنا والتلاعب بنا من خلال الخوف. إنه يبقينا عبيدًا لسلوكياتنا غير الصحية. ولكن إذا كنا مصممين على السماح للرب بقيادة حياتنا، فلن يكون لدينا ما نخشاه.

في كل مرة أذهب فيها إلى مصر، تكون هناك من حولي وفي دائرتي أصوات ترتفع لتذكرني بمدى خطورة الشرق الأوسط. إن اضطهاد المسيحيين هناك أمر حقيقي للغاية، وتحدث الهجمات هناك بانتظام. لكني أحب أن أذكركم بأن المخاطر تنتظرنا في كل لحظة، وأن الموت موجود في شوارعنا كما هو الحال في الضواحي المصرية. من خلال الاستجابة لدعوة من الله، أعلم أنه هو الذي يضمن حمايتي أفضل بكثير مما أستطيع أن أفعل ذلك بمفردي. وفي الواقع، لم أشعر هناك بالخطر أبدًا في أي وقت، وكنت محاطًا بعدد لا يحصى من الأصدقاء والإخوة في الإيمان.

لكن قبل أن أصل إلى ذلك، أعترف أنني كنت أعيش أيضًا حالة من الخوف. لقد عمل الله بداخلي أولًا. لقد كسر القيد الذي كان يربطني. لهذا فقد جعلني أواجه مصاعب مختلفة، أصعبها لحظات فقدان الوظيفة، والشكوك المرتبطة بالبطالة وصدمة الطلاق. من خلال ما مررت به من تجارب، فإن الله قد ساعدني على التعافي في

[٣٢] اقتباس عن نلسون مانديلا.

كل مرة، متيقنًا أن مستقبلي كان مرسومًا بالفعل بين يديه، الأمر الذي مكنني من تعميق ثقتي في عمله الصالح من نحوي.

ومن ناحية أخرى، فقد كان يدفعني إلى القيام بأنشطة منتظمة تجبرني باستمرار على مواجهة مخاوفي وتجاوز حدودي. أتذكر الرحلات والسفرات العديدة التي كان عليَّ القيام بها بمفردي، وفي المحادثات والمؤتمرات التي أجبرتني على الخروج من منطقة الراحة الخاصة بي والقيام بالعديد من الأشياء التي كانت تبدو مستحيلة بالنسبة لي من قبل، مثل، على سبيل المثال، كتابة الكتب. كما شجعني الله على الحصول على رخصة بحار وعلي الإبحار بانتظام. بالإضافة إلى متعة الخروج إلى البحيرة والاستمتاع بجمال الطبيعة، فقد كان ذلك مفيدًا للغاية في ترويض مخاوفي. في الواقع، عندما تكون على الماء، معرضًا للعناصر الطبيعية، يكون كل شيء غير مستقر بشكل خاص. يكون عليك أن تتعلم التعامل مع الرياح المتغيرة باستمرار، دون أن تكون قادرًا على التحكم فيها. المفاجآت والأعطال عديدة ويجب أن تتعلم كيفية ترويضها حتى لا تتعطل رحلتك. من الضروري ارتجال الحلول في حالة الطوارئ، بينما نواجه بمفردنا عناصر الطبيعة. لذلك أعود بذاكرتي إلى هذه الآية التي كانت مهمة بالنسبة لي في مساعدتي على الخروج من أَسْرِ عاداتي:

"أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لَا تُمْسِكِي. أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ." (إش ٥٤: ٢).

المُضي قُدماً بثقة

"أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ ٱلْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرًّا، لِأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي." (مز ٢٣: ٤).

بما أن الخوف هو عاطفة شائعة بين البشر، فلا عجب أن تكون الأمثلة الكتابية وفيرة أيضًا. هناك أناس خائفون، لأنهم يعلمون أنهم مذنبون بارتكاب خطأ ما، وبالتالي يخافون من العقاب، ولكن هناك أيضًا أولئك الذين يقررون أن يضعوا ثقتهم في الرب[٣٣]، عالمين أنهم مرسلين منه ومحمولين على يديه. فيما يلي بعض الأمثلة الرمزية:

- آدم وحواء اللذان يختبئان خوفًا من الله بعد أكلهما من الثمرة المُحرَّمة (تك ٣: ١٠).
- يعقوب الذي يعيش في خوف منذ أن خان أخاه؛ خائفًا من حضور الله (تك ٢٨: ١٧) أو من اقتراب لقائه مع عيسو (تك٣٣: ٨).
- إخوة يوسف عندما التقوا وجهًا لوجه مع أخيهم الذي باعوه عبدًا (تك ٤٢: ٣٥؛ ٤٣: ١٨؛ ٤٥: ٣).
- الشعب العبراني في مواجهة البحر الأحمر، عندما كان جيش فرعون يطارده (خر ١٤: ١٠).
- الشعب الذي يرتعد كله من الخوف أمام جليات، ما عدا داود (١صم ١٧: ١١).
- الملك شاول الذي يخاف داود لدرجة أنه حاول قتله (١صم ١٨: ١٢).
- الرعاة حين أيقظهم الملاك (لو ٢: ٩).
- بطرس الذي يتملكه الخوف وهو يمشي نحو يسوع على الماء (مت ١٤: ٣٠).
- الجنود الذين يحرسون قبر يسوع أثناء قيامته (مت ٢٨: ٤).
- يسوع خائف جدًا؛ فيصير عرقه كقطرات دمٍ نازلة على الأرض (لو ٢: ٤).

[٣٣] لنتفكر في قائمة الشهداء الطويلة المذكورة في الرسالة إلى العبرانيين.

بعض الوعود الإلهية لمَن قرر أن يسير في طرق الرب:

- **يشوع:** "تَشَدَّدُوا وَتَشَجَّعُوا. لَا تَخَافُوا وَلَا تَرْهَبُوا وُجُوهَهُمْ، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ سَائِرٌ مَعَكَ. لَا يُهْمِلُكَ وَلَا يَتْرُكُكَ." (يش ٣١: ٦). "أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لَا تَرْهَبْ وَلَا تَرْتَعِبْ لِأَنَّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ." (يش ١: ٩).
- **الأنبياء:** "لَا تَخَفْ لِأَنِّي مَعَكَ. لَا تَتَلَفَّتْ لِأَنِّي إِلَهُكَ. قَدْ أَيَّدْتُكَ وَأَعَنْتُكَ وَعَضَدْتُكَ بِيَمِينِ بِرِّي." (إش ٤١: ١٠). "فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِي: «لَا تَقُلْ إِنِّي وَلَدٌ، لِأَنَّكَ إِلَى كُلِّ مَنْ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِ تَذْهَبُ وَتَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ بِهِ. لَا تَخَفْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، لِأَنِّي أَنَا مَعَكَ لِأُنْقِذَكَ، يَقُولُ ٱلرَّبُّ." (إر ١: ٧، ٨). "أَمَّا أَنْتَ يَا ٱبْنَ آدَمَ فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ، وَمِنْ كَلَامِهِمْ لَا تَخَفْ، لِأَنَّهُمْ قَرِيسٌ وَسُلَّاءٌ لَدَيْكَ، وَأَنْتَ سَاكِنٌ بَيْنَ ٱلْعَقَارِبِ. مِنْ كَلَامِهِمْ لَا تَخَفْ وَمِنْ وُجُوهِهِمْ لَا تَرْتَعِبْ، لِأَنَّهُمْ بَيْتٌ مُتَمَرِّدٌ." (حز ٢: ٦).
- **الرسل:** "فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ قَائِلًا: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لَا تَخَافُوا.»" (مت ١٤: ٢٧). "وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْأُسْبُوعِ، وَكَانَتِ ٱلْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلتَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ ٱلْخَوْفِ مِنَ ٱلْيَهُودِ، جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي ٱلْوَسْطِ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلَامٌ لَكُمْ!» (يُوحَنَّا ٢٠: ٢١). فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «سَلَامٌ لَكُمْ! كَمَا أَرْسَلَنِي ٱلْآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا.»" (يو ٢٠: ١٩، ٢١).
- **بولس:** "فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِبُولُسَ بِرُؤْيَا فِي ٱللَّيْلِ: «لَا تَخَفْ، بَلْ تَكَلَّمْ وَلَا تَسْكُتْ، لِأَنِّي أَنَا مَعَكَ، وَلَا يَقَعُ بِكَ أَحَدٌ لِيُؤْذِيَكَ، لِأَنَّ لِي شَعْبًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ.»" (أع ١٨: ٩-١٠). "قَائِلًا: لَا تَخَفْ يَا بُولُسُ. يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَقِفَ أَمَامَ قَيْصَرَ. وَهُوَذَا قَدْ وَهَبَكَ ٱللهُ جَمِيعَ ٱلْمُسَافِرِينَ مَعَكَ." (أع ٢٧: ٢٤).
- **يوحنا:** "لَا خَوْفَ فِي ٱلْمَحَبَّةِ، بَلِ ٱلْمَحَبَّةُ ٱلْكَامِلَةُ تَطْرَحُ ٱلْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ لِأَنَّ ٱلْخَوْفَ لَهُ عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يَتَكَمَّلْ فِي ٱلْمَحَبَّةِ. نَحْنُ نُحِبُّهُ لِأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلًا." (١يو ٤: ١٨-١٩).

مِثالُ كالب ويشوع

لقد سبق أن قدمنا قصة دخول أرض الموعد (رقم ١٣). فمن ناحية، إنها قصة مؤثرة تحكي بطريقة بسيطة كيف يتفاعل معظم معاصرينا عندما يقعون فريسة الشك ويتعين عليهم مواجهة عقبة ما. لكن هذه القصة هي أيضًا رمز لرحلتنا الشخصية والروحية: أرض الميعاد أمامنا، ويجب أن نفوز بها وكل شيء يعتمد على قدرتنا على مواجهة مخاوفنا حتى نتمكن من الدخول إليها والاستحواذ عليها.

يرسل موسى زعماء القبائل الاثني عشر في رحلة استطلاع لتعزيز دوافعهم لاختراق أرض كنعان. إن أمامهم ٤٠ يومًا لعبور البلاد من الجنوب إلى الشمال ثم العودة (حوالي ١٠٠٠ كيلومترًا). وبالتالي، فهم قادرون على تقدير هذه المنطقة وتطوير استراتيجية الغزو معًا، ولكن بدلًا من أن يتحدوا في مشروع مشترك، يجدون أنفسهم منقسمين إلى عشيرتين متعارضتين. وبينما اكتشفوا جميعًا نفس المنطقة ويشتركون في البداية في ذات التحليل لمزايا هذا البلد، إلا أن البعض يركزون نظرهم على المخاطر، ويسلطون الضوء على مخاوفهم، بينما الأقلية المكونة من كالب ويشوع ترفض الإحباط وتعتمد على الوعود الإلهية.

"وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ، مِنَ ٱلَّذِينَ تَجَسَّسُوا ٱلْأَرْضَ، مَزَّقَا ثِيَابَهُمَا وَكَلَّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: «ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا ٱلْأَرْضُ جَيِّدَةٌ جِدًّا جِدًّا. إِنْ سُرَّ بِنَا ٱلرَّبُّ يُدْخِلُنَا إِلَى هَذِهِ ٱلْأَرْضِ وَيُعْطِينَا إِيَّاهَا، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا. إِنَّمَا لَا تَتَمَرَّدُوا عَلَى ٱلرَّبِّ، وَلَا تَخَافُوا مِنْ شَعْبِ ٱلْأَرْضِ لِأَنَّهُمْ خُبْزُنَا. قَدْ زَالَ عَنْهُمْ ظِلُّهُمْ، وَٱلرَّبُّ مَعَنَا. لَا تَخَافُوهُمْ.»" (عد ١٤: ٦-٩).

كان ميزان القُوى غير متكافئ؛ فعَشَرة في مواجهة اثنين، تبدو النتيجة معها معروفة مسبقًا. إن الأغلبية تتفاعل مثل معظمنا عندما

نجد أنفسنا في وضع خارج عن إرادتنا؛ فنحن نرى نصف الكوب فارغًا ونميل إلى تضخيم العقبات أو حتى المبالغة فيها. يسلط المستكشفون الضوء على المدن التي تبدو غير قابلة للعبور بأسوارها المحصنة العالية والسكان أنفسهم الذين يبدو أنهم مخيفون بحجمهم الضخم. إنهم يعانون من الشك ويعتبرون أنفسهم جرادًا صغيرًا. لقد فقدوا الثقة تمامًا في قدراتهم وفي الوعد الإلهي.

أمَّا يشوع وكالب، فعلي الرغم من أنهما قد اختبرا نفس الواقع، إلا أنهما لم يصلا إلى نفس النتيجة. إن اقتناعهم وإيمانهم يشجعانهم على رؤية نصف الكوب الممتلئ والثقة في الله. وبعين الإيمان يرون أن المعركة روحية في المقام الأول: إله إسرائيل أقوى من الآلهة المحلية الكثيرة. هو الذي سيعطي النصر، في حين أن الآلهة المحلية قد فقدت بريقها بالفعل. إن ما يميز يشوع وكالب عن زعماء القبائل الآخرين هو اعتمادهم على الله واحترامهم لذاتهم. وهكذا، كل شيء يحدث أولًا في رؤوسهم وفي قلوبهم.

"وَأَمَّا عَبْدِي كَالِبُ فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَتْ مَعَهُ رُوحٌ أُخْرَى، وَقَدِ ٱتَّبَعَنِي تَمَامًا، أُدْخِلُهُ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا، وَزَرْعُهُ يَرِثُهَا." (عد ١٤: ٢٤).

استنتاج متوسط

في هذا الفصل، قمنا بتسليط الضوء على العقبات العديدة التي تمنعنا من بلوغ غاياتنا المرسومة، ومع ذلك، فقد زرع الله في أعماق كياننا طموحات وأحلام ومشاريع قد تبدو للبعض غير متناسبة، بل وحتى مُبالَغًا فيها. لكن هذه الطموحات مع ذلك هي واقعية تمامًا، لأنه هو، الخالق، الذي جعلها تنبت وتنضج فينا. إنه هو الذي سيساعدنا على تحقيقها. ماذا نفعل لنعطيها المكانة التي تستحقها من خلال إزالة

الطبقات الكثيرة التي تغطيها وتمنعها من التجذر والتبرعم والازدهار؟

لقد نجح عدو نفوسنا بشكل واضح في كبح دوافعنا الداخلية للحد من قوتها وبالتالي منع مشروع محبة الله من الانتشار. إن طبيعتنا الخاطئة تتعرض باستمرار لإغراء اللجوء للانطواء. إن الشك والمقارنة والخوف وكل أنواع الميول الشريرة تستعبد أجسادنا وأرواحنا وتدفعنا إلى الهروب من الواقع والاحتماء بالانطواء والإيمان بحقائق زائفة.

نحن جميعًا مختلفون، ولكن لا أحد منا يخلو من المواهب. الفرق الوحيد بين الأشخاص الذين يقضون حياتهم يحلمون، وأولئك الذين يعيشون أحلامهم، هو نفخة الحياة التي يعطونها لأحلامهم حتى تتحقق. فالأول يرى العقبات بينما الأخير يرى الفرص. إن اليأس ينتظرنا لو وقفنا وحدنا في مواجهة القدر، ولكن العديد من المشاريع التي يحركها روح الرب تتحقق. إن داود الشاب الذي يواجه جليات أو كالب الذي يحدق في أرض الموعد، لديهما رؤية مشتركة تتجاوز المظاهر. تحدد أعينهم خطة الله وترى كيف يمكنهم المساهمة فيها.

لقد دافع مارتن لوثر كينغ، وهو قس أمريكي أسود، عن الإستراتيجية السلمية ضد التمييز العرقي والعنصرية. لقد نجح في تحفيز الحشود من خلال أفضل استخدام لكلمة الأمل: "لديَّ حلم!" لقد فاز الرئيس أوباما بثقة الشعب الأميركي ومكنهم من تحقيق تقدم اجتماعي كبير، من خلال شعار: "نعم، نستطيع!" أمَّا يسوع فيربط الجميع بالرؤية القابعة في أعماق نفسه. إنه يشجع على التقرب من الله والسماح لروح الله بالقيام بعمل التطهير والمُصالحة.

ما الذي يمنعك من اتخاذ الخطوة الحاسمة وإطلاق العنان لمشاعر طفلك الداخلية العفوية؟ قد يتعرض الملك داود لانتقادات من أقرب

أفراد عائلته لأنه تجرأ على الرقص أمام تابوت العهد عند وصوله إلى القدس، لكن على الرغم من ذلك، فهو لا يسمح لنفسه بالتراجع. إن عواطفنا لا تخوننا أبدًا؛ بل نحن من نخنق تلك العواطف.

بدلًا من أن تكشف خوفك وتدفن موهبتك، افعل العكس: ادفن خوفك واكشف موهبتك.[٣٤]

[٣٤] اقتباس عن لوك ديمانت.

القسم الثاني: نحو خليقة جديدة

تمهيد القسم الثاني

هذا الجزء الأخير، وهو الأكثر جرأة في هذا الكتاب، يمكن اعتباره محاولة لتفسير الطبيعة الثلاثية للإنسان الذي خلقه الله. وقدُكتب بعد ندوة عقدت للقساوسة المصريين. إنه يعتمد على تعاليم مستمدة بشكل أساسي من نصي الخلق ويسعى إلى تقدير الطبيعة البشرية ضمن خطة الله. وخلافا للفلسفات ذات الأصل اليوناني أو حتى الهندوسية، حيث يتم إعطاء قيمة للنفس على حساب الجسد، يلعب الجسد في الكتاب المقدس دورًا قياديًا بنفس القدر الذي تلعب بها النفس أو الروح.

ينساب من هذه الحقيقة عدد كبير من التبعات الأخلاقية. إن عبور الشعب العبري للصحراء بقيادة موسى، وكذلك تجسد يسوع، ابن الله، وكذلك آلامه وموته على الصليب، كلها أمثلة توضح الأهمية التي يوليها الله لحياتنا على هذه الأرض. إن التزام الإيمان لا يُعاش خارج الأرض. إن ملكوت الله يبدأ على هذه الأرض، في اللحظة التي نفتح فيها أنفسنا لروح الله، والخبرات التي نجتاز فيها هنا تشكل شخصيتنا وإيماننا. إن السير مع الله ليس مجرد فكرة مجردة، لأنه يؤثر على الطريقة التي ننظر بها والسلوك الذي نتبعه تجاه أنفسنا، وتجاه الكون المخلوق، وكذلك تجاه الأشخاص من حولنا.

من وجهة نظر لاهوتية، فإنني أعتمد على النصوص التأسيسية لبداية سفر التكوين، إذ أرى فيهاُأطر عمل الله في عالمنا. إن الماء والأرض والروح هي بالفعل بداية عمل الله الخلقي. إنها في البداية، لكنها تظل ثابتة حتى في علاقتنا مع الله. إنها تشكل أساس إنسانيتنا وتخلق الظروف الاطارية التي تقوم عليها حياتنا الايمانية.

(١) في البدء

"فِي ٱلْبَدْءِ خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ. وَكَانَتِ ٱلْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ ٱلْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ ٱللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ ٱلْمِيَاهِ. وَقَالَ ٱللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى ٱللهُ ٱلنُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ ٱللهُ بَيْنَ ٱلنُّورِ وَٱلظُّلْمَةِ. وَدَعَا ٱللهُ ٱلنُّورَ نَهَارًا، وَٱلظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا. وَقَالَ ٱللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ ٱلْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». فَعَمِلَ ٱللهُ ٱلْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي تَحْتَ ٱلْجَلَدِ وَٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي فَوْقَ ٱلْجَلَدِ. وَكَانَ كَذَلِكَ. وَدَعَا ٱللهُ ٱلْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا. وَقَالَ ٱللهُ: «لِتَجْتَمِعِ ٱلْمِيَاهُ تَحْتَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ ٱلْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذَلِكَ. وَدَعَا ٱللهُ ٱلْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ ٱلْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى ٱللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ." (تك ١: ١-١٠).

إن نص الخلق برنامجي: إنه يتحدث بشكل تصويري عن بداية البشرية، تمامًا كما يصف سفر الرؤيا نهايتها. لكن نطاقه يتجاوز بكثير حدود الأمور الموصوفة فيه. إنه يقدم العديد من المجالات التي تغذى عليها اللاهوتيون على مر القرون. تجد بعض ما يحتويه من أفكارٍ، أصداء داخل الكتاب المقدس نفسه والبعض الآخر يلهم الفلسفة والروحانية اليهودية والمسيحية معًا حتى يومنا هذا. لقد أُخِذْتُ من حلاوة تذوق هذا المقطع الذي أود أن أستخلص منه بعض الدروس لحالتنا الشخصية.

لم يكن قصد كاتب هذا المقطع شرح كيف حدثت الأمور، بل التذكير بقائد أوركسترا هذا المشهد. يصر الحاخامات على الكلمة الأولى "بيريشيت" التي تبدأ بالحرف (ب)، وهو الحرف الثاني من الأبجدية العبرية، لتوضيح أن الله وحده هو (أ) الكبير الذي يرأس

الخليقة. إن وجوده يسبق كل عالم مخلوق، وكل ما يلي ما هو إلا تعبير عن مشروع حب عظيم رسمه للإنسانية.

نرى الأيام تتتابع كأنها المراحل الأساسية في مشروع كبير. نحن لا نبدأ من لا شيء: في البدء يوجد (التوهوابوهو)، وهو ما يعني كتلة عديمة الشكل وفارغة أو الفوضى العظيمة. ولذلك فإننا لسنا بعيدين جدا عن فكرة تلك الكتلة من الطاقة التي تؤدي إلى ميلاد نظرية الانفجار العظيم. يتمثل عمل الله الخلاق في المقام الأول في ترتيب موقع البناء من خلال التنظيم الدقيق للغاية، خطوة بخطوة، حيث يأمر الأرض أن تكون، ثم يضع فيها النباتات والحيوانات، وفقط عندما ينتهي العمل يستطيع الإنسان أن يجد مكانه فيها.

في الواقع، في البداية تكون جميع العناصر متاحة بالفعل، ولكن بشكل عشوائي. العناصر الأساسية الثلاثة موجودة بالفعل: الماء والأرض والروح. هناك الماء الذي يغطي الأرض وروح الله الذي يرف على وجهها. لكن الكون غارق في ظلام دامسٍ مُعادٍ للحياة. لذلك يبدأ الله بإشعال النور. وهكذا، فإنه يؤسس النهار والليل الذي سيجعل موقع البناء الكبير مهيئاً للانطلاق، ويخلق حيزًا حيث يمكن للنباتات أن تتطور فيه وتزدهر. أما الشمس والقمر فلا يظهران إلا في اليوم الرابع من الخلق. ليس لديهما سوى وظيفة يؤديانها بخضوع وهي تنظيم النهار والليل والسنة الليتورچية، وعلى إيقاع الأيام والفصول يولد التقويم الذي يثبت الأعياد والاحتفالات.

إن النص الأول للخلق يعطي أهمية كبيرة لعنصر الماء الذي يغطي الأرض كلها. فيعد الله له المكان المخصص له، ويجعل له مكانا في الأرض -البحار- ومكانًا آخر فوق السماء، أي السحاب والمطر. وهذا يجعل من الممكن إبراز الأرض الصلبة والتربة الحيوية لكل من الغطاء النباتي والبشر. يصبح البحر مكانًا يعج بالحياة تمامًا مثل القارات. يمكن للنباتات أن تتجذر وتنمو تمامًا مثل

الكائنات الحية التي تزدهر وتتكاثر. وبالتالي تصبح الحياة ممكنة في مكان ملائم ومفعم بالخير، وتكون النتيجة النهائية أخيرًا، هي جنة كبيرة تطيب فيها الحياة والعيش في علاقة دائمة مع الخالق.

وتُسلِّط بقية القصة الضوء على المكانة الخاصة للبشر، المخلوقين على صورة الله، ذكراً وأنثى. لكن مثلهم مثل الحيوانات، يجب أن ينموا ويتكاثروا. كل منهم هو حامل للحياة (nèfesh haya = النَّفْس الحية). لكن على عكس الحيوانات، لدى البشر مهمة ثلاثية:

- يجب أن يلعبوا دورًا رئيسًا في تعزيز الخلق الإلهي وترتيب العالم، وأحيانًا يُخضعون الحيوانات (تك ١: ٢٦)، وأحيانًا يزرعون الأرض ويحرسونها (تك ٢: ١٥)؛
- ومن المثير للغموض أن مؤلف النص الثاني للخلق يستخدم أيضًا مصطلحًا لا ينطبق إلا على البشر فقط، ويُترجم على أنه نفس أو نسمة حياة (تك ٢: ٧). وهكذا فإن البشر، الذين يمثلون الخليقة، هم انعكاس لخالقهم. ولأنهم موهوبون بضمير خاص بهم، فإن لديهم القدرة على الدخول في شركة مع الله ومع إخوانهم البشر؛
- وأخيرًا، فهم مخلوقون على صورة الله، ويمثلون الله على الأرض ككائنات جنسية. في الواقع، إنهم فقط معًا، في ثنائيات، في مزيج المذكر والمؤنث، يكونون انعكاسًا لله، نفسه الثالوث: الآب والابن والروح القدس.

لسوء الحظ، فإن ما يبدو مثاليًا جدًا في القصة الأولى (تك ١: ١؛ ٢: ٤) يتدهور في القصة الثانية (تك ٢: ٤؛ ٣: ٢٤) بما يرقى إلى مستوى التمرد على الله. فبدلاً من الاكتفاء بالحالة السماوية التي يمكنهم أن يزدهروا فيها، ينغمس الرجل والمرأة في لذة الثمرة المحرمة، مما يعطي أيضًا مصداقية لرسالة الحية الخادعة. هذه الأخيرة، تثير الشكوك من خلال بث اعتقاد بأن الله يَحرِمُ خليقته من المعرفة التي تنفعهم. ومع ذلك، فإن بقية القصة توضح العكس: كان

لدى الله سبب وجيه ليوفر لهم هذه المعرفة الجديدة. كان يعلم أن الاكتشاف الذي كانوا على وشك تحقيقه سيكون مدمرا، لأنه يثير الخوف والشك. وبدلًا من أن يصبحا مثل الآلهة، سيختبئ آدم وحواء في النهاية بسبب الخجل من معرفة أنهما ضعيفان وعريانان.

من الصعب جدًا على البشر أن يكتفوا بما لديهم. منذ طفولتهم المبكرة، يحتاجون إلى استكشاف كل ركن من أركان عالمهم واختبار الحدود التي وضعها آباؤهم. ولا يختلف الأمر بالنسبة لآدم وحواء اللذين دخلا في منافسة مع أبيهما السماوي بالتشكيك في التعليمات المعطاة. فبدلًا من الاستفادة من مساحة الحياة والرفاهية المتاحة لهم، فإنهما يسعيان للشيء الوحيد الذي لا ينبغي لهما الوصول إليه. ستؤدي هذه الخطيئة إلى عقوبة تتمثل في ترك هذه الجنة إلى الأبد حيث ارتبطت البراءة والانسجام بين البشر والحيوانات طردياً بعلاقة وثيقة مع الخالق.

"لِأَنَّ أُجْرَةَ ٱلْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ." (رو ٦: ٢٣).

ما إن مرَّ آدم وحواء عبر بوابة الجنة وفقدا علاقتهما بشجرة الحياة، حتى أصبحا مجرد بشر مائتين. علاوة على ذلك، تنتهي الحلقة الأولى من تاريخهما العائلي بقصة قايين، الذي قتل أخاه هابيل بدافع الغيرة. كلما ابتعد البشر عن الله، أصبح من الصعب عليهم فهم مشيئة خالقهم والعيش وفقًا لمبادئه.

لنتذكر أيضًا المقارنة التي عملها الرسول بولس بين آدم ويسوع. لقد اتخذ منهما نموذجًا للعهدين القديم والجديد. بسبب آدم وبسبب الخطية، فإن آدم الأول يؤدي حتمًا إلى الموت، بينما آدم الثاني يفتح آفاق الحياة الأبدية، من خلال حقيقة أن المسيح يحمل خطايا البشرية وهو بلا خطية. عند ذلك فقط، فقد الموت بشكل نهائي قدرته على إحداث الأذى.

"وَلَكِنْ لَيْسَ كَٱلْخَطِيَّةِ هَكَذَا أَيْضًا ٱلْهِبَةُ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ وَاحِدٍ مَاتَ ٱلْكَثِيرُونَ، فَبِٱلْأَوْلَى كَثِيرًا نِعْمَةُ ٱللهِ، وَٱلْعَطِيَّةُ بِٱلنِّعْمَةِ ٱلَّتِي بِٱلْإِنْسَانِ ٱلْوَاحِدِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، قَدِ ٱزْدَادَتْ لِلْكَثِيرِينَ!" (رو ٥: ١٥).

الجسد، والنفس والروح

تبدأ القصة الأولى للخلق بالتذكير بكيف يستخدم الله عناصر الماء والأرض والروح ليخصص لها مساحة جديدة، وبالتالي يسمح للحياة بأن تزدهر. من بين أمور أخرى، فقد فصل المياه عن الأرض الجافة. ومع ذلك، يظل هذان العنصران مرتبطين ارتباطًا وثيقًا لأن النباتات والبشر وجميع الكائنات تتكون أساسًا من الماء. بدون الماء لا توجد حياة، ولكن بدون الجسم يكون الماء مجرد سائل لا أكثر. لذلك أرى في العناصر البدائية الثلاثة الجوانب الثلاثة، أي الجسد والنفس والروح. بالنسبة لي، الأرض والجسد هما واحد. لذلك يرمز الماء إلى النفس التي، على عكس الروح، محصورة في الفضاء المخلوق.

في الفكر العبري، لا يوجد فصل واضح بين الجسد والنفس والروح. هي عناصر وثيقة الصلة، خلافًا للفكر اليوناني الذي يعطي أفضلية واضحة للنفس الخالدة. ويترتب على ذلك أن الجسد والعالم من حولنا يلعبان دورًا مهمًا بشكل خاص في الفكر العبري، سواء هنا في الأسفل، أو في العالم الآتي الذي يبدو كأرض جديدة.

إن معني اسم آدم يشير إلى الأرض (أدامة). فالبشر، كمخلوقات، يخرجون من الأرض ويعودون إليها عندما يموتون. ومن هنا أيضًا تأتي فكرة أن البشر ما هم إلا غرباء ونزلاء على هذه الأرض (١بط ١: ١٧). لكن هذه الهشاشة الزمنية لا تعني أن الجسد يلعب دورًا ثانويا فقط. على العكس من ذلك، فإن الجسد على هذه الأرض هو مكان العلاقة التي يجب الحفاظ عليها من الشر والفجور، لأن الجسد

المتحول بعد الموت يظل مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالقدرة على لقاء الله وتسبيحه. بدون فم لا كلام، وبدون أطراف، لا تعبير عن التسبيح. ولذلك فإن الروح والجسد مرتبطان ارتباطًا وثيقا جداً لتكوين الشخصية الحقيقية.

"حَتَّى تَعُودَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ.»" (تك ٣: ١٩).

إن الجسد في حد ذاته ما هو إلا مادة خاملة تحتاج إلى سعرات حرارية من أجل بقائها ونموها. إنه يخلق الرؤية والاعتراف، كإطارٍ لحمي. في الواقع، نحن ندرك ما لدينا من الجانب المادي. وبفضل أجسادنا أيضًا، يمكننا أن نشعر بالفرح أو المعاناة، ولكننا أيضًا نعبر عن مشاعرنا، سواء من خلال ايماءاتنا أو من خلال تعبيرات الوجه. وبشكل رمزي جدًا، في سفر التكوين، يبدأ آدم بالتعبير عن نفسه لفظيًا في اللحظة التي يكتشف فيها حواء، معيناً نظيره (تك ٢: ١٨). إننا نستطيع أن نلتقي ونتواصل بين البشر المصنوعين من لحم وعظم، وليس بين أرواح مجردة من الجسد. وينطبق الشيء نفسه على العلاقة التي تقوم بين الإنسان والله من خلال الصلاة والتسبيح والعبادة. فالله نفسه، رغم أنه غير قابل للاختزال في الشكل البشري، فهو ثالوث: الآب والابن والروح القدس. ولذلك، فإن العلاقات هي من صميم طبيعته.

أما "بسيكي" فتشير إلى النَّفْس، إلى البُعد الحياتي الذي ينعش الجسد ويعطيه شخصية حقيقية. فهي تسمح للشخص بتمييز نفسه عن الآخر من خلال شخصيته وديناميكيته وذكائه وإبداعه وقدرته على تطوير الرؤى ومواجهة التحديات. بدون الجسد لا تستطيع النفس التعبير عن ذاتها وفهم نفسها، لأن بدونها يكون الجسد مجرد غلاف هامد. وحتى لو كانت ظواهر الجذب والتنافر والحب والكراهية ونقل الأفكار حقائق، فإن النفس بمفردها تظل معزولة.

في النص الافتتاحي لسفر التكوين، كانت الأرض مغطاة بالماء، ولم تظهر إلا بعد انحسار الماء. إنه يشبه إلى حد ما المخلوقات التي تظهر لفترة محدودة والتي بوجودها تسمح للروح بالتعبير عن نفسها. يرتبط الجسد والنفس ارتباطًا وثيقًا، لكن الأمر يختلف بالنسبة للروح الذي يرف فوق المياه. كأنما الروح، الذي لا يشارك بشكل مباشر في عملية الخلق، يبحث عن طريقة للانضمام إلى المخلوقات. يشتاق روح الله أن يدخل إلى الخليقة لينفخ فيها شرارة إلهية.

كل مخلوق يتحرك بالروح، ولكن الكتاب المقدس يشير بوضوح إلى أن هناك روح العالم الذي يقاوم روح الله. أما روح الله فيعبر عن نفسه من خلال الأنبياء أو ينزل على خدام الله مثلما نزل في صورة حمامة على يسوع أثناء معموديته (يو ١: ٣٢).

"ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ ٱلْعَالَمِ وَمَجْدَهَا." (مت ٤: ٨).

"وَنَحْنُ لَمْ نَأْخُذْ رُوحَ ٱلْعَالَمِ، بَلِ ٱلرُّوحَ ٱلَّذِي مِنَ ٱللهِ، لِنَعْرِفَ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمَوْهُوبَةَ لَنَا مِنَ ٱللهِ." (١كو ٢: ١٢).

إذًا، فقد جاء يسوع ليكمل العهد القديم لا لينقضه (مت ٥: ١٧)، أريد أن أؤمن أن تحول الطبيعة الجسدية إلى طبيعة روحية يجد جذوره أيضًا في النصوص التأسيسية. ولذلك أحب أن أميز في النصوص التأسيسية للخليقة باكورة الخليقة الجديدة التي، من المفترض أيضًا أن تنزل من السماء (رؤ ٢: ٢١).

في الكتاب المقدس، العناصر الثلاثة: الجسد، والنَّفْس، والروح موثقة جيدًا، ويتم إنشاء روابط بينها بانتظام. ومع ذلك، في حين أن هناك إشارات كثيرة للجسد والنفس والروح في الكتاب المقدس، إلا أنه من المدهش أنه لا توجد هناك آية كتابية واحدة فقط تظهر فيها المصطلحات الثلاثة جنبًا إلى جنب. هناك علاقة لكنها تبقى غامضة

حول هذا الواقع الثلاثي. ويمكن تفسير ذلك إما بالمعرفة المسبقة المعممة التي لا تحتاج إلى تفسير أو بعدم الاهتمام بهذه القضية.

"وَإِلَهُ ٱلسَّلَامِ نَفْسُهُ يُقَدِّسُكُمْ بِٱلتَّمَامِ. وَلْتُحْفَظْ رُوحُكُمْ وَنَفْسُكُمْ وَجَسَدُكُمْ كَامِلَةً بِلَا لَوْمٍ عِنْدَ مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ." (١تس ٥: ٢٣).

لكل من الحقائق الثلاثة سبب وجوده ونطاق عمله ورسالته. وبالتالي، يبدو من المهم بالنسبة لي تطوير اهتمام خاص واصغاء محدد على المستويات الثلاثة. سواء كان جسدًا أو نفسًا أو روحًا، فإن كل عنصر يحتاج إلى التغذية والعناية والصيانة.

الجسم/ اللحم (ساركس/ بسَّار)

أ) التراب، الغلاف الجسدي، الخلايا، الأنسجة.

ب) حركة، علاقة، شركة، تبادل، خدمة.

النَّفْس (النفس/ نيفيش – نيشاما)

أ) الحياة، النبضات الكهربائية، الاستدلال، المنطق.

ب) النية، الطموح، الرؤية، الإرادة، العاطفة، القلب.

ج) ساحة للحرب بين الخير والشر.

الروح (بنوما / رواخ)

أ) الحدس، الاقتراحات، الأفكار

ب) البُعد الميتافيزيقي، الارتباط بالمصدر، القوة الروحية، روح العالم، أو نفخة القدير.

(٢) الأرض: الجسد

مثل آدم، نحن جميعًا مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالمادة وكوكب الأرض. كل شيء يربطنا بكوكبنا، الأرض؛ قوة الجاذبية، وأيضًا خصوصيات بيئتنا الطبيعية، ومنتجات الزراعة، والهواء الذي نتنفَّسه، والماء الذي نشربه. نحن لا نعرف سواه، فنحن مقيدون بخصائصه. إننا ككائنات مائتةٍ، نُروِّض هذه البيئة وننمو معها. إنها تُحِدنا، ولكنها أيضًا ملعبنا حيث يمكننا المرح وتحقيق اكتشافات مذهلة.

بنظرة شاملة، فإننا مجبرون على الاعتراف بأننا بما نحن عليه كمخلوقات، فإن وزننا هو لا شيء مقابل ضخامة الكون الذي لا نفهمه إلا بصعوبة، وكذلك على مقياس الزمن والقرون ومفهوم الأبدية، تظل حياتنا بالقياس قصيرة وهشة للغاية. لكن من وجهة النظر الروحية، كل مخلوق له قيمته الخاصة ويستحق اهتماما خاصا. الله نفسه يجعل الأرض موطنًا لقدميه (إش ٦٦: ١). يهتم بمخلوقاته ويعتني بها. ألا يقول إن كل شعرة من رؤوسنا معدودة (مت ١٠: ٣٠)؟

يرتبط الإنسان ارتباطًا وثيقًا بهذه الأرض التي شهدت مولده. إنه وإن تمكن من تطوير معرفته وإبداعه فيها، إلا إنه مسؤول أيضًا عن تدمير بيئته الطبيعية، كما يتضح من ظاهرة الاحتباس الحراري وزيادة الكوارث الطبيعية. لأن هذه الأرض هي مساحة للاكتشافات بقدر ما هي أيضا مجال للإغواء والضلال (رؤ ١٢: ٩).

يمكن أن يُنظر إلى جسدنا على أنه عائق بقدر ما يحدنا ويحددنا. لكن لولا الجسد لما وجدت الإثارة واللذة واللقاء، ومهما بدا الانسان تافهًا، فإنه بالنسبة لله هو مخلوق موضوع عنايته. إنه كالطفل الذي نحمله ونعتز به. ومن خلال الروح التي تعمل في داخله، يتجاوز

الإنسان القيود المادية ويتمكن من الوصول إلى البُعد العالمي والميتافيزيقي.

عندما يقرر الله أن يرسل ابنه، فإنه يعطي إشارة قوية للبشرية جمعاء، تشهد أنه لا توجد طريقة للدخول في علاقة أقوى من التبادل بين البشر. من خلال تجسده، يجعل الله نفسه ضعيفًا وقريبًا. يتكلم لغتنا، ويأكل طعامنا، ويتألم من أمراضنا، ويجتاز في الموت. إن التجسد يصبح أحد الخصائص الأساسية التي تميز الإيمان المسيحي عن سائر الأديان، لأن الرب قريب.

قد تكون الأرض مجرد كوكب من بين كواكب أخرى، ضائعة في الكون، لكنها لا تزال مذهلة: كيف يمكنها أن تجمع وحدها كل الظروف المواتية للحياة عندما لا يوجد معادل معروف مثلها على بُعد سنواتٍ ضوئية؟ وعندما نجول فيها، ونكتشف مدي تنوع البلاد والثقافات، وغني محاصيلها ومنتجاتها وطعمها الجميل، وطرق التعبير المختلفة سواء الثقافية أو الرياضية التي بإمكاننا المشاركة فيها، لا نجد كلاماً يمكن أن نعبر به. ليس للصدفة مكان هنا.

المكان والزمان

خلق الله الرجل والمرأة ووضعهما في جنةٍ، موفرًا لهما مساحة للعيش والازدهار ومكانًا دافئًا وآمنًا. إنه مكان صالح للعلاقة بين الزوجين، ومع الحيوانات ومع الخالق. لكن التجربة تُحوّل الجنة إلى كابوس: لقد أصبح على البشر أن يغادروا جسديًا المساحة المخصصة لهم. وهكذا يكتشفون الجوع والمعاناة والعنف والموت. على العكس من ذلك، بدلًا من المكان الذي وُجِدا فيه، والذي مهما كان فردوسياً فهو في النهاية محدود، فقد تم تسليمهم إلى العالم الواسع بكل فرصه وقيوده.

في جنة عدن لا زرع ولا ولادة ولا سفرات. كل هذه الأشياء تأتي بعد ذلك وهي خاصة بالإنسان. في الواقع، إن التطور الجسدي والنفسي، وتجريب الشهوانية والمشاعر، واكتشاف الحب، والاستيقاظ على ثقافة الآخر، كلها قطع من أحجية كبيرة تجعلنا ما نحن عليه، والتي لم نعد نريد أن نتجاهلها، لأنها إثراء لنا وتحمل لنا الكثير من شذرات السعادة.

"لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ، لِأَنِّي أَنَا ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ إِلَهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ ٱلْآبَاءِ فِي ٱلْأَبْنَاءِ فِي ٱلْجِيلِ ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ." (خر ٢٠: ٥-٦).

يضع الله المخلوقات في مساحة جغرافية معينة ومكان وزمان محددين. لقد قام بتعيين آباء بيولوجيين غير مثاليين للغاية. وهكذا فإن كل إنسان يختلف تكيفه البيئة التي تحيط به. بالنسبة للفكر الكتابي، فإن فكرة الجيل هي أمر حاسم. يأتي كل شخص من سلالة عائلية تحمل في حد ذاتها البركة واللعنة.

إن فكرة نشأة الناس مع العبرانيين تضع الإيمان في سياق التطور والتعلم. يبدأ ذلك بقصص الآباء، عن خروج إبراهيم من حاران بالعراق في رحلة طويلة إلى كنعان. إن ترك المدينة والأصول هو مرادف للتخلي عن اليقينيات في رحلة الإيمان. إنه يعادل تعلم الثقة في قوة أعلى ووعد معين. وهكذا أصبح إبراهيم أبًا للجميع. إنه أساس كل البدايات الجديدة وكل نهضة وميلاد جديد.

يشكل إبراهيم وإسحاق ويعقوب سلالة بشرية، سلسلة بركة يتمسك بها كل يهود الأمس واليوم، ووفقاً للرسول بولس، فإننا كمسيحيين قد تم تطعيمنا في شجرة العائلة هذه، وبالتالي نستفيد من البركات التي وُعِدَ بها هؤلاء الأجداد اللامعون. نحن في الطريق مع

شعب إسرائيل، حيث نترك رمزيًا مصر، مكان العبودية، لنعبر الصحراء، مكان الشك والإحباط، وندخل أرض الموعد التي تم الحصول عليها بنضال عظيم بعد حلقات من الغزو غذَّتها ودعَّمتها المعجزات الإلهية.

كأنما أرادت أناجيل متى ولوقا أن تذكرنا ببشرية المسيح يسوع أنه كان بالفعل رجلًا مثل أي شخص آخر، فيصران على أصله الأرضي ويعطياننا سلسلة نسبه. يؤكد (مت ١: ١-٦) على الأصول اليهودية وحتى المسيانية، مع التركيز على إبراهيم وداود، دون إغفال الدور الأساسي والمثير للدهشة لبعض النساء مثل (ثامار، راحاب، راعوث، مريم)، بينما لوقا (٣: ٢٣-٣٧). يؤكد على آدم ابن الله ومصيره العالمي.

يصر الكتاب المقدس على ترسيخ الإيمان البشري والجغرافي باعتباره أكثر من مجرد حكاية تاريخية بسيطة. كل مفاهيم الدعوة والتضحية والغفران والمصالحة والولادة الجديدة وغيرها، تشير إلى أفعال ملموسة، اختبرها الجميع وفهموها. والأمر كذلك بالنسبة لنا: الإيمان ليس مفهومًا نظريًا أو مجردًا، ولكنه يغذي إنسانيتنا من الرأس إلى أخمص القدمين، مرورًا بالقلب، المركز العصبي للجسد.

تصر قصة نوح على التحالف مع البشرية، وقصة يوسف توضح العناية الإلهية، وقصة موسى على التحرير المعجزي، وقصة داود الملوكية المسيانية، وقصص الأنبياء على القداسة والعدالة. كل حلقة تجعلنا نتطور في معرفة الله وطبيعته وعمله في حياتنا. مع سفر المزامير والأمثال، نكتشف الإنسانية العميقة لإله قريب جدًا. حتى أن سفر نشيد الأنشاد يأخذنا إلى أعماق العلاقة الرومانسية. كل سفر من الكتاب المقدس متجذر بعمق في هذا العالم ويدعونا إلى عدم تجنب التجسد.

بالمِثْل، فإن يسوع، من خلال طريقته في سرد الأمثال أو قبول الموت على الصليب، يردنا إلى إنسانيتنا. إن الأفعال التي يدعونا إلى إدامتها جميعها لها علاقة وثيقة بالجسد: المعمودية هي غسل والعشاء الأخير هو وجبة إلهية. إن المعجزات التي يقوم بها هي علامات كاشفة كثيرة لطبيعة تحولت على صورته ودليل على إنسانية عميقة. إنها ترمز إلى الصحة، ولكنها أيضًا ترمز إلى المصالحة والاحتفال؛ مثل تكثير الأرغفة أو تحويل الماء إلى خمر.

وأخيرًا، ليس من المستغرب أن يُقارن الفردوس السماوي بمدينة أورشليم الجديدة، المدينة المقدسة. إنه يتناقض مع مدينة أخرى مرتبطة بعبادة الأوثان والشر وقوة الأذى، أي بابل، المنطقة التي نشأ منها إبراهيم والتي دُعي إلى مغادرتها. وهكذا تصبح كل مرحلة من حياة الشعب العبراني مثالًا رمزيًا لمراحل الحياة التي دُعي كل واحد منا إلى المرور بها.

مكان الاختبارات

إن الأماكن التي تجري فيها لقاءاتنا مع الرب تكون مُفعمة دومًا بقوة رمزية. يرتبط كل اكتشاف عن الله وطبيعته بأماكن محددة: يلتقي إبراهيم رسل الله الثلاثة تحت بلوطات ممرا (تك ١٨)، يصارع يعقوب الملاك ويكتشف دعوته في بيت إيل (تك ٢٨)، يتسلم موسى لوحي الشريعة في سيناء، يلتقي الله بشعبه في خيمة الاجتماع ثم في هيكل أورشليم، يولد يسوع في بيت لحم ويموت في الجلجلة وهكذا، نري كيف أن الأماكن محملة بالمعنى، تماماً مثل حياتنا التي تتميز بالتجارب التي نعيشها في زمان-مكان (زمكان) محدد ومرتبطة بأماكن محددة للغاية.

الإنسان حيوان اجتماعي لم يخلق ليعيش بمفرده. لقد وهبه الله ذكاءً اجتماعيًا يسمح له بالدخول في علاقات، والإثراء والنمو من

خلال تبادل الأفكار، والتقدم بسرعة أكبر في تعلمه عندما يتمكن من مواجهة تجاربه. كذلك، فإن الشركة مع الآب السماوي تساعد على عدم التمحور حول الذات. فهو يساعدنا على أن نضع في الاعتبار حجم التجارب التي نحن مدعوون إلى اجتيازها. ولذلك فإن الإيمان هو أكثر بكثير من مجرد اعتقاد مجرد. إنه عامل ثقة وتوازن.

يجب على كل واحد منا أن يحمل صليبه الخاص. إن أفراح الحياة، وكذلك التجارب والصراعات والأمراض والمعاناة، فريدة من نوعها. لا يمكن لأحد أن يتحمل أعباء الآخر. ولذلك فنحن جميعاً غرباء على هذه الأرض، ولكن مراحل التعلم والاكتشاف والتقدم هي مراحل فردية. حتى مسيرتنا مع الله تختلف من شخص لآخر، وهذا غنى، ولكنه أيضًا صعوبة كبيرة: من المستحيل نقل المعرفة المكتسبة والقناعة والأصعب منهما نقل الإيمان إلى شخص آخر.

كم من معجزات قد شهدتها في حياتي! مجرد إدراجها يجعلني أعتقد أنني يجب أن أكون قادرًا على إقناع كل من حولي والعالم أجمع بأن الله موجود. ومع ذلك فإنني أنساها أحيانًا عندما أشعر بالحزن واليأس. لأن الإحباط هو أيضًا جزء من مسار حياتنا. لدينا جميعا فترات جافة كالصحراء. يبدو أننا في النهاية كائنات من لحم ودم. إن جذورنا في الأرض هي التي تجعلنا ما نحن عليه. إن مراحل التساؤلات هي على وجه التحديد تلك التي تساعد على تطورنا الشخصي والروحي.

خلال دراستي، وفي مناسبات عدة، فتح الله لي في اللحظة الأخيرة أبوابًا بدت وكأنها مغلقة بشكل لا رجعة فيه. لأنني لا أمتلك ذاكرة ممتازة، فقد كنت أواجه دائمًا صعوبة في اللغات، وخاصة اللغات القديمة. لكن باعتباري لاهوتيًا، كان عليَّ أن أتعلمها: اللاتينية، والعبرية، واليونانية. نظرًا لعدم قدرتي على استيعاب المفردات، كان من الأفضل أن أغير المسار. ومع ذلك، على الرغم

من حصولي على درجات غير كافية في الامتحانات بشكل متكرر، فقد أرشدني الله وفتح ذهني كما لم يحدث من قبل. يبدو الأمر كما لو أن شخصًا ما قرر أنني يجب أن أستمر على هذا النحو.

مثال آخر، منذ ست سنوات، عندما بدأت في أداء عملي، شعرت بحدس قوي ثبتت صحته فيما بعد. لقد انفصلت عن مدير القطاع الذي بدا لي غير جدير بالثقة. ثم وُضِعْتُ في موقف مضطرب، دون أن أدرك العواقب التي قد يسببها ذلك. وفي الواقع، تبين أن المنظمة الشبيهة بالمافيا التي أنشأها هذا المدير تدريجيا هي أكثر خطورة مما كنت أتخيل. عندما فسد رأس المنظمة، تم زعزعة استقرارها بأكملها تحت مسؤوليته، مما ولّد تأثيرات غير مرغوب فيها داخل فريقه وكذلك مع العملاء، مما كان له نتيجة مؤسفة أدت إلى انخفاض حاد في الإيرادات. لم أتمكن من عكس هذا الاتجاه إلا بعد التغيير الكامل للفريق وبدء الإجراءات الجنائية.

وفي مواجهة هذا الوضع المؤسف، شعرتُ بالضعف. وكأنني أنا المسؤول عما حدث لنا. لكن الله استجاب بأعجوبة. في إحدى ليالي شهر يونيو، أيقظني في منتصف الليل مع حدس قوي بأنني بحاجة للصلاة من أجل تبرع كبير. بمجرد استيقاظي، قررت أن أثق في الله وأشكره على الهدية التي كان سيقدمها لنا. أبلغت المتعاونين الرئيسين معي في اليوم التالي. وبعد أسبوعين تلقينا بالفعل أكبر إرث في تاريخنا. مجدًا للرب!

عندما نسير، مثل الشعب العبراني، نحو الأرض التي أعدها لنا، يمكننا جميعًا أن نواجه تجارب مماثلة. يعلن الرب نفسه في حياتنا. إن مساراتنا مختلفة، لكن الرحلة نفسها ذات معنى وغنية بالتعلم. كل تجربة تتقدم بنا في إيماننا. كلما رأينا يد الله تعمل، كلما زادت ثقتنا به وتقوت، وبالتالي فإن الحياة مثل رحلة كل خطوة نخطوها تُقرّبنا من الهدف.

الجسد ولغته

يبدو أن الكتاب المقدس يشير، بعد السقوط والطرد من جنة عدن، إلى أن الخطية تنتشر في الأرض وأن عمر الإنسان يتقلص تدريجيًا إلى حوالي ١٢٠ عامًا. في جنة عدن كانت الحياة أبدية، ثم تضاءلت: آدم ونسله الأقربون حتى نوح (تك ٥: ٩، ٢٨) يعيشون أقل بقليل من ١٠٠٠ سنة لكل منهم. وبعد الطوفان يقل العمر من خمسمائة إلى مائتي سنة (تك ١١). مات إبراهيم أخيرًا عن عمر يناهز ١٧٥ عامًا (تك ٢٥: ٧) ويوسف عن عمر ١١٠ عامًا (تك ٥٠: ٢٦). كلما ابتعد الإنسان عن الله، كلما قل طول العمر.

"فَقَالَ ٱلرَّبُّ: «لَا يَدِينُ رُوحِي فِي ٱلْإِنْسَانِ إِلَى ٱلْأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً.»" (تك ٦: ٣).

لقد منح الرب الرجل والمرأة جسدًا جنسيًا مليئًا بالأحاسيس. لقد تم تشكيله بشكل مثالي لدرجة أنه حتى المرض قلما كانت له الكلمة الأخيرة في النهاية، فالجسد يشفي نفسه إلى حد كبير، ويشكل أجسامًا مضادة أو يصلح العظام المكسورة، وبالنظر إلى التعقيد الموجود بين الأنسجة والأعضاء، فلا يسع المرء إلا أن يندهش.

إن الأهمية التي يوليها الفكر اليهودي للجسد يجب أن تشجعنا على الاستماع إليه بشكل أفضل والعناية به دائمًا. لا يعني ذلك أن الجسد يجب أن يوضع على قاعدة تمثال أو أن تعمينا مكوناته المادية أو عظمة الروح الانسانية التي فيه؛ ولكن عندما يلتقينا الله ويتحدث إلينا من خلال قدرات جسدنا، فمن المهم أن نعتني به وأن نكون حساسين لاحتياجاته. لقد تم منحنا خمس حواس على نفس القدر من الأهمية. إنها تساعدنا على إدراك العالم وفهم إرادة الله في حياتنا. وحتى لو حدث أحيانًا أن تعطلت إحدى الحواس، فإن الجسم يكون قادرًا على

تعويضها بالحواس الأربع الأخرى، كما هو الحال مثلًا عند الشخص الكفيف الذي ينمي مهارات أخرى لتعويض ضعف البصر.

لكل حاسة غرضها: البصر والسمع والشم والذوق واللمس. ويبدو أن البصر والسمع مهمان بشكل خاص لمساعدتنا على توجيه أنفسنا في الحياة، ولكن عندما تختفي حاسة الشم أو التذوق، فإن الإعاقة تكون بنفس القدر من الأهمية، بسبب تأثر نوعية الحياة. ثم هناك حاسة اللمس التي لا تعزز المداعبات والاتصال الجسدي فحسب، بل تساعد أيضًا في اكتشاف الجروح أو منع الإصابات.

يعبر جسدنا أيضًا عن نفسه من خلال العواطف، وهي مؤشرات حقيقية لحالتنا الداخلية. في الواقع، العواطف لا تكذب أبدًا. إنها تسمح لمزاجنا بالتألق وللأشخاص من حولنا بفهمنا بشكل أفضل. المشاعر الستة الأساسية هي الفرح والحزن والخوف والغضب والمفاجأة والاشمئزاز. ونحن نميزها من خلال تعابير الوجه. كقاعدة عامة، من الأفضل إدراكها والسماح لها بالتعبير عن نفسها. إن كبت أو قمع تلك المشاعر بشكل منهجي يضر بصحتنا النفسية والعقلية، لأن الصدمات المكبوتة تطاردنا لفترة أطول بكثير من تلك التي يتم التعبير عنها عاطفيًا ولفظيًا. علاوة على ذلك، فإن تطور الحساسية الروحية يفترض حدوث الشفاء الداخلي أولًا، بدءًا بالعواطف.

الجسد المادي والجسد الروحي

في الكتاب المقدس، فان أكثر من فكر في صورة الجسد، هو الرسول بولس الذي جعل منه إحدى الاستعارات الرئيسية للمجتمع المسيحي. كل عضو بشكل منفرد هو عضو مهم، لكنه لا يمكن أن يوجد ويلعب الدور الخاص به إلا إذا انضم إلى الأعضاء الآخرين. لقد وضع الله العضو حيث هو. لذلك لا داعي للغيرة بين الأعضاء. إذا كان أحد يتألم، فإن الجميع يتألمون معه. والأمر العجيب هو أن

بولس قد اكتشف أن الأعضاء التي نخفيها هي التي نتعامل معها بأكبر قدر من العناية.

"بَلْ بِٱلْأَوْلَى أَعْضَاءُ ٱلْجَسَدِ ٱلَّتِي تَظْهَرُ أَضْعَفَ هِيَ ضَرُورِيَّةٌ. وَأَعْضَاءُ ٱلْجَسَدِ ٱلَّتِي نَحْسِبُ أَنَّهَا بِلَا كَرَامَةٍ نُعْطِيهَا كَرَامَةً أَفْضَلَ. وَٱلْأَعْضَاءُ ٱلْقَبِيحَةُ فِينَا لَهَا جَمَالٌ أَفْضَلُ. وَأَمَّا ٱلْجَمِيلَةُ فِينَا فَلَيْسَ لَهَا ٱحْتِيَاجٌ. لَكِنَّ ٱللهَ مَزَجَ ٱلْجَسَدَ، مُعْطِيًا ٱلنَّاقِصَ كَرَامَةً أَفْضَلَ، لِكَيْ لَا يَكُونَ ٱنْشِقَاقٌ فِي ٱلْجَسَدِ، بَلْ تَهْتَمُّ ٱلْأَعْضَاءُ ٱهْتِمَامًا وَاحِدًا بَعْضُهَا لِبَعْضٍ. فَإِنْ كَانَ عُضْوٌ وَاحِدٌ يَتَأَلَّمُ، فَجَمِيعُ ٱلْأَعْضَاءِ تَتَأَلَّمُ مَعَهُ. وَإِنْ كَانَ عُضْوٌ وَاحِدٌ يُكَرَّمُ، فَجَمِيعُ ٱلْأَعْضَاءِ تَفْرَحُ مَعَهُ." (١كو ١٢: ٢٢-٢٦).

ويبدو أن بولس نفسه قد عانى بطرق مختلفة في جسده. فإن أسلوب حياته كمسافرٍ دائمٍ، وكمن ليس لديه منزل ثابت ونظام غذائي متوازن، كل ذلك يُتَرْجَم في صورة مشاكل صحية متكررة ومع ذلك لا يتحدث عنها إلا القليل. لكن وجود الطبيب لوقا إلى جانبه لا يمكن أن يكون مجرد مصادفة.[٣٥]

إن الأهمية المُعطاة للجسد هي أيضًا المعطاة للعناية الجسدية، خاصة فيما يتعلق بطقوس التطهير. عند السعي للقاء الله، من المهم احترام قداسته، وهذا يبدأ بأسلوب حياة بلا لوم. بالتأكيد، أن كل الأشياء تحل لي، ولكن ليست كل الأشياء توافق (١كو ٦: ١٢)، كما يذكرنا بولس. لأن الجسد في النهاية هو المكان الذي يُعبِّر فيه الله عن نفسه ويقيم فيه.

"أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ ٱلَّذِي فِيكُمُ، ٱلَّذِي لَكُمْ مِنَ ٱللهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ؟ لِأَنَّكُمْ قَدِ ٱشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا ٱللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ ٱلَّتِي هِيَ لِلهِ." (١كو ٦: ١٩-٢٠).

[٣٥] راجِع: ديديه روشا، بولس النموذج الاستراتيجي، ص٦٠-٦١؛ (غل ٤: ١٣؛ ٢كو ١٢: ٧).

"لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ إِرَادَةُ ٱللهِ: قَدَاسَتُكُمْ. أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ ٱلزِّنَا، أَنْ يَعْرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَقْتَنِيَ إِنَاءَهُ بِقَدَاسَةٍ وَكَرَامَةٍ، لَا فِي هَوَى شَهْوَةٍ كَٱلْأُمَمِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ ٱللهَ." (١تس ٤: ٣-٥).

يحتاج جسمنا إلى الصيانة والتنشيط والتغذية. يتم التعبير عن جميع أنواع الاحتياجات الخاصة به مما يتطلب إشباعها مثل: الجوع، والحركة، والنوم، والرفقة. ولكن إذا لم يتم توجيه هذه الاحتياجات، فإننا نكون عرضة أن تملي هذه الاحتياجات قانونها علينا. وهي تتراوح بين الرغبة البسيطة في الطعام أو النوم إلى الحاجة إلى الانتقام والغضب القاتل. كل ما يخرج عن الجسد فهو غير سليم ويجب تطهيره، والمقصود هنا هو الجسد الحيواني، الذي يضعه بولس مقابل الجسد الروحاني، الذي ينساق ويسلك بقيادة روح الله (غل ٥: ١٦).

إذًا، هناك صراع ينشأ بين الجسد والروح. إذا كان جسدنا وسيلة يتم بها التعرف على مَن نكون، ويسمح لنا بالتالي بالدخول في علاقة ما، وإذا كان يسمح لشخصيتنا بالتعبير عن نفسها، وإذا كان قادراً على تطوير الرؤى وتصور فكرة الخلود، إلا إنه هو نفسه مع ذلك ليس خالدًا. الجسد مقدر له أن يتحلل، لكن روحنا تدعونا للبحث عن معنى لوجودها.

"هَكَذَا أَيْضًا قِيَامَةُ ٱلْأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ. يُزْرَعُ فِي هَوَانٍ وَيُقَامُ فِي مَجْدٍ. يُزْرَعُ فِي ضَعْفٍ وَيُقَامُ فِي قُوَّةٍ. يُزْرَعُ جِسْمًا حَيَوَانِيًّا وَيُقَامُ جِسْمًا رُوحَانِيًّا. يُوجَدُ جِسْمٌ حَيَوَانِيٌّ وَيُوجَدُ جِسْمٌ رُوحَانِيٌّ. هَكَذَا مَكْتُوبٌ أَيْضًا: «صَارَ آدَمُ، ٱلْإِنْسَانُ ٱلْأَوَّلُ، نَفْسًا حَيَّةً»، وَآدَمُ ٱلْأَخِيرُ رُوحًا مُحْيِيًا." (١كو ١٥: ٤٢-٤٥).

كما صار الله إنسانًا في يسوع، هكذا يمكننا أن نمتلئ بروح الله ونصبح أبناء النور. عندما نمتلئ بروحه، تتحول شخصيتنا وتتغير.

بعض الأولويات تتلاشى وتحل محلها أولويات أخرى. وما بدا لنا في الماضي مهما جداً، يتلاشى تدريجيا دون ضغط من أحد، وتولد قيم أخرى وتتطور فينا رغبات أخرى. هذا ما يدعوه الكتاب المقدس بالولادة الجديدة. في المظهر، لا شيء يتغير في حياتنا اليومية، ولكن تدريجيًا وفي العمق تتطور أشياء كثيرة: أولوياتنا، ورغباتنا، بل ويحدث أن تتجدد بعض الخلايا المريضة كما لو كان ذلك بمعجزة.

تحت تأثير الروح القدس، حتى جسدنا المدان والمائت يعود إلى الحياة. وهكذا يتحول هذا الجسد الحيواني تدريجياً إلى جسد روحاني. بمجرد أن يتوقف الجسم المادي عن النبض، ينفصل عنه الجسم السماوي ويستمر في مساره الأبدي. وهذه هي الطريقة التي يعبر بها فكر العهد الجديد الحياة الأبدية.

"وَمَتَى لَبِسَ هَذَا ٱلْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ، وَلَبِسَ هَذَا ٱلْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ، فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْمَكْتُوبَةُ: ٱبْتُلِعَ ٱلْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ." (١كو ١٥: ٥٤).

الإيمان بقيامة الأجساد يرتكز على مثال يسوع نفسه. في الواقع، إن شهادات المسيح القائم التي نجدها في الأناجيل وفي أعمال الرسل واضحة: لقد رأى التلاميذ يسوع في الجسد، وعرفوه، وأطعموه، ورأوا آثار المسامير، وتحاور معهم، ولكن ليس كأي إنسان آخر عادياً، لأن يسوع المقام يدخل عبر الجدران، ويظهر ويختفي ويرتفع في الهواء. إن الرسول بولس، الذي لم يسعد بلقاء يسوع خلال حياته، يبني لاهوته كله على تجربة اهتدائه، عندما يرى ويسمع شخص المسيح القائم من بين الأموات الذي يدعوه ليتبعه. في العديد من البلدان، يواجه غير المؤمنين تحديًا برؤى المسيح حيث يرونه ككائن حي يرتدي ملابس بيضاء.

نظرية الاحتياجات

بالإضافة إلى اللاهوتيين، فقد قام العديد من الفلاسفة وعلماء النفس، بالإضافة إلى التخصصات العلمية الأخرى، بدراسة الاحتياجات الأساسية للإنسان. وهم متفقون على أن الكتاب المقدس يقول الحقيقة عندما يقرر: أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان (تث ٨: ٣؛ مت ٤: ٤). هناك بالفعل العديد من التوقعات الأخرى التي يجب تحقيقها لكي يكون الإنسان سعيدًا: على وجه الخصوص: الاجتماعية والخاصة بالعلاقات مع الآخرين، والسياق الذي يؤدي إلى التطور الفكري والروحي.

لقد طور جيش الخلاص، الذي يعود تاريخه إلى أكثر من ١٥٠ عامًا، من الالتزام تجاه الفئات الأكثر تهميشًا في مجتمعنا، عمله حول العناصر الثلاثة التي تبدأ بحرف ال (S)، الحساء (Soup) والصابون (Savon) والخلاص (Salut). وإذا كان الهدف زرع فكرة الأبدية، فإن ذلك يتم أولاً من خلال مراعاة الاحتياجات الغذائية الأساسية، ثم الصابون كدليل على الاحترام الممنوح، مهما كانت الظروف المعيشية للأشخاص المعنيين. ألا نقول أيضاً: البطن الفارغ ليس له آذان؟ وسرعان ما أدرك دعاة الخلاص أن الله لا يهتم فقط بالنفس الأبدية، بل بالشخص، بدءًا من احتياجاته الوجودية: أن يتم الاعتراف به كعضو كامل ومحبوب كابن للآب.

كامتدادٍ لهذا النهج، فقد طور أبراهام ماسلو في عام ١٩٤٥ نظريته حول الاحتياجات. لقد لاحظ ماسلو، وهو باحث وعالم نفس، أنه قبل أن يتمكن الإنسان من الازدهار، فإنه يحتاج أن يضمن معدة ممتلئة وسقفًا فوق رأسه. طالما لم يكن لديه ما يكفي من الطعام، كان عقله مشغولًا ومترددًا في تصور المستقبل أو الحياة الأبدية. ولكن بمجرد تلبية احتياجاته الأساسية، يطمح كل شخص إلى حياة أكثر إشباعًا ويسعى إلى إيجاد معنى لوجوده.

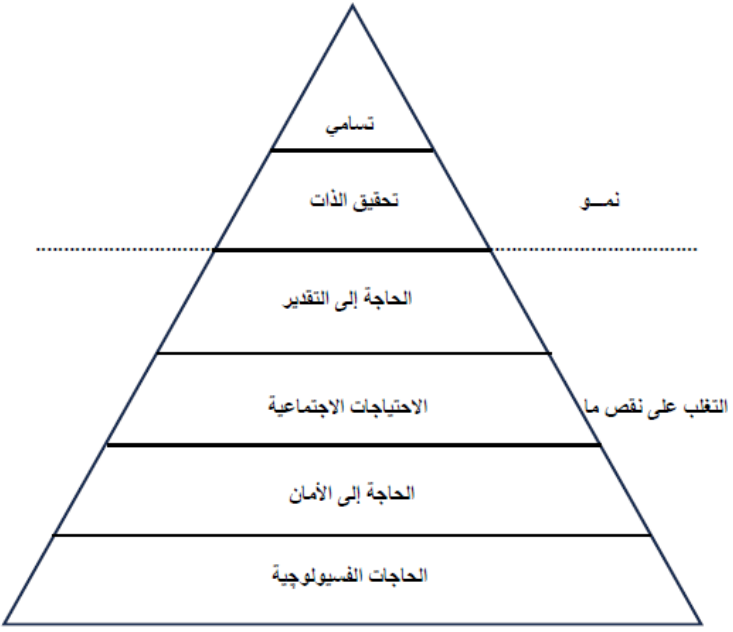

اللحظة التي يتم فيها تلبية جميع الاحتياجات مرة واحدة وإلى الأبد غير موجودة. إن الشعور بالنقص أمر إيجابي لأنه يدفعنا إلى التقدم والوصول إلى مستوى جديد. كلما كان الاختبار أعمق، كلما حفز فينا موارد لم نكن نعرفها من قبل. وبالتالي، فإن أوقات الصحراء تساعد بشكل خاص على الإصغاء وسماع صوت الله.

الضمانات الكاذبة والحرية الحقيقية

إن الإنسان المتصالح مع ماضيه والذي يختار أن يتحمل خياراته هو القادر على تحمل المسؤوليات. إنه يعرف كيف يتخذ موقفًا، ويعرف أن يقول: لا. من خلال الاستماع إلى جسده وعقله، يكون قادراً على اتخاذ قرارات مستنيرة. وبدلاً من إعادة إنتاج السلوكيات الموروثة من طفولته، يتعلم المضي قدمًا في الحياة بناءً على رؤيته

الخاصة. لذا فهو يعرف كيف يتعرف على النجاحات، حتى الصغيرة منها، وأن يفرح بها. إنه يتعلم من الإخفاقات دروسًا في الحياة تجعله أكثر هدوءًا؛ وبدلاً من الخوف من المواقف الجديدة، يتعلم ترويضها. كلما ذهب أبعد، كلما شعر بمزيد من الثقة والقوة. مع الله، يمكنه أن يعرب عن امتنانه حتى في أوقات الشدة.

في الهند، يتم ربط الأفيال الصغيرة بشجرة منذ سن مبكرة. وهكذا يتعلمون أن يظلوا هادئين ومطيعين. وحتى لو أرادوا فإنهم لا يقدرون على فصل أنفسهم. عندما يكبرون، تظل تجربة الشجرة محفورة بقوة في ذاكرتهم لدرجة أنهم، على عكس الواقع، لا يتخيلون حتى إمكانية التخلص منها. وفي حين أن قوتهم البدنية قد زادت عشرة أضعاف، إلا أن ما ترسخ فيهم من الطفولة بعجزهم يظل بمثابة عقبة نفسية لا يمكنهم التغلب عليها. ينطبق الشيء نفسه علينا عندما نسير في قبضة دوافعنا وشهواتنا الجسدية الوضيعة. ولا نلاحظ أننا نتصرف تحت تأثير الخطية التي تتلاعب بنا.

إن رسالة التحرير التي تدعو الشعب العبري إلى مغادرة مصر هي في قلب الإنجيل وإيماننا. من الضروري أن نتذكر دائمًا أنه في بداية أي حياة إيمانية هناك دعوة للحرية. المسيح يحررنا من ثقل أخطائنا. إنه يعيد صفحتنا إلى الصفر ويعطينا سجلًا جنائيًا نظيفًا. لكن الخطر كبير أن نعود ننظر إلى الوراء وأن نرجع إلى العادات القديمة. في الواقع، كل خيار له عواقب، وكل حرية جديدة ترتبط بمسؤوليات جديدة. وأولئك الذين يتبعون المسيح يعرفون ذلك، خاصة عندما يتعرضون للقمع بسبب معتقداتهم.

"تَعَالَوْا إِلَيَّ يا جَمِيعَ ٱلْمُتْعَبِينَ وَٱلثَّقِيلِي ٱلْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ، اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لِأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ ٱلْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لِأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ.»" (مت ١١: ٢٨-٣٠).

لقد تعذب بولس من أجل إيمانه. ولكن إيمانه كان أقوى من أي شيء. لقد شعر أن التضحيات التي كان عليه أن يقدمها، تستحق أن يتحملها من أجل الاستمرار في الطريق المرسوم أمامه. إن العلاقة التي أقيمت مع مخلصه والنار المشتعلة بداخله كانت أقوى بكثير من كل القيود والمعارضات التي كانت في طريقه.

"فَٱثْبُتُوا إِذًا فِي ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلَّتِي قَدْ حَرَّرَنَا ٱلْمَسِيحُ بِهَا، وَلَا تَرْتَبِكُوا أَيْضًا بِنِيرِ عُبُودِيَّةٍ... إِنَّكُمْ إِنَّمَا دُعِيتُمْ لِلْحُرِّيَّةِ أَيُّهَا ٱلْإِخْوَةُ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا تُصَيِّرُوا ٱلْحُرِّيَّةَ فُرْصَةً لِلْجَسَدِ، بَلْ بِٱلْمَحَبَّةِ ٱخْدِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا." (غل ٥: ١، ١٣).

(٣) الماء: الروح

فضائل الماء الاستثنائية

ماذا سيكون كوكبنا الأرضي بدون ماء؟ لا شيء سوى أرض قاحلة لا حياة فيها. إن أول ما يبحث عنه علماء الفلك في الكواكب الأخرى هو الماء. كلما فكرت في الأمر أكثر، كلما تعجبت من كل فضائل عنصر الماء. إنه أساس الحياة على الأرض، كما أن الروح هي التي تحفز الحياة في جسم الإنسان.

تتكون المخلوقات من ٨٠% ماءً. يمكنهم البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة دون طعام، ولكن فقط بضعة أيام دون ماء. يعتقد الأطباء أنك بحاجة إلى شرب ما لا يقل عن لترين يوميا للبقاء في صحة جيدة. فالأرض التي لا تحتوي على ماء تجف بسرعة، ولكن حتى في الصحراء الأكثر جفافاً، فإن القليل من الماء يمكن أن تجعل الحياة تظهر ثانية وأن تزدهر. لا يوجد مكان أفضل لمراقبة الحيوانات في البلدان الحارة، أفضل من مصدر للمياه، وهو المكان الذي يأتي إليه كل حيوان لتناول الطعام في وقت ما من النهار أو

الليل، ولذلك يُعتبر الماء أحد الأغذية الأساسية الضرورية لجميع أنواع الحيوانات والنباتات.

لجعل الحياة تزدهر، يعرف كل بستاني أنه يجب عليه أن يسقي نباتاته. في الواقع، يمكن تخزين البذور لفترة طويلة في مكان جاف، ولكن بمجرد ملامستها للماء، فإنها تمتصه، وتنتفخ ويؤدي إنباتها إلى انفجار القشرة، لتبدأ عملية النمو. ثم من المهم الاستمرار في الري حتى يتطور النبات بشكل طبيعي. يحتاج كل من النباتات والبشر إلى إرواء عطشهم.

هناك تأثير آخر لا يقل أهمية وملموسًا وهو الدور المُطَهِّر للمياه. ليس هناك ما هو أجمل بعد جهد وحرارة قوية من الاستحمام المنعش الجيد الذي يزيل العرق والروائح الكريهة. في المطبخ، يُستخدم الماء أيضًا لتنظيف الطعام أو طهيه. في جميع الأديان، تستخدم طقوس التطهير بالماء لتطهير الجسم أو اليدين أو القدمين، وللتحضير وتهيئة النفس قبل اللقاء مع الإله.

ومن المثير للاهتمام أيضًا أن نتذكر الدور الحامل للمياه. فهي قادرة على حمل أثقل الأحمال دون عناء. فكر فقط في سفن الحاويات الكبيرة التي تعبر المحيطات ببضائعها. لكن هذه الآثار كانت معروفة بالفعل لدى قدماء المصريين الذين قاموا بالتالي بنقل الكتل الحجرية المخصصة لبناء الأهرامات عبر النيل. تستخدم بعض دول الشمال أيضًا الممرات المائية لحمل جذوع الأشجار التي تم قطعها من أعلى النهر.

ما سبق أن ذكرناه، يتعلق بالمياه كعنصر سائل، ولكن خصائصه لها نفس القدر من الأهمية في الحالة الصلبة أو الغازية. إن الثلج مثلاً ينعش، لكنه أيضًا وقبل كل شيء، له قدرة على حفظ الأشياء. فهو يخزن ثاني أكسيد الكربون، ولكنه قبل كل شيء يبقي الكائنات الحية

في حالة سبات لعدة قرون. فكِّر في الماموث المتجمد الموجود في سيبيريا. على الرغم من انقراض نوعه منذ فترة طويلة، إلا أن هناك عينات في حالة جيدة، بالإضافة إلى أسلاف بشريين تم العثور عليهم محاصرين في الأنهار الجليدية (مثل نهر أوتزي- على سبيل المثال). وفي الحالة الغازية، يتبخر الماء ليشكل السحب. وبالتالي فإنه يجعل من الممكن إدامة دورة الطبيعة أو الغطاء النباتي.

لقد ثبت أن الماء المستخدم في إطفاء حريق ما يضر بالمبنى أكثر من الحريق نفسه. عند حدوث تسونامي، فإن هذه الأمواج العملاقة تسحق كل شيء في طريقها، إن قوة الماء مرعبة حقاً. لا شيء يقاومها، حتى أقوى البيوت. وينطبق الشيء نفسه على المياه الجوفية التي، عندما يرتفع منسوبها قليلًا، تكون قادرة على رفع المباني الضخمة بقوة دفعها. تارة يتصرف الماء بصمت، وتارة أخرى بضجيج يصم الآذان.

لكن أحد التأثيرات الأكثر غموضًا، والذي يمكن اعتباره معجزة حقيقية قصدها الخالق: هي خصائصه الفيزيائية. مثل جميع العناصر، تقل كثافته مع إضافة الحرارة: جزيئات الماء تشغل مساحة أكبر في البخار مقارنة بالعنصر السائل. حتى الآن لا توجد مفاجآت. وعلى العكس من ذلك، كلما زاد تبريد عنصر ما، زادت كثافته. إلا الماء! في الواقع، تبلغ كثافة الماء أعظم كثافة عند ٤ درجات. وعند درجات أقل، يتمدد الماء مرة أخرى. وهذا ما يفسر عدم غرق قطعة من الجليد، بل تبقى على السطح وتسبح. إنها بالفعل معجزة خلقية، لأنه بفضل هذا التأثير، فإن قاع البحيرة لا يتجمد أبدًا. في منتصف الشتاء، يمكن للحيوانات أن تحتمي تحت الجليد دون خوف من الموت متجمدة أو محبوسة. إن عقلاً فائقاً وحده هو القادر على تصور وإدراك مثل هذه الميزات المعقدة.

الينابيع السماوية

في النصوص الكتابية، جميع المواقع السماوية لديها نهر واحد أو أكثر. وفي جنة عدن ينقسم النهر إلى أربعة ليروي العالم كله. القدس الجديدة لديها نهر ينقسم إلى قسمين. تتدفق هذه الجداول عادة من عرش الله أو معبده لري وجلب البركة الإلهية للعالم. فالماء نعمة إلهية يتابع بها نشاطه الإبداعي على الأرض.

في رؤيا حزقيال ٤٧ فإن هذا النهر يحيي الأشجار التي تنمو على ضفتيه. الثمار تغذي الحيوانات والبشر والأوراق تجلب الشفاء. تزدهر العديد من الأسماك بداخله. لكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن حجم المياه يتضاعف كل خمسة كيلومترات، لدرجة أنه يصبح من المستحيل عبوره. ويرتبط النهر بالأردن فينتهي مجراه في البحر الميت لتنقيته.

"وَقَالَ لِي: «هَذِهِ ٱلْمِيَاهُ خَارِجَةٌ إِلَى ٱلدَّائِرَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَتَنْزِلُ إِلَى ٱلْعَرَبَةِ وَتَذْهَبُ إِلَى ٱلْبَحْرِ. إِلَى ٱلْبَحْرِ هِيَ خَارِجَةٌ فَتُشْفَى ٱلْمِيَاهُ. وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ حَيَّةٍ تَدِبُّ حَيْثُمَا يَأْتِي ٱلنَّهْرَانِ تَحْيَا. وَيَكُونُ ٱلسَّمَكُ كَثِيرًا جِدًّا لِأَنَّ هَذِهِ ٱلْمِيَاهَ تَأْتِي إِلَى هُنَاكَ فَتُشْفَى، وَيَحْيَا كُلُّ مَا يَأْتِي ٱلنَّهْرُ إِلَيْهِ. وَعَلَى ٱلنَّهْرِ يَنْبُتُ عَلَى شَاطِئِهِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ كُلُّ شَجَرٍ لِلْأَكْلِ، لَا يَذْبُلُ وَرَقُهُ وَلَا يَنْقَطِعُ ثَمَرُهُ. كُلَّ شَهْرٍ يُبَكِّرُ لِأَنَّ مِيَاهَهُ خَارِجَةٌ مِنَ ٱلْمَقْدِسِ، وَيَكُونُ ثَمَرُهُ لِلْأَكْلِ وَوَرَقُهُ لِلدَّوَاءِ." (حز ٤٧: ٨-٩، ١٢).

يلعب نهر الأردن، أكثر من أي نهر آخر، دورًا خاصًا في الكتاب المقدس. إنه يمثل الفاصل بين الشعوب، لكنه قبل كل شيء هو حلقة الوصل بين ينابيع الشمال الخصبة والبحر الميت في الجنوب، بين البركة واللعنة. إن يوحنا المعمدان يجعله مكانًا للتوبة والتطهير، كما حدث مع نعمان الأبرص (٢مل ٥)، فيعتمد يسوع هناك وينال

المسحة المسيانية من الله (مت ٣: ١٦-١٧). ولكن على عكس مصر، حيث يعتبر النيل إلهًا في حد ذاته، فإن الأنهار تمثل جزءًا من الخليقة. إنها رموز للحياة وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعمل التطهيري لروح الله.

خصائص الروح

إن الروح مفهوم يصعب تحديده، تمامًا مثل الماء، الذي تدهشنا جميع خصائصه. على عكس الجسد، الروح غير مرئية. ومع ذلك، فإنها تبدو حقيقية للغاية: فالجسد الذي لا حياة فيه ليس أكثر من جسم خامل، لا يحركه سوي نسمة الحياة. مع ذلك، كيف يمكننا تفسير الاختلافات في الشخصية والسلوك والتصرفات الموجودة بين البشر، وأيضًا بين الحيوانات من نفس النوع؟ إن مفهوم الروح يغطي بُعدًا نعيه جميعًا، ولكن يصعب فهمه إلى حد كبير. هذا هو الجزء الخاص بنا من اللغز.

وفقًا للحقب والثقافات، تكون للروح خصائص متباينة. بالنسبة للبعض، هي خالدة، أي أنها تنجو من تحلل الجسد. على سبيل المثال، عند اليونانيين، الروح أبدية. بمجرد خروجها من الجسد، تتجسد مرة أخرى في جسد آخر. لذلك هناك قطيعة بين الجسد المائت والفاني، والنفس الخالدة.

بالنسبة للفكر الكتابي، فكل إنسان فريد من نوعه، إنه المخلوق الكامل لإله محب وشخصي. بالتالي فإن الروح والجسد لا ينفصلان. إذا كانت هناك حياة بعد الموت، فيجب أن يستمر الروح والجسد في الوجود معًا، وليس أحد يجادل أن جسم الإنسان في نهاية حياته يتحلل ويعود إلى التراب. ولهذا السبب وُلِدَ مفهوم الجسد غير المادي الذي يليه ويستمر في مسيرته في الحضور الأبدي للخالق والمسيح.

مصطلح "أنيما" (Anima) يأتي إلينا من اللاتينية وهو ما يعني النسمة، والتنفس. بحسب التعريفات[٣٦]، فإن النفس تكون أحيانًا مبدأ متعاليًا (روحيًا)، وأحيانًا جوهرية (مرتبطة بالكائن وحياته وفكره). الجانب الأول يؤكد على الحياة الدينية والعلاقة مع الله. إنه مكان يجتمع فيه الخير والشر. وبهذا المعنى نجد بعض التعبيرات مثل: خلاص نفوسهم، أو بيع الإنسان روحه للشيطان.

المعني الثاني يؤكد على جوهر الطبيعة البشرية، حيث إن بها مَلَكَاتٍ تجعل كل إنسان فريدًا. إنه يميز بين الإنسان وبين الأنواع الأخرى المخلوقة، سواء الحيوانية أو النباتية. فالنفس تمنح الإنسان القدرة على تصور الأفكار المجردة، وكذلك على تصور الله. ترتبط بهذا المعني كل أنواع التعبير مثل: غموض في النفس، حالة نفسية، نفس تتألم، موت في الروح، بذل الجسد والروح، في روحي وضميري، روح طيبة، توأم الروح. عندما يسلم الإنسان الروح، فهي اللحظة التي يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة. والنفس بهذا المعنى تشمل أحيانًا مفهوم القلب (مبدأ العاطفة)، وأحيانًا العقل (مبدأ الملكات الفكرية والعقل)، وكذلك مفهوم الضمير (مبدأ الملكات الأخلاقية).

إن الروح والجسد مرتبطان بشكل لا ينفصم. الخطيئة التي تدنس النفس تفسد الجسد. إذا كانت الروح مرتبطة بالله، يكون الجسد قادرًا على أن يكون أداة تسبيح وبركة، ولكن عندما تنشغل الروح بأفكار نجسة، يمكن أيضًا التلاعب بالجسد حتى يجد نفسه يقوم بأعمال رديئة. فالروح، بحسب القديس أغسطينوس، جوهر عاقل قادرًا على إدارة الجسد. وهكذا فإن محرك الجسد يأتي من روحه.

مثلما كان يسوع يفعل، غالبًا كان المفكرون اليهود كثيرًا ما يشرحون الحقائق التي يصعب فهمها من خلال سرد القصص.

---

[36] www. Cntrl.fr/définition/âme

تحاول القصة القصيرة التالية شرح الارتباط الوثيق الموجود بين الجسد والروح، وهو الرابط الذي يستمر حتى يوم القيامة. في الواقع، لا يمكن للجسد الخامل أن يرتكب الخطيئة، ولا الروح بلا جسد؛ فكيف يمكننا أن نتخيل أنه يمكن الحكم عليهم وإدانتهم في يوم من الأيام؟

ذات يوم سأل الإمبراطور "أنطونين" الحاخام "يهودا" (من القرن الثالث): "كيف يدين الله الإنسان بعد موته؟ لم يعد الجسد موجودًا، والروح نقية بطبيعتها." قال الحاخام يهودا: "كان لدى الملك حديقة جميلة تنبت فيها الثمار المبكرة، فأخذ حارسين، أحدهما أعمى والآخر أعرج." فقال الأعرج للأعمى: "إني أرى ثمارًا جميلة، احملني على كتفيك، فأنا أرشدك فنأكلها." وهكذا كان، وعندما طالب صاحب الحديقة بثماره، اعتذر كل من الاثنين قائلين: "هل يمكنني رؤيتها؟ هل يمكنني الوصول إليها؟" جعل الملك الرجل الأعرج يركب الأعمى وأدانهما معًا. هكذا سيجمع الله الجسد والنفس ليدينهما في اليوم الأخير.[٣٧]

باركي يا نفسي الرب

كما ذكرنا سابقًا، فإن عملية الطاعة والتقديس ليسا أمرًا بسيطًا. تؤثر بيئتنا علينا بقوة لدرجة أنه من الصعب أن نتعارض مع الاتجاه السائد الذي يرسمه لنا المجتمع. إنه مثل السباحة في النهر، التيار فيه قوي جدًا لدرجة أنه بدون موارد جسدية ونفسية خارقة للطبيعة، يكاد يكون من المستحيل التعامل معه بمرور الوقت. بالفعل بعد الأمتار الأولى يشعر الإنسان بالإحباط والتعب.

[37] www.mivy.fR/articles/1412corps-ame.html

الروح هي المحرك للإنسان. لكي تعمل الروح، فهي تحتاج إلى وقودها الخاص، تمامًا كما يحتاج الجسم إلى الغذاء. هذا ما فهمه المرتل عندما حث نفسه على تسبيح إلهه، ومهما كان الوضع الذي يجد الفرد نفسه فيه، فإن الروح تحتاج إلى أن تتغذى على الموجات والأفكار الإيجابية، وإلا فإن عدم حدوث ذلك يمكن أن يثبط عزيمة الشخص تماما ويؤدي إلى اضطرابات نفسية. إن تدخلها يمكن أن يحدث فرقًا بين إدراك نصف الكوب الفارغ أو نصفه المملوء. إن اتخاذ القرار بتقديم الشكر بدلاً من الشكوى يمكن أن يحدث فرقًا كبيرًا في الحياة اليومية. من خلال مواجهة تجارب الحياة بروح مشبعة بالأكسجين وحالة ذهنية جيدة، حتى الجسد يصبح أفضل، وعلى الرغم من عوامل تعرية السنين، يظل شابًا وديناميكيًا.

"بَارِكِي يَا نَفْسِي ٱلرَّبَّ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ ٱسْمَهُ ٱلْقُدُّوسَ. بَارِكِي يَا نَفْسِي ٱلرَّبَّ، وَلَا تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ. ٱلَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. ٱلَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ. ٱلَّذِي يَفْدِي مِنَ ٱلْحُفْرَةِ حَيَاتَكِ. ٱلَّذِي يُكَلِّلُكِ بِٱلرَّحْمَةِ وَٱلرَّأْفَةِ. ٱلَّذِي يُشْبِعُ بِٱلْخَيْرِ عُمْرَكِ، فَيَتَجَدَّدُ مِثْلَ ٱلنَّسْرِ شَبَابُكِ." (مز ١٠٣: ١-٥).

كتب "إبيكارموس"، وهو فيلسوف من القرن السادس قبل الميلاد: إن طهارة الروح هي التي تؤدي إلى طهارة الجسد أو التقوى هي أفضل زاد لرحلة الحياة. لقد فهم بالفعل أن باطن الإنسان له الأسبقية على المظاهر الخارجية وأن الدوافع النقية تشكل أساس الحياة المكتملة. إنها أساس الحكمة، كما دعا إليها الفلاسفة، ولكن أيضًا الرسل.

"لِأَنَّهُ حَيْثُ ٱلْغَيْرَةُ وَٱلتَّحَزُّبُ، هُنَاكَ ٱلتَّشْوِيشُ وَكُلُّ أَمْرٍ رَدِيءٍ. وَأَمَّا ٱلْحِكْمَةُ ٱلَّتِي مِنْ فَوْقُ فَهِيَ أَوَّلًا طَاهِرَةٌ، ثُمَّ مُسَالِمَةٌ، مُتَرَفِّقَةٌ، مُذْعِنَةٌ، مَمْلُوَّةٌ رَحْمَةً وَأَثْمَارًا صَالِحَةً، عَدِيمَةُ ٱلرَّيْبِ وَٱلرِّيَاءِ. وَثَمَرُ ٱلْبِرِّ يُزْرَعُ فِي ٱلسَّلَامِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَفْعَلُونَ ٱلسَّلَامَ." (يع ٣: ١٦-١٨).

إن السيطرة على أرواحنا تسمح لنا بالسيطرة على أجسادنا. يدعونا الله إلى تعزيز تنفس الروح من خلال تغذية حياتنا الداخلية. وهذا يتطلب حياة وطعامًا متوازنين وحياة صلاة وتبادل مع الخالق. تتضمن هذه المساهمة بطبيعة الحال اتخاذ قرارات جيدة والاتصال بمصدر الحياة الذي ينقله الروح القدس. وبدون تحول عميق، فمن الصعب مع مرور الوقت، أن يستمر الإنسان مثابراً. مثل الماء، الذي قد يبدو لنا نقيًا وصالحًا جدًا، ومع ذلك يحمل كل أنواع الشوائب، تحتاج أرواحنا أيضًا إلى التقديس والتنقية بالتدخل الإلهي.

"لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ ٱلسَّيِّدُ ٱلرَّبُّ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ: «بِٱلرُّجُوعِ وَٱلسُّكُونِ تَخْلُصُونَ. بِٱلْهُدُوءِ وَٱلطُّمَأْنِينَةِ تَكُونُ قُوَّتُكُمْ.» فَلَمْ تَشَاءُوا." (إش ٣٠: ١٥).

(١٨) النَّفْس: النفخة

روح الله وروح الإنسان

"وَجَبَلَ ٱلرَّبُّ ٱلْإِلَهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ ٱلْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً." (تك ٢: ٧).

يُستخدم مصطلح الروح للإشارة إلى كل من الله والإنسان. إنها نفس المفردات، لكنها تغطي حقيقتين مختلفتين بشكل أساسي. أثناء الخليقة، يرف روح الله – ruah – على سطح المياه (تك ١: ٢). ولذلك فهو يختلف جوهريًا عن الماء والأرض، اللذين يشكلان العناصر الأساسية للخليقة. في قصة الخلق الثانية، ينفخ الله روح الحياة في أنف آدم، فيعطيه الحياة. وهو نفس الأمر في نبوة (حز٣٧)، حيث تتجمع العظام اليابسة، ثم تنتعش بنفخة الروح. يذكر النبي زكريا أن الخالق هو الذي كوّن الروح البشرية (زك ١٢: ١). بينما يحدد أيوب أن نسمة القدير هي التي تجعل الإنسان عاقلًا (أي٣٢: ٨).

إن روح الله موجود قبل الخليقة. إنه جزء من جوهر الله. باعتباره عنصرًا مهمًا في الثالوث الإلهي، فهو يمثل الجانب العلائقي لله، الذي يقيم اتصالًا مع خليقته ويلهم البشر. وبفضله يمكننا أن نرى الله في حياتنا كما في شخص يسوع ابنه. روح الله أبدي، بينما روح الإنسان مخلوقة، تتوقف عن الوجود عندما يسلم المخلوق أنفاسه الأخيرة، علامة على الموت الأرضي. إن روح الإنسان أو روح العالم يجعلان من الممكن التلاعب بها وتحريفها بالخطيئة بسهولة.

"فَأَعْلَنَهُ ٱللهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ. لِأَنَّ ٱلرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ ٱللهِ. لِأَنْ مَنْ مِنَ ٱلنَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا رُوحُ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّذِي فِيهِ؟ هَكَذَا أَيْضًا أُمُورُ ٱللهِ لَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلَّا رُوحُ ٱللهِ. وَنَحْنُ لَمْ نَأْخُذْ رُوحَ ٱلْعَالَمِ، بَلِ ٱلرُّوحَ ٱلَّذِي مِنَ ٱللهِ، لِنَعْرِفَ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمَوْهُوبَةَ لَنَا مِنَ ٱللهِ." (١كو ٢: ١٠-١٢).

ولذلك هناك اختلاف في الطبيعة والأصل بين الروحين. الأول أبدي، موجود في كل مكان وكلي العلم، في حين أن الثانية مخلوقة وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالشخص البشري. روح الله قدير. فهو يعمل في العالم لتحقيق مقاصد الله. فهو يمنح المواهب الروحية، ويلهم المؤمنين ويرشدهم (راجِع: ١كو ١٢). أما روح الإنسان فهي تسمح له بالتفكير والشعور والاختيار. كما أنها تدخل في علاقة الإنسان مع ربه.

"وَلَمَّا قَالَ هَذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: «ٱقْبَلُوا ٱلرُّوحَ ٱلْقُدُسَ. مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ.»" (يو ٢٠: ٢٢).

فمن خلال روح الله تصبح المُصالحة مع الله ممكنة، ويطلق الغفران فينا عملية التقديس. إن روح الله لديه بالفعل القدرة على تغيير حياة المؤمنين، وتقديسهم، وقيادتهم إلى مشابهة صورة المسيح.

ولكن بدون تدخل إلهي، تظل روح الإنسان منفصلة عن روح الله، وبالتالي تتأثر بالخطية.

يؤكد يسوع على أهمية روح الله لاستدامة عمله في العالم. إنه يَعِد، حين أعلن عن رحيله عن هذا العالم، بإرسال معيناً مساوٍ له في شخص البارقليط، وهو لفظ يوناني معناه 'المدعو بجانب'. يتم ترجمته على أنه رفيق، مستشار، مساعد، داعية، محامي. إن روح الله يطبع فكره في أذهاننا. إنه يوحي لروحنا بعمل ما ويهمس إلينا بما يجب أن نقوله من كلمات عندما نجد أنفسنا في حاجة إلى ذلك، وبشكل خاص عندما نتعرض للاضطهاد.

"إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَٱحْفَظُوا وَصَايَايَ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ ٱلْآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى ٱلْأَبَدِ، رُوحُ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَرَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لِأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. وَأَمَّا ٱلْمُعَزِّي، ٱلرُّوحُ ٱلْقُدُسُ، ٱلَّذِي سَيُرْسِلُهُ ٱلْآبُ بِٱسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ." (يو ١٤: ١٥-١٧، ٢٦).

يشدد الرسول بولس على أهمية الروح في حياة المؤمنين والكنيسة. بفضله تظهر قوة الله في العالم، وبشكل خاص في العلاقات التي تجعل من الكنيسة جسدًا حيًا وديناميكيًا. كل مؤمن يخضع للروح يتحول ويتقدس. وهكذا يتحول جسده إلى مكان للعبادة الروحية (رو١٢: ١). لذلك لم تعد هناك حاجة إلى الهيكل المادي في أورشليم، لأن كل جسد يصبح هيكلًا حيث يظهر الروح. من هذه العلاقة تتدفق المواهب الروحية التي تؤهل المؤمنين للخدمة وتساعدهم على أن يعيشوا حياة بحسب مشيئة الله.

يؤكد الرسول بولس على أهمية الشركة مع الروح القدس، وهو يشجع المؤمنين على أن يمتلئوا بالروح، وأن يسيروا بالروح، وأن

ينقادوا به. يرى بولس أن الروح هو مصدر الحياة الروحية. ويحث المؤمنين على العيش في شركة دائمة معه. وهكذا فإن الروح هو حضور الله الفعَّال في حياة المؤمنين، الذي يجددهم، ويحولهم، ويجهزهم، ويرشدهم في مسيرتهم الروحية. بدون الروح، تكون الحياة المسيحية والنمو الروحي مستحيلة. إنه القوة الحقيقية التي تقوي الإيمان وتحفزه (أف ٣: ١٦). ففيه تظهر الحرية الحقيقية، التي تسمح لنا بالإفلات من قبضة الشر في حياتنا.

"وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلرَّبِّ يُرْفَعُ ٱلْبُرْقُعُ. وَأَمَّا ٱلرَّبُّ فَهُوَ ٱلرُّوحُ، وَحَيْثُ رُوحُ ٱلرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ. وَنَحْنُ جَمِيعًا نَاظِرِينَ مَجْدَ ٱلرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرْآةٍ، نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ ٱلصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ ٱلرَّبِّ ٱلرُّوحِ." (٢كو ٣: ١٦-١٨).

تجليات الروح القدس

وبما أن روح الله غير مرئي، فإن الكتاب المقدس يستخدم عددًا كبيرًا من الصور أو الرموز لوصفه، بدءًا بالنفس أو الريح. والواقع أن الريح ظاهرة لا تخطر على بالنا، ولكن يمكن تحديد آثارها بوضوح. فهي تجعل الأشجار تتحرك حتى تنحني أو حتى تقتلعها أثناء العواصف. أما على الماء، فيمكن أن تنتج موجات عملاقة. مثل تيارات الأنهار، كما يمكن لنسمة الروح أن تدفعنا إلى الأمام، أو على العكس، تمنعنا من المضي قدمًا. وفي قصة عبور البحر الأحمر، فإن الريح هي التي تخلق الممر داخل مياه البحر. ثم يظهر الروح في عمود النار وفي السحاب ليرشد الشعب أو يظهر حضور الله في خيمة الاجتماع (خر ٤٠: ٣٨). وفي سيناء أيضًا يعبر الروح عن نفسه بالبرق والرعد (خر ١٩: ١٨).

إن أحد النصوص الأكثر رمزية يصور فيه النبي إيليا، الذي يعتبر أهم الأنبياء. ومع ذلك، بعد معجزة تدخل الله أثناء الذبيحة التي

وضعته في مواجهة مع أنبياء البعل، اضطر إلى الهروب إلى البرية لإنقاذ حياته من انتقام الملكة إيزابل (١مل ١٩). كان إيليا مُحبَطًا تمامًا حتى أنه طلب أن يموت. لكن الله لا يرى الأمر بهذه الطريقة. إنه يغذِّيه ويرسل له طعامًا ويكشف عن نفسه بطريقة خاصة جدًا.

"فَقَالَ: «اُخْرُجْ وَقِفْ عَلَى الْجَبَلِ أَمَامَ الرَّبِّ». وَإِذَا بِالرَّبِّ عَابِرٌ وَرِيحٌ عَظِيمَةٌ وَشَدِيدَةٌ قَدْ شَقَّتِ الْجِبَالَ وَكَسَّرَتِ الصُّخُورَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الرِّيحِ. وَبَعْدَ الرِّيحِ زَلْزَلَةٌ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الزَّلْزَلَةِ. وَبَعْدَ الزَّلْزَلَةِ نَارٌ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي النَّارِ. وَبَعْدَ النَّارِ صَوْتٌ مُنْخَفِضٌ خَفِيفٌ. فَلَمَّا سَمِعَ إِيلِيَّا لَفَّ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ وَخَرَجَ وَوَقَفَ فِي بَابِ الْمُغَارَةِ، وَإِذَا بِصَوْتٍ إِلَيْهِ يَقُولُ: مَا لَكَ هَهُنَا يَا إِيلِيَّا؟" (١مل ١٩: ١١-١٣).

لم يتأثر إيليا بالريح ولا بالزلزال ولا بالنار. لكنه يرتعد عندما يستمع إلى قداسة الله التي تظهر في صوت خافت ورقيق. يصاب بالقشعريرة ويخرج من مخبأه. يستطيع الله بعد ذلك أن يوجه له موعظة تحول يأسه إلى دافع جديد للحياة. ينطلق إيليا ويذهب للقاء إليشع الذي دُعي ليتولى المسؤولية.

في العهد القديم، لم يُعطَ الروح لجميع المؤمنين. فهو يعلن نفسه للأنبياء ولعدد محدود من الأشخاص الذين اختارهم الله لخدمة ما أو لإنجاز مهمة معينة. هذه هي الحالة الرمزية للشيوخ الذين يجب أن يساعدوا موسى في قيادة الشعب وإعفائه من مهمته الثقيلة.

"فَخَرَجَ مُوسَى وَكَلَّمَ الشَّعْبَ بِكَلاَمِ الرَّبِّ، وَجَمَعَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ شُيُوخِ الشَّعْبِ وَأَوْقَفَهُمْ حَوَالَيِ الْخَيْمَةِ. فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَتَكَلَّمَ مَعَهُ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى السَّبْعِينَ رَجُلًا الشُّيُوخَ. فَلَمَّا حَلَّتْ عَلَيْهِمِ الرُّوحُ تَنَبَّأُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا." (عد١١: ٢٤-٢٥).

وبما أننا لا نري الروح، إلا أننا نستطيع أن نصف آثاره، وأكثرها شيوعًا هي المظاهر النبوية التي يمكن أن تحدث عبر الأحلام أو الرؤى أو حتى تأثيرات الدهش. لكن الروح القدس يعمل في كثير من الأحيان دون ظهور مرئي، خاصة عندما يفتح الأذهان على الإيمان بالمسيح، ويصنع شفاءاتٍ داخلية، ويلهم القيام بالكلمات أو الأفعال. وفي قصص العهد الجديد يتم تقديمه تحت صورة الحمامة التي تنزل على يسوع أثناء معموديته أو حتى على شكل لهيب نار في يوم العنصرة.

الروح يهبُّ حيث يشاء

غالبًا ما يوصف الروح بأنه شخص له مزاجه الخاص وقنوات الاتصال الخاصة به. الروح يمنح الرؤية ويغرس الإيمان ببعد الأبدية. كثيراً ما يتم تقديمه كقوة نشطة ومُغيِّرة وشافية. إن أحد أفضل الأمثلة على ذلك، ما حدث مع التلاميذ بعد موت يسوع. كانوا يختبئون في العلية المُغَلَقة جيدًا خوفًا من اليهود. ولكن عندما يظهر لهم يسوع وينفخ فيهم الروح، يتحول هؤلاء الناس الخجولون والخائفون على الفور إلى مجموعة شجاعة ومعترفة تخرج إلى الشوارع وتشهد لإيمانها في إسرائيل ثم تفتن المسكونة كلها (يو ٢٠: ١٩-٢٣).

أحب أن أقارن الروح بالرياح التي يجب أن أتحكم فيها أثناء الإبحار في البحيرة. عليك أن تتعلم الاستماع إليها وترويضها من خلال الضبط المستمر لفتح الأشرعة. إنها تغير اتجاهها وقوتها باستمرار، يمكن أن تكون هادئةً، ثم تتحول سريعًا خلال هبات قوية. ومن أجل الاستفادة القصوى من طاقتها والتقدم في الاتجاه المطلوب، من الضروري ضبط الأشرعة عن طريق تشغيل الحبال بشكل صحيح. كلما قمت بترويضها من خلال التدرب على التعامل معها،

كلما استقرت ردود الفعل الجيدة وأصبح التنقل فعَّالًا. وينطبق الشيء نفسه على روح الله، الذي يجب الاستماع إليه وفهمه والانقياد به. فكما يجب أن يتعرف الطفل على صوت والديه، يتدرب المؤمن تدريجيًا على الإصغاء للروح من خلال الصلاة والتأمل والخبرة اليومية.

إن الطرق التي يتحدث بها الروح إلينا لا حدود لها. لقد أتيحت لي الفرصة بالفعل لأشهد كيف نقل الله لي الكلمات من خلال الأصدقاء أو العظات أو الصور أو حتى الكلمات المسموعة، خاصة عندما كنت هادئًا في سريري. في كثير من الأحيان، عندما يتحدث الله إلينا ويرسل لنا رسالة، لا يكون هناك أي شك حول مصدرها. ولكن يحدث أيضًا أن الله يتحدث إلينا من خلال ظروف تبدو وكأنها همسات إلهية. يستخدم الله النطاق الكامل لحساسياتنا، سواء كانت أفكارنا أو مشاعرنا أو عواطفنا. ولهذا السبب من المفيد أن ننفتح على هذا البعد من تلقاء أنفسنا، من خلال قبول هذه الأوامر وأخذها على محمل الجد.

إن الاستماع إلى الروح معناه أن نترك الروح يفاجئنا. إنه لا يتكلم معنا بصيغة آمرة. في كثير من الأحيان، عندما لا أتوقع أي شيء، فإنه يكشف عن نفسه. الروح يبعدنا عن تمحورنا حول أنفسنا. تعجبني صورة يوحنا في سفر الرؤيا عندما يكتشف أن هناك بابًا مفتوحًا في السماء. ثم يدخل هذا الفضاء غير المتوقع ويحضر عبادة غريبة حيث يتم تبجيل الحمل. ثم يرى مجموعة من الأحداث تتكشف والتي سيكون لها تأثير على الأرض. إن حقيقة انفصاله عن واقعه كمنفيّ تفتح له آفاقًا جديدة من وجهة النظر الإلهية. تُرى، ما هو الباب الذي فتحه الله الآن لي ولكم في السماء؟

"بَعْدَ هَذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَٱلصَّوْتُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي سَمِعْتُهُ كَبُوقٍ يَتَكَلَّمُ مَعِي قَائِلًا: «ٱصْعَدْ إِلَى هُنَا فَأُرِيَكَ مَا لَا بُدَّ

أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ هَذَا». وَلِلْوَقْتِ صِرْتُ فِي ٱلرُّوحِ، وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَعَلَى ٱلْعَرْشِ جَالِسٌ." (رؤ ٤: ١-٢).

الولادة من الماء والروح

إن واحدة من أهم القصص الكتابية هي تلك التي تصور نيقوديموس، معلم الشريعة والمؤمن في الظل. على الرغم من أنه عالم ومعلم مشهور، يأتي نيقوديموس سرًا للتحدث مع يسوع الذي يُعْجَب به. إنه يدرك سلطته ويذهل بالآيات المعجزية التي زرعها يسوع في طريقه. لكنه لا يفهم أصل هذه التصرفات. يسوع لديه رسالة قوية وسلطة خارقة للطبيعة، دون أن يكون قد حصل على دراسات عليا أو جاء من عائلة جيدة، على عكس نيقوديموس.

"أَجَابَ يَسُوعُ: «ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنَ ٱلْمَاءِ وَٱلرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ ٱللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ ٱلْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَٱلْمَوْلُودُ مِنَ ٱلرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لَا تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ. اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لَكِنَّكَ لَا تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ ٱلرُّوحِ." (يو٣: ٥-٨).

ما لا يفهمه نيقوديموس هو دور الروح القدس. إنه يفكر كلاهوتي، ويحاول أن يجادل يسوع من خلال الحجج. لكن الأخير يعيده إلى نفسه بناءً على خبرته كمؤمن يتواصل مع الله أبيه: نحن إنما نتكلم بما نعرفه حقًا، ونشهد بما رأينا (يو ٣: ١١). بعد ذلك يدور حوار هو مثل حوار الطرشان، بين شخصين لا يتحدثان نفس اللغة، أحدهما يستخدم المنطق البشري، بينما يتحدث يسوع عن الحقائق الروحية. إن ما يقدمه النص هنا لا يخلو من نوع من السخرية من خلال تناقض المفردات المستخدمة بين منطقين وولاءين:

المعلم/التلميذ، الليل/النهار، النور/الظلام، الرؤية/عدم الرؤية، الحقائق الأرضية/السماوية، الولادة من الماء/الروح، إلخ.

مع ذلك، فإن انفتاح نيقوديموس على رسالة يسوع وعمله لم يتبعه أي آثار بعد هذا اللقاء الليلي. إنه يُبقِي إيمانه سرًا، لئلا يعرض سمعته للخطر. برفضه مغادرة منطقة الراحة الخاصة به والسماح لريح الروح بأن تحمله بعيدًا، أخطأ نيقوديموس وفاته جوهر الأمر، مما سيجعله يندم عليه لاحقا. وهذا ما تقترحه القصتان الأخريان اللتان يدخل فيهما نيقوديموس إلى المشهد في إنجيل يوحنا.

في إنجيل يوحنا، لم يكد يسوع يبدأ بالتعليم في الهيكل حتى سعت السلطة الدينية في أورشليم إلى القبض عليه من أجل إسكاته. لكن الحراس الذين أرسلهم الفريسيون يعودون خالي الوفاض. لقد تأثروا برسالة يسوع، على عكس قادتهم (يو ٧: ٤٥). وهذا يثير استياء السنهدرين بشدة، الذين من بينهم نيقوديموس. ومع ذلك، بدلًا من الشهادة لإيمانه، تجرأ بخجل على طرح سؤال قانوني بحت ومنطقيي: "أَلَعَلَّ نَامُوسَنَا يَدِينُ إِنْسَانًا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلًا وَيَعْرِفْ مَاذَا فَعَلَ؟" (يو ٧: ٥١).

بعد ذلك، بمجرد موت يسوع، سيساعد نيقوديموس يوسف الذي من الرامة في الاستعدادات لدفن الجسد. لقد أنفق ثروة في تقديم ٣٠ كيلوجرامًا من المُر والصبر لتحنيط الجسد (يو ١٩: ٣٩). وهذا الإسراف هو علامة واضحة على الحالة الذهنية التي كانت تسكن نيقوديموس في ذلك الوقت. إنه من المؤكد، وأنه من أجل هذا السبب يذكر الإنجيلي يوحنا هذه القصة، إن ما فعله نيقوديموس إنما هو لفتة تعبر عما يجول في نفسه من يأس. ولكن هل يستطيع حقًا أن يُخلِّص نفسه من جبنه؟ ألم يكن بإمكانه أن يعكس مسار التاريخ بينما كان يسوع لا يزال على قيد الحياة؟

"اَلرُّوحُ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي. أَمَّا ٱلْجَسَدُ فَلَا يُفِيدُ شَيْئًا. اَلْكَلَامُ ٱلَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ." (يو ٦: ٦٣).

السلوك تحت سلطان الروح القدس

تعتمد الحياة الروحية إلى حد كبير على حساسيتنا وخضوعنا لروح الله، وقد سلطنا الضوء سابقاً على الفرق بين روح الإنسان والعالم في مواجهة روح الله. إن حياة الروح والبعد النبوي والجهاد الروحي كلها مجالات تستحق كتاباً في حد ذاتها. وهذا برنامج متسع خارج نطاق هذا الكتاب. كما قدمت عدة جوانب منها في أعمالي السابقة عن بولس أو البحث عن السعادة.

ومع ذلك، دعونا نتذكر دور روح الله في يقيننا بأننا نلنا الغفران والخلاص. إن الإيمان هو اليقين الراسخ بما يرجى، كما تقول الرسالة إلى العبرانيين (١١: ١). هذا عنصر رئيسي ينبني عليه الإيمان. ويذكرنا الذين تحولوا إلى المسيحية من الديانات الأخرى بهذا بانتظام. هذا يمنح إيماننا أساسًا يسمح لنا بمواجهة الحياة وتجاربها بسلام وسلطة جديدين.

"وَكَلَامِي وَكِرَازَتِي لَمْ يَكُونَا بِكَلَامِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلْمُقْنِعِ، بَلْ بِبُرْهَانِ ٱلرُّوحِ وَٱلْقُوَّةِ." (١كو ٢: ٤).

إن العلاقة الوثيقة التي حافظ عليها يسوع مع أبيه هي التي أسست خدمته وأعطته السلطة التي حسده عليها القادة الدينيون في ذلك الوقت (راجع مت ٧: ٢٨، وما يليها). إنها السلطة التي نحتاجها أيضًا عندما نريد أن نصلي من أجل المرضى أو نطرد الأرواح الشريرة. في أعمال الرسل لدينا أمثلة عن استفانوس أو يعقوب أو بولس الذي يتحدث بثقة أمام جمع كبير من غير المؤمنين. ولا يزال الروح هو الذي يلهمهم ويقويهم في خطواتهم.

"أَمَّـا أَنَـا فَـإِنِّي ٱلرَّاعِـي ٱلصَّـالِحُ، وَأَعْـرِفُ خَاصَّـتِي وَخَاصَّـتِي تَعْرِفُنِي، كَمَا أَنَّ ٱلآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ ٱلآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ ٱلْخِرَافِ. وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ ٱلْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا فَتَسْمَعُ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ." (يو ١٠: ١٤-١٦).

فحياتنا الإيمانية تعتمد إذن على قدرتنا على سماع صوت سيدنا، كما تسمع الخراف صوت راعيها وتخضع له. إن الأمر يتعلق بعمل تطوعي يتطلب السمع والطاعة. ولذلك فإن إتباع الروح يتطلب تعلم الإصغاء الروحي، بالإضافة إلى قبول إتباع هذا الصوت الداخلي عندما يظهر. ليس من السهل وضع كلا المفهومين موضع التنفيذ. أنهما ينبعان من التعليم والنضج الروحي.

"وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي ٱلسَّمَاوِيَّاتِ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ." (أف ٢: ٦).

الإيمان يأخذنا إلى بعد جديد. إنه يدعونا إلى رؤية الأشياء من وجهة نظر السماء. الباب مفتوح هناك، والمقعد محجوز لنا هناك مع المسيح. إن الطريق يفترض عملية تطهير وتقديس.

"فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ." (مت ٥: ٤٨).

قد تبدو المطالب عالية جدًا، بل ومن المستحيل تلبيتها، لكن المسيح وعدَ: ليس شيء غير ممكن عند الله (لو ١: ٣٧). إن دورنا هو ألا نقف مكتوفي الأيدي، أو معاندين لصوته، بل أن نسير على الطريق الذي أعده لنا، وألا نخاف من مواصلة الطريق عندما نعبر الصحراء. هذا ما يسميه الكتاب المقدس "الباب الضيق"، لكنه يؤدي إلى الطريق الذي يؤدي إلى الحياة والحرية الحقيقية (مت ٧: ١٣، وما يليها).

"وَلْيَمْلَأْكُمْ إِلَهُ ٱلرَّجَاءِ كُلَّ سُرُورٍ وَسَلَامٍ فِي ٱلْإِيمَانِ، لِتَزْدَادُوا فِي ٱلرَّجَاءِ بِقُوَّةِ ٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ." (رو ١٥: ١٣).

خاتمة الجزء الثاني

يمكن لعبور الصحراء أن يتَّخذَ أشكالًا عديدة ومختلفة. قد تكون هناك تحديات جسدية ومادية يجب مواجهتها. في بعض الأحيان نعاني من الجوع والعطش. في الطريق، كما في قصة السامري الصالح، يمكنك أن تقابل أشخاصًا خبيثين ومسيئين وأحيانًا أعداء عنيفين. وفي أحيان أخرى، يتعلق الأمر بمواجهة شياطيننا الداخلية، والأفكار السيئة، كما يصفها لنا آباء الصحراء.[٣٨] في كثير من الأحيان يتعين علينا أن نحارب دوافعنا وعاداتنا. إن روح المقارنة والخوف تأسرنا وتمنعنا من التقدم كما نريد.

مع كل ذلك، يمنحنا الله مكانًا ويشجعنا على التغلب على نقاط الضعف في طبيعتنا الداخلية. يريدنا أن ننمو وأن يحررنا من كل أشكال العبودية، ومن كل ما يربطنا ويمنعنا من مواصلة السير على طريق قلبنا. لهذا السبب، كما هو الحال مع الشعب العبراني، يدفعنا الله لعبور مساحات الصحراء والتساؤلات. إن الهدف، كما وصفه النبي هوشع بشكل جيد، هو أن يلمس قلوبنا ويقربنا منه. فهو يود أن يكون راعينا الصالح، الذي يدعونا بأسمائنا ويطمئننا بصوته المألوف. يريد أن يصبح سيد أجسادنا، ويطهر أنفسنا، ويتحدث إلى أرواحنا. لقد خلقنا الله على صورته. لقد عهد إلينا برسالة هي مواصلة نشاطه الخلاق المبارك في هذا العالم.

لقد وضع فينا كل الإمكانات اللازمة، كما يفعل في البذور المزروعة في الحدائق. والأمر متروك لنا الآن لتحويل هذه

[٣٨] راجِع: چون كلود، أقوال القدماء، باريس، Seuil، ١٩٧٦.

الإمكانات إلى موارد ملموسة، قادرة على تحقيق الأهداف السامية التي وضعناها لأنفسنا. بمعونته سنكون قادرين على الازدهار والنمو للوصول إلى القامة الكاملة التي كانت نائمة في البذرة منذ الولادة.

يقول البعضُ: "كُلُّ ٱلْأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي»، لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ ٱلْأَشْيَاءِ تُوافِقُ. «كُلُّ ٱلْأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي»، لَكِنْ لَا يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ. ٱلْأَطْعِمَةُ لِلْجَوْفِ وَٱلْجَوْفُ لِلْأَطْعِمَةِ، وَٱللهُ سَيُبِيدُ هَذَا وَتِلْكَ. وَلَكِنَّ ٱلْجَسَدَ لَيْسَ لِلزِّنَا بَلْ لِلرَّبِّ، وَٱلرَّبُّ لِلْجَسَدِ. وَٱللهُ قَدْ أَقَامَ ٱلرَّبَّ، وَسَيُقِيمُنَا نَحْنُ أَيْضًا بِقُوَّتِهِ... اُهْرُبُوا مِنَ ٱلزِّنَا. كُلُّ خَطِيَّةٍ يَفْعَلُهَا ٱلْإِنْسَانُ هِيَ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْجَسَدِ، لَكِنَّ ٱلَّذِي يَزْنِي يُخْطِئُ إِلَى جَسَدِهِ. أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ ٱلَّذِي فِيكُمُ، ٱلَّذِي لَكُمْ مِنَ ٱللهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ؟ لِأَنَّكُمْ قَدِ ٱشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا ٱللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ ٱلَّتِي هِيَ لِلهِ." (١كو ٦: ١٢-١٤، ١٨-٢٠).

الخاتمة

مثل إسرائيل، وبطريقة ما، فقد جئنا جميعًا من مصر. لقد كنا جميعًا عبيدًا للخطيئة، بغض النظر عن أشكالها. العالم يأسرنا ويشتتنا ويقيدنا. إن طبيعتنا البشرية تعيدنا كل يوم إلى حدودنا الجسدية والنفسية والروحية. دون أن ندرك ذلك، فإن المياه التي نخوض فيها يوميًا تكون مضطربة جدًا. الله وحده هو الذي يستطيع أن يحررنا من حالة التبعية هذه ويطهر أفكارنا وأفعالنا.

إن الخروج من مصر يبدأ عادة بالوعي، وهذا كثيراً ما يتطلب منا نداءً وطلبًا للمساعدة، والتي يستجيب الله لها دائمًا بسرعة. لقد زرع فينا الأمل المرتبط برؤية لحياة مختلفة، بل ولحياة أفضل. لقد نقش فينا فكرة الخلود ورسم معالم أرض الموعد الحقيقية. إذا قبلنا التحدي، وإذا وافقنا على مغادرة منطقة الراحة الخاصة بنا لكي نتبعه، فسوف يأخذ بيدنا ويجعلنا نكتشف عالمًا مختلفًا.

"أَنْتُمْ مِنَ ٱللهِ أَيُّهَا ٱلْأَوْلَادُ، وَقَدْ غَلَبْتُمُوهُمْ لِأَنَّ ٱلَّذِي فِيكُمْ أَعْظَمُ مِنَ ٱلَّذِي فِي ٱلْعَالَمِ." (١يو ٤: ٤).

لقد مررنا جميعًا بفترة من الصحراء في وقت أو آخر، طوعًا أو لأن الظروف قادتنا إلى هناك. هذه ليست نزهة في بستان أبدًا، فالمسألة هي مسألة قبول هذا الاختبار بثقة في الرب، مثلما كان الأمر مع الشعب العبراني، لأن الذي دعانا إليها يساعدنا على تجاوزها والتغلب عليها. إن الله مُحِب، يرعى حاجات أولاده. فهو يعرف احتياجاتنا أفضل مما نعرف نحن أنفسنا، لأنه خلقنا، إنه يمنحنا الماء والطعام ليس فقط لأجل أجسادنا، بل أيضاً لأجل نفوسنا وأرواحنا.

في العبرية كلمة صحراء (ميدبار) قريبة جدًا من كلمة (دابار). لقد رأينا مع موسى والنبي هوشع أن البرية تحمل مفاجآت، كونها المكان الذي يقودنا الله فيه ليكشف عن نفسه وينقل إلينا إرادته ويتحدث إلى قلوبنا. إنها كلمة تحرير وغفران ومصالحة. ومن خلالها، يريد أن ينقذنا من الحالات الطارئة والضمانات المادية البحتة. إن الله يتصرف معنا كأب يحاول أن يربينا. فهو يريد أن يجعلنا أشخاصًا ناضجين لا تتقاذفهم دوافعهم وميولهم الطبيعية، بل يعيشون في انسجام مع خالقهم وخليقته. لكن من أجل ذلك عليك أن تكون مستعدًا للتخلي عن أشياء معينة، كما تحكي القصة التالية.

في دول جنوب شرق آسيا مثل فيتنام والفلبين ولاوس، وكذلك في جنوب الهند، كانت هناك خدعة لاصطياد القرود لعدة قرون. أثناء مراقبة قرود المكاك، خطرت ببال فلاح ذكي فكرة اصطيادها بالاعتماد على ضعفها. القرود تحب الفاكهة، لذلك توصل إلى فخ بسيط للغاية. في ثمرة جوز الهند الخضراء ذات الطبقة السميكة من الألياف من الخارج، أحدث حفرة كبيرة بما يكفي ليتمكن القرد من إدخال يده فيها بصعوبة. ثم وضع الفلاح موزة ناضجة بالداخل، مع ربط ثمرة جوز الهند نفسها بشجرة. تشم القرود الموز الناضج، ويشعرون بالفضول ويضعون أيديهم داخل ثمرة جوز الهند. يضغطون عليها بقوة، ولكن بمجرد امتلاء أيديهم، لا يمكنهم إخراجها ثانية. لذلك يتم اصطيادهم من خلال جشعهم.[٣٩]

كم مرة تصرفنا نحن مثل تلك القرود؟ نحن نركز كل طاقتنا على ما لدينا وما نعرفه جيدًا. ومع ذلك، من خلال التمسك الشديد هذا، نظل أسري لسلوكياتنا وعاداتنا. للوهلة الأولى، هذا أمر منطقي يبعث فينا قدراً من الطمأنينة، لكنه في الواقع يبقينا أسرى، ويمنعنا من

39 https://coachinglovers.com/weisheiten/die-affenfalle-eine-geschichte-ueber-das-loslassen/

التقدم في الحياة والانقياد بحركة الروح القدس. إن هذه القرود إن لم تفلت ما بيدها، فلن تستطيع أن تتحرر.

كثيرًا ما يعجبني إخوتي وأخواتي المصريين الذين، على الرغم من أنهم بعيدون عن الحصول على الخيرات المادية ووسائل الراحة التي نعرفها في بلادي، إلا أنهم على استعداد للتخلي عن كل شيء من أجل خالقهم ومخلصهم. إنهم منفتحون على أي شيء لاتباع المسيح، حتى لو بذلوا حياتهم إذا لزم الأمر. سألت ذات مرة قسًا يعيش في دلتا النيل كيف يمكنني مساعدته. فأجابني دون تردد:

١) صلوا لأجلنا.
٢) زورونا.
٣) شجعونا.
٤) أفيدونا بإرشاداتكم.

هذه لفتات صغيرة، بسيطة جدًا، ولكن يمكن أن يكون لها تأثيرات عظيمة. إن الذهاب للقاء هؤلاء المسيحيين المشتتين يعتبر بمثابة تشجيع كبير لهم. وبالنسبة لي، فإن عيش لحظات الشركة هذه ينقلني للحظة إلى السماء حيث سنكون جميعًا معًا قريبًا لتمجيد ربنا الذي نشترك جميعاً في عبادته. إنه هو الذي يجعلنا شعباً واحداً مفدياً ومتحداً حول المسيح، موسى الجديد.

عندما نسير مع الله على دروب الحياة، يجب أن يصبح ما فوق الطبيعة هو الطبيعي. الشعار هو السلوك لا بالعيان بل بالإيمان. وهكذا يمكننا أن نخطو خطوة تلو الأخرى دون خوف، لأنه معنا. لنستلهم تجربة النبي أليشع الذي جاء الجيش السوري ليطلبه من بيته. كان الجميع من حوله خائفون، لكنه بقي هادئا، لأنه يرى جيش الملائكة إلى جانبه. ثم قال لخادمه:

"لَا تَخَفْ، لِأَنَّ ٱلَّذِينَ مَعَنَا أَكْثَرُ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَهُمْ." (٢مل ٦: ١٦).